T
8A

نواح
من الجهاد في العصر العباسي

رسالة قدمت إلى الدائرة التاريخية في كلية الآداب والعلوم في بيروت الأميركية

لنيل شهادة

الأستاذية في العلوم

بقلم

البرتين جويدة

بيروت
الجامعة الأميركية
١٩٤٨

الفهـــــرس

الباب الاول ..... العائلة

الفصل الاول - المرأة "الحرة"

الفصل الثاني - الجوارى

الفصل الثالث - تأديب الاولاد

الباب الثاني ..... مستوى المعيشة

الفصل الاول - الاسعار، المهن والحرف ، النفقات ، الدخل

الفصل الثاني - البيوت

الفصل الثالث - الملابس

الفصل الرابع - الطعام

الباب الثالث ..... بعض العادات والمراسيم الاجتماعية .

الفصل الاول - الاساطير ، والخرافات والمعتقدات

الفصل الثاني - الاخلاق العامة "ميزات الرجل المهذب الظريف"

الفصل الثالث - بعض العادات الاجتماعية والمعاملات .

الفصل الرابع - مجالس السمر واللهو واللعب .

الفصل الخامس - الاعياد ومراسيمها

المقدمـــــــــــة

ناء المجتمع العباسي باعباء احمال كثيرة جـــدا ، نتيجة التقلبات والاحـــداث السياسية التي عانتها البلاد . ولا شك ان القارئ يعلم بان الدولة العباســـية قامت على اكتاف الفرس . فبعد ان اثار العباسيون قوى كامنة مكبوتة في نفسيـــة الفرس المتذمرين ، قوت الدعوة العباسية ومبادؤها فيهم الميل للوصول الى الحكـــم ، ولاحياء مجدهم التالد ، وفسحت المجال لظهور بعض التيارات الاجتماعية وخاصـــة مبادئ الغلو . هب الفرس يساندون العباسيين بصرخة واحدة ، صرخة الخـــلاص من النظام الطبقي الذي فرضه عليهم آل ساسان ، النظام الذي وعد العباســـيون بتغييره ، ولم يغيروا منه شيئا ، بل اكتسبوا ود الايرانيين وتأييدهم لهم ابان الحركة .(١)

اشرك العباســـيون ارستقراطيه الفرس في الحكم ، ولكن طموح هؤلاء ورغبـــة بعضهم في ارجاع مجد فارس القديم ، وحرص العباسيين الشديد على خلافتهم ادى الى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم .

نكب المنصور ابا مسلم الخراساني ، والرشيد البرامكة والمأمون بني سهل . وهكذا ساءت العلاقة بين العباسيين وبين الارستقراطية الايرانية ، وحاول الايرانيون ان يتعاونوا ضد الحكم العباسي ، فنشأت الامارات الايرانية الواحدة تلو الاخرى .

جاء المعتصم وعرش الخلافة والدولة مهددين بالبيزنطيين وثورة بابك والخـــرمية .(٢) والفرس لا يحركون ساكنا لمساعدة العرب ، لذا كان المعتصم بحاجة الى عنصر قوى يدعم عرشـــــه .(٣)

---

(١) الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، صفحة ١٠
(٢) اليعقوبي ، التاريخ ، جزء ٢ ، صفحة ١٩٩ ــ ٢٠٠ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٣٣٨ ــ ٣٤١
(٣) Nöldeke , Sketches from eastern History, P. 98

خطا المعتصم بتقريب الاتراك خطوة كان لها نتائج بعيدة المدى ، فقد تعاظم نفوذهم فيما بعد واصبح لهم اثرهم البارز على نظام الخلافة ، وعلى وضع الخلفـــاء وهذا ليس بغريب ، لان الاتراك لم تكن لهم تقاليد حضارية سابقة ، ولا خبرة بالادارة ، فلا عجب ان يصبح الاتراك اكبر دودة تنخر في جسم الخلافة العباسية بعد ان استفحل امرهم بنقل العاصمة الى سامراء .

استبد الاتراك وتزعموا الامور ، واصبح امر اختيار الخليفة لهم ، وكان هـــذا التدخل يتراوح بين ممارسة بعض التأثير وبين التعيين المطلق .

قتل المتوكل ، فكانت نتيجة ذلك وخيمة على الخلافة اذ كان الحادث ، اول هجوم بارز على شخص الخليفة ، وفاتحة عهد التعديات على الخلفاء بالقتل والسمـــل والخلع .(١) ومما زاد في ضعف الخلافة قيام الامارات المستقلة في الشرق : امارات الطاهريين ، الصفاريين ، السامانيين ، وثورة الزنج التي زعزعت اركان الدولة ، ودعايات القرامطة والاسماعيلية ، واستئثار احمد بن طولون بمصر ، ولكن ما عتمت الخلافة ان استردت شيئا من هيبتها بمجهود الامير (الموفق) وابنه المعتضد ، ولكن ما لبث الامر ان تدهور ثانية بمجيء المقتدر الى الخلافة ، وذلك لانشغال رجال الادارة وصغر سن الخليفة وتدخل الحرم والخدم في امر الدولة .(٢) يقول ابن مسكويه " ولمـــا استقر امر المقتدر بالله في الخلافة فوض الامور الى ابي الحسن ابن الفرات ، فدبرها ابو الحسن كما يدبرها الخلفاء ، وتفرد المقتدر على لذاته متوفرا واحتشم الرجال

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ٢ ، صفحة ٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جزء ٨ ، صفحة ٣١٤ ـ ٣١٥

(٢) الصابي ، كتاب الوزراء ، صفحة ١٠٤ لقد بحث ذلك بالتفصيل الاستاذ Bowen في كتابه "The Life and Times of Ali ibn Issa"

والطرح الجلساء والمغنين وعاشر النساء فغلب على الدولة الحرم والخدم . فما زال ابو الحسن ينفق من بيت مال الخاصة ويبذر تبذيرا مفرطا الى ان اتلفها . " اما نفقاته فكانت كثيرة ، اتلف نيفا وسبعين الف الف دينار سوى ما انفقه في الضروريات . (١)

وصلت الفوضى وقلة هيبة الخلفاء الى درجة مكنت بجكم ان يرسل عند موت الراضي ، وقبل استخلاف المتقي ، الى دار الخلافة من يأخذ فرشا والات كان يستحليها . وبعث البريدي الى المتقي طالبا خمسماية الف دينار ليفرقها في الجند فامتنع الخليفة فارسل اليه مهددا مذكرا اياه بما جرى للمعتز والمستعين والمهتدي ، واخيرا اضطر ان يبعث اليه بخمسماية الف دينار . (٢) ولما هجم مع اعوانه على بيت الخلافة هرب المتقي وابنه الامير ابو منصور وعمل هؤلاء النهب والسلب في الدار ، واستولوا على بغداد ، فكثرت الكبسات والسرقات . (٣)

وعندما دخل البويهيون بغداد برئاسة معز الدولة ، لقبه المستكفي ذلك اليوم (بمعز الدولة) ولقب اخاه عليا عماد الدولة واخاه الحسن ركن الدولة ، وامر ان تضرب القابهم وكناهم على الدنانير والدراهم . وخصص للمستكفي كل يوم خمسة الاف درهم لنفقاته ، وكثيرا ما كانت تتاخر عنه هذه الجراية . (٤)

وبمجيء البويهيين انحط مركز الخليفة بصورة واضحة ، اذ يقول ابن الاثير " ذهبت حرمة الخلافة في ايام معز الدولة الى درجة ان الخليفة لم يبق له وزير انما كان له كاتب يدبر اقطاعه واخراجاته لاغير . فصارت الوزارة الى معز الدولة يستوزر من يشاء " . (٥)

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ١ ، صفحة ٢٣٨
(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جزء ٨ ، صفحة ٢٧٦
(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جزء ٨ ، صفحة ٢٨٣
(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جزء ٨ ، صفحة ٣٣٧ — ٣٣٨
(٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جزء ٨ ، صفحة ٣٣٩

oke," Bagdad
Purity of Peace" P. 157

ويفسر ابن الاثير اسباب ذلك فيقول ، ان الديلم كانوا يتشيعون ويعتقدون ان العباسيين قد اغتصبوا الخلافة واخذوها من مستحقيها ، فلم يكن لهم وازع ديني يحثهم على الطاعة . وفعلا حاول معز الدولة البيعة للمعز لدين الله العلوي ، ولكن بعض خواصه قال له ناصحا : ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين كان معك من يعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لفعلوه ، فاعرض عن ذلك ."(١) وهل اكثر من خلع معز الدولة للمستكفي بالله سنة ٣٣٤ هـ يوم حضر عند الخليفة ، وعنده رسول صاحب خراسان ، فتقدم ديلميان الى الخليفة وهو في مجلسه ، فتناولا يده ، والخليفة يظن انهما يريدان تقبيلها ، فجذباه عن السرير وطرحاه الى الارض ، ووضعا عمامته في رقبته وسحباه ماشيا الى بيت معز الدولة ، حيث اعتقل . ثم نهبت دار الخلافة حتى لم يبق فيها شئ . واخيرا سمل وسجن الى ان مات .(٢) اما المطيع فلم يكن قادرا على عمل شئ سوى العمل بمعنى اسمه (اى الطاعة) .(٣)

ولا ضرورة للبيان بان خلفاء القرن الرابع الهجرى كانوا من اختيار البويهيين يولونهم ويعزلونهم حسب ما تمليه مصالحهم .

لا شك ان هذه الفوضى وعدم الاستقرار في دست الحكم وسياسة الدولة ، طبعت المجتمع بطابعها الخاص من الاضطراب ، والقلق ، فالجند دائما في شغب وثورات ، والعامة لا تسكت ، وكم من مرات اضطر فيها المقتدر ان يبعث برجاله لتهدئة الحالة ، فكانوا يلقون القبض على الجميع من غير تفرقة بين مستور او عيار

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جزء ٨ ، صفحة ٣٣٩ Cooke, P. 107
(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جزء ٨ ، صفحة ٣٣٨ ، Cooke, P. 107
(٣) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، جزء ١ ، صفحة ١٥٣ Arnold, legacy of Islam P. 60

فمنهم من يضرب بالسياط ، ومنهم من تقطع يده .(١)

وابن الجوزي في كتابه المنتظم يفصل ذلك ويعطي فكرة واضحة عن موقف العوام ، والقتال المستمر في محلة الكرخ بين السنة والشيعة .(٢) وارهج العيارون بغداد ، وكثرت كبساتهم على دور الخاصة والعامة والاسواق والمخازن وما كانت الحرائق التي يقوم بها العيارون في سبيل السلب والنهب لتنقطع من بغداد ، وساعدت هذه الفوضى دخول الاكراد المتلصصين ليلا الى البلد ، واخذهم دواب الاتراك من اصطبلاتهم ، حتى دعاهم الخوف الى نقل دوابهم الى دورهم .(٣) ثم لم يلبث امر العيارين ان اشتد ، وجاهروا بالافطار في رمضان وشرب الخمرة وارتكاب المحارم ، واشترطوا ان يخطب يوم الجمعة على المنابر للبرجمي رئيسهم ، وفي سنة ٤٢٤ هـ ثار العوام في جامع الرصافة ومنعوا الخطبة ورجموا القاضي وقالوا : ان خطبت للبرجمي والا فلا تخطب لخليفة ولا لملك .(٤)

لم يبق اذا في الدولة ما يسمى بالامن الاجتماعي ، اذ كان الناس يصادرون لاى امر ، واحيانا كثيرة من غير ما تحقيق او سؤال ، كان لهذه الحركة اثر بعيد المدى جدا ، اذ اخذ الموظف يصرف جل همه في جمع المال ، كما ان تنحيته عن الحكم كان يعقبها مصادرة وتعذيب وقتل لا يقتصر عليه وحده بل يتعداه الى خاصته واصحابه .(٥) فمثلا عندما اعقب ابن الفرات عليا بن عيسى في الوزارة "قبض على اسباب علي بن عيسى واخوته وكتابه وجميع عماله في السواد وبالمشرق والمغرب وصادرهم ."(٦) ولما قبض على ابن الفرات هتك حرمه اقبح هتك ، ونهبت داره ،

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٨٦
(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ١٤٩ ، ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ١ ، ص ٣٢٨
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ، ص ٥٠ (٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ، ص ٧٥ ـ ٧٦
(٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ١ ، ص ١٠٧ ، التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٤٧
(٦) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٤٢

ودور كتابه واصحابه .[1] وهذا المحسن ابن الوزير ابن الفرات يقطع رأسه ويؤتى به الى والده ، ولكن سرعات ما تضم رأس الاب الى الابن ويحملان للمقتدر ، ثم يأمر فتفرق جثتيهما في دجلة .[2] لذلك تفنن الناس في اخفاء اموالهم ، فحامد بن العباس مثلا خبأ كثيرا من الخزائن في البلاليع والمستراحات احتفرها وتولى دفن المال فيها بنفسه .[3] ولم تكن نفس المكلفين بالمصادرة او الخليفة لتسكن عن المصادر الا بكميات هائلة من الاموال .[4]

ولم يعد بامكان الصديق ائتمان صديقه ، فانتفت المروءات بين الناس ، وحاول بعضهم الايقاع بالآخر ، رغم ما قد تربطه به من اواصر الصداقة او القرابة او الاحسان[5] وكان للمحسن ابن الفرات يد اولى في هذه الوضى .[6] قال الوزير ابن سعدان "اين الفراغ واين السكون ؟ ونحن في كل يوم ندفع الى طامة تنسي ما سلف ، وتوعد بالداهية اللهم هذه ناصيتي بيدك ، فتولني بالعصمة ، واخصصني بالسلامة واجعل عقباى الى الحسنى ."[7]

وكما مر بنا ان القرن الرابع كان فترة مظلمة في السياسة العباسية ، ولكنه فترة النور والعظمة في الثقافة . ازدهر المجتمع وتبلر عليها ادبيا واجتماعيا . والتوحيدى في كتابه الامتاع والمؤانسة يصف لنا بعض مجالس الادب والعلم والثقافة يومئذ . فيحدثنا بان امراء القرن الرابع الهجرى وزراؤه كانوا اكبر مشجعين للحركة العلمية والادبية ، وكانت مجالسهم منتدى الادباء والشعراء والعلماء والمحدثين ، ينيلون هذا ويوصلون

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ١ ، صفحة ٢٠ ، الصابي بالوزراء صفحة ٢٨ ـ ٢٩
(٢) الصابي ، الوزراء ، صفحة ٦٢ (٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة صفحة ١٥ ـ ١٦ ،
ابن مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ١ ص ١٠٢ (٤) ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ١ ، ص ١٤
(٥) ابن مسكويه ، ج ١ ، ص ١٥
(٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، صفحة ١٠٢
(٧) التوحيدى ، الامتاع والمؤنسة ج ١ ، صفحة ١٣٠ ـ ١٣١
(٨) Cooke, P. 157 .

ذاك ، ولا يخفى ما للتشجيع من تأثير كبير في الاوساط العلمية . فذاك ابن عباد وابن العميد والوزير ابن سعدان ، ووزير صمصام الدولة الذى كان يحضر مجلسه نخبة العصر المثقف ، كابن مسكويه ، وابن زرعه ، وابن الخمار ، ويحي ابن عدى ، وابي سعيد السيرافي وابي بشر متى وابي الوفاء المهندس وابي حيان التوحيدى وغيرهم ، اكبر شاهد على قوة الحركة العلمية وفضل الامراء والوزراء في تشجيعها . وكم عقد ابن الفرات المناظرات والمجادلات واشترك في البحث فحول وارباب الكلام والمعرفة .

هذه لمحة مختصرة عن الحياة السياسية والثقافية في القرن الرابع الهجرى ، عسى ان تساعد القارئ في تفهم روح المجتمع اذ ذاك ، وتكوين فكرة واضحة عن مختلف نواحي النشاط فيه .

٢٥ ايار سنة ١٩٤٨ البرتين جويدة

الباب الاول

العائلة

خطة البحث

الفصل الاول ..... المرأة "الحرة"

١) نظرة الناس للبنت

٢) تعليم الفتاة والغرض منه

٣) المؤهلات للزواج والخطبة

٤) تعدد الزوجات

٥) ما ينتظر من الزوجة الكريمة ـ زواج الام ـ العلاقة الزوجية ـ

٦) منزلة المرأة ـ دورها الاجتماعي ـ دورها السياسي .

الفصل الثاني ..... الجواري

١) تمهيد في معنى الجارية .

٢) مصادرهن

٣) تعليمهن

٤) سوق النخاسين وحيلهم

٥) مزاتهن

٦) بيعهن واثمانهن

٧) المدن اللواتي يشتغلن بها ـ البغاء ـ

٨) منزلتهن من الرجال

٩) اخلاقهن

١٠) الـــزواج ـ الاولاد ـ

١١) اثرهـــن في الجـــو العائلـــي

١٢) اثرهـــن في المجتمع ـ وفي السياسة ـ

١٣) الـــزينة

الفصـــــــــل الثالث ..... تأديب الاولاد

الباب الاول

العائلة

الفصل الاول - المرأة "الحرة"

وجدت لتكون احد الركنين اللذين بني عليهما هذا العالم ، كانت ولم تزل وستبقى تلعب دورا مهما في حياة الرجل خاصة والمجتمع عامة ، ايستطيع الرجل السكوت عنها ؟ ايمكنه العيش بدونها ؟ ففي مسراته واحزانه واشغاله " هـي " " هـي ؟ . ففي مجالس الطرب والسمر هي القلب والمهجة ، لا تلذ الخمرة شاربها ولا ينتشي حاسيها ولا الاوتار تلعب بالعواطف وتطلق اللسان بالزفردة والغناء ان لم تكن "هـي " ... وفي الحزن والبكاء هل من صدر رحب صبور يقصده الرجل غير صدرها " هـي " وهل من يكفكف دمعه ويجلي الهم واسبابه عن نفسه ، سوى المرأة !!! ... فالمرأة هي جنة الرجل وجحيمه احيانا ، يرى كثيرا من العذاب بقربها ولكنه لا يستطيع العيش بدونها .

فمرأة القرن الرابع الهجرى بطبيعتها هي امرأة القرن العشرين ، لا تختلف الاخيرة عن الاولى الا بالمحيط والمجتمع وتقاليده الحديثة التي لا تزال بعضها سليلة التقاليد التي عرفها العالم في القرن الرابع الهجرى ، غير ان العرف والمدنية الحديثة رفعت من قدرها ، واعطت لها بعض القيمة التي كانت معروفة يومئذ ، بحيث ان كانت تشترى وتباع وتهدى كسلعة رخيصة اوكأى قطعة من اثاث البيت الذى يمكن تعويضه اذا ما فقد او انكسر ، في اى وقت .

نظرة الناس للبنت .

فهذا النوع من التفريط فيها وسهولة متناولها قلل من هيبتها واحترامها ، او بالاحرى عدمت هاتين الصفتين في المجتمع ، الى درجة اثرت في العاطفة البشرية حيث ان

يغضب عند ولادة البنت ،كأنما ليست قسما من روحه كأخيها الصبي ،وفي كثير من الاحيا كانت ولادتها مناسبة تعزية ، ومجلبة ملامة للزوجة . فابو حمزة الضبي هجر خيمة امرأته ، وبات عند جيران له حين ولدت امرأته بنتا ، مر يوما بخبائها واذا هي ترقص البنت وتقول

ما لابي حمزة لا يأتينـــا ... يظل في البيت الذى يلينـــا

غضبان ان لا نلد البنينـا ... تالله ما ذلك في ايدينـــا

وانما نأخذ ما اعطينـــا ... ونحن كالارض لزارعينـــا

ننبت ما قـــد يزرع فينـــا

فدخل الشيخ حينئذ بيت زوجته وقبلها مع ابنتها .(١) ورزق بعض امراء الكوفة بنت فساءه ذلك وامتنع عن الطعام فدخل عليه بهلول وتعجب من حزن الامير فقال له : "ما هذا الحزن اجزعت بخلق سوى وهبه رب العالمين ،ايسرك ان مكانها ابنا مثلي ".(٢) وقال عضد الدولة عن امه قالت : " حملت بك باصفهان فخفت ان اجئ ببنت فلا ارى مولاى ولا يراني لما اعرفه من كراهته للبنات وضيق صدره بهن وطول اعراضه عنهن ،ولم ازل على جملة من القلق والجزع الى ان دخلت في شهرى وقرب ما اترقبه من امرى ،واقبلت على البكاء والدعاء ومداومة الصلاة والادعية الى الله في ان يجعله ولدا ذكرا سويا محظوظا ".(٣) وقال احد اولاد الزبرقان بن بدر : "احب كنائني الي الذليلة في نفسها . التي في بطنها غلام ويتبعها غلام ،وابغض كنائني الي العزيزة في نفسها .. التي في بطنها جارية وتتبعها جارية ".(٤)

والبشرى بهن امقت ما يمكن ان يسمعه الرجل اويطرق اذنيه ،حتى ضرب بذلك المثل ،جاء في مقامات الحريرى ان جماعة طلبت من احدهم ان يحسر عن نفسه وكان غريبا بين القوم قال : " فاعرض اعراض من مني بالاعنات او بشر بالبنات ".(٥)

---

(١) الجاحظ ،البيان والتبيين ،ج ١ ،ص ١٦٣
(٢) ابن الجوزى ،الاذكياء ،ص ١٥٣
(٣) ابن مسكويه ،تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٤١٨
(٤) ابن قتيبة ،عيون الاخبار ،كتاب النساء ،ج ٤ ،ص ٤
(٥) الحريرى ،المقامات ،ص ٣٦٨

ولم يقف الحد عند ولادتهما فقط ولكن في سني الطفولة ، وقد تكون جميلة ومدللة ومن هذا يتبرم الاب بمجيئهما الى العالم ، وحدّث شخص كان عند مؤدبه فجئ ببنت له صغيرة تدعى وسناء وعليها ثوب حرير ، اخذها في حجره وجعل يناغيها ويدللها وانشد :

وما الوسناء الا شبه درّ ولا سيما اذا لبست حريرا
فاحسن زيّها ثوب نظيف تكفن فيه ثم ارى سريرا
تهادى بين اربعة عجال الى قبر فتملأنا سرورا . (١)

اما موتها فكان امرا يهناء فيه ، ويرون البكاء عليها عيبا . قال البحتري في ابنة لاحد بني حميد :

ظلم الدهر فيكم واساء فعزاء بني حميد عزاء

ومنها : اتبكي من لا ينازل بالسيف مشيحا ولا يهز اللواء
والفتى لا يرى القبور لما طا ف به من بناته والالفاء

ومنها : ولعمري ما العجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساء . (٢)

وقال ابو الفتح كشاجم يعزي بابنة .

تأس يا ابا بكر لموت الحرة البكر
فقد زوجتها القبر وما كالقبر من صهر
وعوضت بها الاجر وما كالاجر من مهر
زفاف اهديت فيه من الخدر الى القبر
فتاة اسبغ الله عليها افضل الستر . (٣)

---

(١) ياقوت ، الارشاد ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٩
(٣) النويري ، نهاية الارب ج ٥ ، ص ٢٢٠

وقال البحتري يعزي موسى بن عبد الملك عن ابنة له توفيت :

ومن نعم الله لا شك فيـــه حياة البنين وموت البنـــات

لقول النبي عليـــه الســلام موت البنات من المكرمات .(١)

وكان الخوارزمي قد بعث برسالة الى رئيس يعزيه بابنته ، فهو بعد ان يمدحها ويعدد شمائلها يقول :

فان تكن خلقت انثى لقد خلقت كريمة غير انثى العقل والحسب .

... ثم يستطرد قائلا ... ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب امرها لكنت الى التهنئة اقرب مني الى التعزية فان ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرومات ، ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمته الى القبر فقد بلغ امنيته من الصهر ، وقال الاول :

ولم ار نعمة شملت كريما كنعمة عورة سترت بقبر .

وقال الثاني :

تمنى حياتي واهوى موتها ابدا والموت اكرم نزال على الحرم

وقال الثالث :

وددت بنيتي ووددت انـــي وضعت بنيتي في لحد قبر .

وقال الرابع :

ومن غاية المجد والمكرمـــات بقاء البنين وموت البنـــات .

وقال الخامس :

سميتها اذا ولدت تمـــوت والقبر صهـــر ضامن زميـــت .(٢)

---

(١) البحتري ، الديوان ، ج ٢ ، ص ٧٩٢
(٢) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٢٠

وقال ابو مروان بن ابي الخصال الاندلسي

الا يا موت كنت بنا رؤفـــا فجددت الحياة لنا بزوره

حمدت لفعلك المأثـور لمـــا كفيت مؤنة وسترت عـــوره

فانكحها الضريح بغير مهـــر وجهزنا الفتاة بغير شـــوره . (١)

وكتب الخوارزمي مرة الى كثير بن احمد يعزيه بابنته :

" واذا كان لا بد من عيب تصيب طرفا ... ولان يقع سهم الزمان على النسوان امثل من ان يقع على الذكران ، فالحمد لله الذى جعل في طي المحنة منحة ومزج بالترحة فرحة فستر عورة من حيث سلب انا ونزهـة ... ويعوض عنها الشيخ اخا لها سوى الخلق والخلق شريف الفعل والعرق ". (٢)

ووصل الامر ببعضهم ان يكتب معزيا بموتها ولكنه لا يجسر على ذكرها لانها اقل من ان يكتب باسمها ، فالخوارزمي يكتب للوزير ابن عباد في اصفهان يعزيه بوفاة اخته ... بعد الكلام والدعاء يقول : " فاني اغار لهيبة الوزير من ذكر النساء ". (٣)

اما المتنبي فبالرغم من رثائه اختي سيف الدولة ووالدتهما بانفس واغلى درر الرثاء العربي ، ووصفهن في مصاف الشرف والكمال يقول في اخت سيف الدولة المتوفاة في ميّا فارقين :

وان تكن خلقت انثى لقد خلقت كريمة غير انثى العقل والحسب . (٤)

---

(١) النويري ، نهاية الارب ج ٥ ، ص ٢٢٠
(٢) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٥٨ ـ ٥٩
(٣) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٨١
(٤) المتنبي ، الديوان ج ٢ ، ص ٤٦٣

تعلم الفتاة والغرض منه .

ان تأديب البنت لم يكن بالامر الذى يستوجب الانتباه ، فكل ما كان ينظر اليه هو تعليمها قراءة القرآن وختم بعض اجزائه ثم تدبير امر البيت ، اذ كان الغرض من ذلك ان تتهيأ لتصبح زوجة صالحة يمكنها القيام بامر الزوج والاولاد ، ومعرفة دينها معرفة صحيحة ، هذا كل ما كان يستهدفون ، اذ ان الثقافة العالية في الشعر والنثر والحديث وغيره لم تكن لتعلم للبنت الحرة بل للجارية فقط . التي كانت تجالس الرجال . اما الحرة فمحظور عليها مجالستهم . كان هذا بصورة عامة ، ولم يمنع نبوغ او ظهور بعضهن اللواتي يشذون نتفا من سيرهن في غير هذا المحل .

وبعد ان تتعلم البنت ما يطلبه منها المجتمع يومئذ تكون قد اجتازت مرحلة الطفولة ، فيهم اهلها كثيرا امر تزويجها . حتى انهم كانوا ينسبون احاديث نبوية في هذا الباب . منها : قال حاتم الاصم كان يقال : العجلة من الشيطان الا في خمس فانها من سنة رسول الله (ص) : اطعام الضيف اذا حل ، وتجهيز الميت اذا مات وتزويج البكر اذا ادركت ، وقضاء الدين اذا حل ووجب ، والتوبة من الذنب اذا وقع .(١)

المؤهلات للخطبة والزواج .

وكانت العادة ان تتزوج البنت ابن عمها شاءت ام لم تشاء .(٢) ولم يعط لمشيئتها اى اهتمام اذ لا رأى لها في الموضوع ، انما الحل كله بيد ولي امرها . وهذا كان ينطبق على جميع الاسر ، حتى بنات الخليفة .(٣) والزوجة هذه كانت عادة تتزوج على صداق (مهر) ويختلف باختلاف حالة الزوج المالية ، فمثلا مهر الخليفة الطائع زوجته شاه ناز

---

(١) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٤
(٢) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٧٤
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٥ ، ص ٤٠٩ (قصة عبد الملك بن صالح مع جعفر البرمكي وتزويج جعفر العالية لابن عبد الملك) .

ابنة بختيار مائة الف دينار .[1] وكانت المرأة التي تتزوج بمهر تسمى (الحرة) لتفريقها عن الجارية المملوكة .[2] ولما كان الرجل يتسرى بكثير من الاماء وينجب منهن لذا دعيت زوجته المعمورة دائما (بالحرة) عند الاشارة اليها او التنويه عن اسمها .

كان عسيرا على كثير من الرجال ان يرى الحرة قبل بنائه بها . يقول غورك المجنون :

ما كان اغناني عن حب من من دونها الاستار والحجب .[3]

وقال آخر :

اقول باعلى الصوت ما بي جنة وما بي الا حب من ليس ينصف

ومنها :

بنفسي واهلي من ارى الموت جهرة اذا ما بدا منه البنان المطرف .[4]

ويقول غيره :

جزى الله البراقع من ثياب عن الفتيان شرا ما بقينا
يوارين الملاح فلا نراها ويزهين القباح فيزهينا[5]

ولما حكموا على الحرائر ان يقبعن في الدار وحضروا عليهن الخروج ومقابلة الرجال كانت ام الخطيب او احدى النساء الكبيرات في السن المجربات هي التي تسفر في امر التفتيش عن زوجة صالحة لفلان بن فلان ، ثم تذهب الام والاخت الكبرى والخالة وغيرهم لرؤيتها ، وليس للبنت اى رأى في الموضوع بل والداها هما اللذان لهما الخيار في امر تزويجها الى شخص لم يسبق لها ان نظرت الى وجهه من قبل . وليس من الادب او اللياقة ان ترفض البنت رغبة اهلها ابدا . وفي كثير من الاحيان كان الاب يقدم ابنته

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ ، الاصفهاني ، الاغاني ج ٤ ، ص ٣٦٣ ، وكذلك ابن تغربردى ، اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ١٩
(٢) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ١٢ ، ص ٢١٣٦
(٣) مصارع العشاق ، ص ٢٨ — ٢٩ ، ابن قيم الجوزية ص ١٧ (على ان الشعر لعلوه المجنون) .
(٤) ابن قيم الجوزية ، اخبار النساء ، ص ١٧
(٥) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، كتاب النساء ج ٤ ص ٣٨

الى صديقه او مرؤسه اذا كانت علاقاتهما قوية فيقول له "انما هي جارية لك ".(١)

وفي اليوم المعين يأتي الخطيب مع الاصحاب والامام ليسألوا والد الفتاة رسميا في طلب يدها ، وفي هذه الزيارة ، يعين مقدار المهر ، وحينئذ يقرأ الامام الفاتحة .(٢)

وكانت العادة في بغداد في اليوم السابق للزواج ان يخبر العريس عددا من النسوة اللاتي في بيته ويبعث لكل منهن بحذاء او شئ من الهدايا البسيطة مع حلويات ومناديل حريرية كالتي توزع على المدعوين . كانت هدايا العروس تحمل في صواني على رؤوس الخدم من الرجال وتبعث بحفل كبير الى العروس ويتقدم هذا الحفل كله المزمار والطبل متبوعين بعدد من النساء اللاتي يهللن من وقت الى آخر فرحات .(٣) ولا تزال هذه المشاهد مألوفة لدى البغداديين . وفي اليوم ذاته يبعث العريس بدعوات الى الرجال الذين يكونون شهود العقد الذى يعد مرتبة مهمة جدا في الزواج .(٤)

وفي يوم الزواج يتقاطر المدعوون الى بيت والد العريس ، النساء في دور الحريم والرجال في قسمهم الخاص . وعندما يكمل شمل الجميع يتقدم شاهد عن العريس وآخر عن العروس للتوقيع ، وهذه نقطة مهمة يجب ملاحظتها لان الزوجين لا يحق لهما ان يوقعا على العقد . فيسأل الامام الشهود رسميا ان كانوا راضيين على بنود الزيجة ، وبعده يضع يد العروس بيد العريس بحيث يتلاقى ابهاماهما ، ويقرأ الحاضرون جميعا الفاتحة ، وبذا ينتهي القسم الرسمي والشرعي من مراسيم الزواج .(٥) والعادة ان يرش ماء الورد على المدعوين ويشربون ماء السكر .(٦)

---

(١) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٧٤
(٢) Levy, Sociology of Islam P. 151 V.I
(٣) Levy, Sociology of Islam P. 195 V.I
(٤) Levy, Sociology of Islam P 160 V.I
(٥) Levy, Sociology of Islam P 160 V.I
(٦) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٧٤

اما المهر فيقبضه والدها او جدها او ابن اخيها او عمها او خالها او اى قريب آخر يقوم عليها مقام ولي الامر ، وان لم يكن لها ولي ، يتولى القاضي امرها ، والولي يجب ان تتوفر فيه الشروط التالية : ١) - ان يكون راشدا . ٢) - رجلا . ٣) - حرا . ٤) - كامل العقل . ٥) - اخلاقه جيدة . (١) ويجب ان تعطى صفات الشخص ان لم يكن له حق الولاية عليها شرعا ، وكذلك اذنها في ذلك ورضاها . (٢)

ويجب على وليها الشرعي كالاب او الجد الاعلى او الاخ او ابن الاخ او العم او ابن العم ابنه او وليه ان يكتب عند تزويجها اسمه ونسبته منها وحق ولايته عليها شرعا ، واذنها له في ذلك ورضاها . ، اما اذا كان المزوجون اخوتها ، فيكتب افضلهم اسمه باذنها واذن بقية الاشقاء . ، (٣) وان زوجها العاقد باذنها واذن ابيها ، او باذنها وحدها ، ان لم يكن لها ولي كتب "وولي تزويجها اياه بذلك القاضي فلان عاقد الانكحة الشرعية بالتولية الشرعية عن فلان ، باذنها واذن والدها له في ذلك ورضاهما ، بعد ان وضح عند فلان انها بكر بالغ" . (٤)

اما اذا زوجها الحاكم في غيبة وليها يبين ذلك ويسجل ايضا . "وولي تزويجها اياه فلان ، بعد شهادة فلان وفلان بخلوها من الموانع الشرعية ، وانه لا ولي لها حاضر سوى الحاكم العزيز ، بحكم غيبة وليها فلان ، وتبين نسبته منها - في مسافة تقصر الصلاة فيها - وان هذا الزوج كفء لها الكفاءة الشرعية في الدين والنسب والحرية ، فحينئذ زوجها الحاكم المذكور من الزوج المذكور على الصداق المعين وقبله الزوج لنفسه ورضيه" . (٥)

واذا كان بالزوج عاهة كالخرس والطرش تذكر ويبين ان المرأة وافقت عليها . او اذا كان الزوج مجبوبا ينوه عنه وعن رضى المرأة به .

---

(١) Levy, Sociology of Islam, P. 165 V. I
(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ، ص ١١٦
(٣) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ص ١١٧
(٤) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ص ١١٧
(٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ص ١١٩

اما اذا زوج الوالد ابنته باذنها او زوجها وهي غير بالغ كتب ما يلي : "هذا ما اصدق فلان فلانة البكر البالغ ابنة فلان ،صداقا تزوجها به ،على بركة الله تعالى وعونه ، ... قبضته الزوجة وتسلمته ،او قبضه والد الزوجة لها باذنها ... "(١)

وان كانت تحت حجره كتب " قبضه للزوجة والدها ليصرفه في مصالحها "... وان كان الصداق بكماله على حكم الحلول كتب " عجل لها الزوج في ذلك كذا وكذا ، وباقي ذلك في ذمته على حكم الحلول ... وولي تزويجها اياه بذلك والدها ".(٢)

اما في حالة كونها دون البلوغ يكتب " بحق ولايته عليها شرعا ،لما رأى لها في ذلك من الحظ والمصلحة وحسن النظر . " طبعا بعد ان يكون قد افهم القاضي ان البنت بكر وبالغ وبانها خالية من العيوب وموانع النكاح الشرعية ،ويجوز العقد عليها شرعا ،وان والدها له حق الولاية عليها بشهادة جماعة من المسلمين وهم فلان وفلان .. وبناء على ذلك زوجها والدها من فلان على الصداق المعين وقبله الزوج لنفسه ورضيه ، ثم يؤرخ .(٣)

واذا اعترف الاب برشد ابنته كتب " واعترف والد الزوجة المذكورة بان ابنته رشيدة ،جائزة التصرف ، لا حجر عليها ".(٤) وجاء عن ابي حنيفة ان البكر اذا قال لها وليها فلان يذكرك فسكتت فزوجها ." " وان قالت لا ارضى فالنكاح جائز ،وان فعل هذا غير ولي او ولي غيره اولى منه لم يكن رضا حتى تتكلم .(٥) رجل زوج بنت اخيه ابن اخيه وهما صغيران فاذا بلغا جاز لهما الخيار ،واذا علمت بالنكاح فسكتت فمعنى هذا رضا ،وللغلام الخيار ،هذا ان لم يكن قد رضي ."(٦)

---

(١) النويري ،نهاية الارب ج ٩ ،ص ١٢٤
(٢) النويري ،نهاية الارب ج ٩ ،ص ١١٥
(٣) النويري ،نهاية الارب ج ٩ ،ص ١١٦
(٤) النويري ،نهاية الارب ج ٩ ،ص ١١٧
(٥) الجامع الصغير ص ٢٢
(٦) نفس المصدر .

اما في حالة تزويج الصغير او المراهق لصغيرة كذلك يبيّن في الكتاب " هذا ما اصدق فلان عن ولده ـ ويذكر سنه ، والذى تحت حجره ، وكفالته وولاية نظره ، ولما رأى له في ذلك من الحظ والمصلحة في دينه ودنياه ، فلانة البكر ويعين سنها ـ ، ابنة فلان التي تحت حجر والدها المذكور وكفالته ، لما رأى لها في ذلك من الحظ والمصلحة صداقا مبلغه كذا وكذا ، قبضه منه والدها لابنته المذكورة ليصرفه في مصالحها ، وان كان من مال والده " (١)

وان كان الزوج ممن مسه الرق وعتق ، يكتب " وعلمت الزوجة المذكورة ووالدها ان الزوج المذكور مسه الرق وعتق ، ورضيا بذلك " (٢) وعندما يتزوج العبد الحرة يكتب : " هذا ما اصدق فلان مملوك فلان ، المقر لسيده بالرق والعبودية ، بسؤال منه لسيده ، واذن سيده له في ذلك الاذن الصحيح الشرعي ، واشهد عليه بذلك شهود هذا الكتاب ، فلانة بنت فلان ، صداقا تزوجها به ، جملته كذا وكذا ، الحال من ذلك كذا وكذا ، قبضته الزوجة من مال سيده الذى بيده باذن سيده له في ذلك ، وباقي ذلك ـ وهو كذا وكذا ـ يقوم به سيده لها عن عبده من ماله ، في سلخ كل سنة تمضي من تاريخ العقد كذا وكذا ـ وان كان مال العبد من كسبه ذكره ـ واذن له سيده في السعي والتكسب والبيع والشراء ، والاخذ والعطاء ، وولي تزويجها " ويكتب في اخره " وعلمت الزوجة المذكورة ان الزوج مملوك ، ورضيت بذلك " (٣) . وان كان لهما اولياء كتب رضاهم .

والزوجة الثيب عند زواجها يشهد الشاهدان لدى المأذون انها خالية من جميع موانع النكاح الشرعية " ومنذ طلقها زوجها فلان الذى دخل بها واصابها ، الطلقة الاولى الخلع ، او الثانية ، او الثلاث ، او الرجعية التي انقضت عدتها ولم يراجعها ، المسطرة على ظهر صداقها او حاشيته ، المؤرخة بكذا وكذا ولم تتصل بزوج غيره الى يوم تاريخه " (٤) . والرجل يتزوج المرأة بغير وكالة ، كما انه يوكل بالتزويج اذا اقتضى الحال (٥) .

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ص ١٢٠
(٢) النويرى ، نهاية الارب ج ٩ ص ١١٧
(٣) النويرى نهاية الارب ج ٩ ص ١٢٣
(٤) النويرى ، نهاية الارب ج ٩ ص ١١٧
(٥) الجامع الصغير ص ٢٢

وكان للمغنية "الحرة" قيمة ومركز وينظر الرجل اليها نظرة احترام اكثر من اختها الجارية . ولو ان الاخيرة تستحوذ على لبه وعقله ... يقول الوشي "ليس بنات البيوت في الخدور وربات الحجال والقصور كذوات المزق من القينات وكذوات التكسب من المتقينات فان هؤلاء معروفات بطلب الدراهم والاموال منسوبات في التكسب بتعشق الرجال ، لا يقدم عليهن الا مغرور ولا يثق بهن الا مسحور ، وانما يذهب على اهل الالباب واهل التظرف والآداب مكر البنات المخدرات والغواني المحجبات اللواتي لم ترهن العيون ، ولم تكثر فيهن القالة والظنون ، اللواتي يبذلن نفيس الاموال لمن يتعشقهن وكاتبنه ." (١)

والجميلة من هؤلاء ، سوقها رائجة وامر تزويجها سهل وميسور واما الدميمة فالويل والثبور لها ولوالدها المسكين ، لم يكن ليألو جهدا " في جودة كساها وكثرة حلاها يشترى لها المطوى والطوى ويكسوها الديباج والمروى ويتجاوز في جهازها الفضة الى الذهب والشعر الى القصب ، ثم هو مع هذا كله خائف عليها ان ترجع اليه مطرودة وعليه مردودة ." (٢)

ثم ان البكر مرغوبة جدا ولها قيمة كبيرة ، مهرها كحرة غالي وثمنها كجارية عالي . قال ابو نواس :

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم

اشهى المطيّ اليّ ما لم يركب

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة

ليست وحبة لؤلؤ لم تثقب . (٣)

وحفلات الاعراس ، امر لا يمكن ان يؤتى عليه او ينتهى منه ، كانت المصاريف والابهة والبهر تصل الى درجة لا يمكن للعقل ان يتخيلها او يتصورها والكتب مملوءة بمثل هذه الاحاديث الشيقة ال

---

(١) الوشاء، الموشى ج ٢ ص ١١٩
(٢) الخوارزمي، الرسائل ص ١٤٩
(٣) ابو نواس بالديوان ، ص ٢٩

تدع السامع يسبح في عالم من السحر والخيال، اليس زواج المأمون ببوران سحرا في قصة، وما زواج قطر الندى الطولونية من المعتضد، ذلك الزواج الذى افقر لهمارويه والدها، وعمرت بنايات وجرايات في عرض الرمال اكراما لها كي لا تشعر بوحشة الطريق ومن فضل بعض القليل من جواهرها اثرى المشرى الذى تناقلته قصص الف ليلة وليلة وغيرها (ابو عبدالله الجصاص الجواهرى) (١) وقد يعترض البعض ويقول انهم خلفاء، ولا عجب في ما ينفقون . وابو زرعة يوم زوج ابنه الحسين ببنت ابي زنبور المادرائي اكان خليفة او ابن خليفة !! كان ابو زنبور الحسين بن احمد في دمشق يومئذ، فكتب اسم مائة شخص وطلب اليهم ان يوافوه قبل صلاة الصبح فحضروا وخرج اليهم مائة غلام بمائة قدح غالية ومائة قمقم ماء ورد ومائة مشط ومائة مرآة ومائة مبخرة، ثم عقد النكاح فخرج مائة غلام بمائة طشت ومائة ابريق وعشرة موائد فعقدوا على كل مائدة عشرة انفس فأكلوا ثم غسلوا ايديهم فالقيت على ايديهم مائة منديل واعيد عليهم الطيب والبخور واخرج مائة صينية فيها الدنانير وتماثيل الند والعنبر فالقيت في اكمام الناس، فبهذا الشكل كان الاملاك واما العرس فاعظم من الاملاك . (٢)

والعادة يومئذ ان يحتفل الناس بتجهيز العرائس بكل طريف ونفيس" وهذا ايضا يتوقف على حالتهم المالية" . وكان ببغداد سوق يسمى "بسوق العروس" لما يحويه من التحف والزينات والجارية اذا وصفت بالحسن والجمال ونفيس ما عليها قيل "كانها سوق العروس". (٣) وخزانة العروس دائما مضرب المثل، حتى ان السفينة المحملة بالغالي واللطيف من قطر الى قطر شبهت بخزانة العروس . (٤)

وتبرز امام العروس الحسناء جارية سوداء تقف بجانبها لتكون اظهر لمحاسنها .

---

(١) المسعودى، مروج الذهب ج ٨ ص ٢٨٢ ؛ ابن الجوزى، المحمقين والمغفلين ص ٢٧ ؛ التنوخي، نشوار المحاضرة ص ١٧
(٢) الكندى، الولاة وكتاب القضاة ص ٥٢١ ـ ٥٢٢
(٣) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٢٤٥
(٤) الثعالبي، ثمار القلوب ص ٢٥٥

درارى الكواكب ان ترى طوا لع في داج من الليل غيهب .(١)

والمعروف ان جمال الشئ يظهر بمقارنته بعكسه وبنفس الوقت كانت السوداء القبيحة كالمعاذ ، ترد العين والحسد عن الجميلة وتبيّن كمالها ونظارتها ، واياها عنى ابو اسحاق الصابي في غلام جميل الوجه يحمل بيديه نبيذ اسود :

بنفسي مقبل يهدى فتونا الى الشرب الكرام يحسن قده
في يده من التمرى كأس كسوداء العروس امام خدة .(٢)

واياها ايضا يعني بقوله :

" كدرّ يدور به ساق " . تشبيها له بالعروس التي تجلى ، وتبرز السوداء القبيحة امامها ، لتكون ابرز واظهر لمحاسنها . وتسمى هذه الجارية (سوداء العروس) .(٣)

وبذا تنتهي كل مراسيم العرس ، فيغبطنها المواشط ويجملنها ويجلينها للزوج(٤) وتكون قد اصبحت زوجته بالشرع ، وعليها الطاعة التامة ... وان اساءت العشرة ، او خالفته بامر من الامور التي يرتئيها فلم يكن يتورع عن ضربها وايلامها وجاز في شرع بعضهم .. قال الماوردى "يجوز للزوج ضرب زوجته اذا نشزت ، واما صفه الضرب فيجوز ان يكون بالعصا وبالسوط الذى كسرت ثمرته ."(٥)

لقد اجاز الشرع الاسلامي الطلاق والفرقة احيانا بين الزوجين وذلك وفق شروط خاصة . ففي الفرقة مثلا يكون الزنا العامل الرئيسي . قال ابو حنيفة " يسقط حد القذف اذا قذف الرجل زوجته بالزنا حد لها الا ان يلاعن منها واللعان ان يقول في المسجد الجامع على المنبر اوعنده بمحضر من الحاكم وشهود اقلها اربعة اشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميت

---

(١) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٢٥٥
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٢٥٥
(٣) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٣٦
(٤) الف ليلة وليلة ، ج ٢ ، ص ٢٣٤
(٥) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٨

به زوجتي هذه من الزنا بفلان وان هذا الولد من زنا وما هو مني ، ان اراد ان ينفي الولد ، ويكرر ذلك اربعا ثم يقول في الخامسة، لعنة الله علي ان كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا ، وما هو مني فاذا قال هذا فقد اكمل لعانه وسقط حد القذف عنه ووجب به حد الزنا على زوجته الا ، ان تلاعن فتقول اشهد بالله ان زوجي هذا لمن الكاذبين فيما رماني به من الز بفلان وان هذا الولد منه وما هو من زنا ، وتكرر ذلك اربعا ثم تقول في الخامسة وعليّ غضب الله ان كان زوجي هذا من الصادقين فيما رماني به من الزنا بفلان فاذا اكملت هذه سقط حد الزنا عنها وانتفى الولد عن الزوج ووقعت الفرقة بينهما وحرمت على الابد .(١)

واختلف الفقهاء ، فيما وقعت به الفرقة فذهب الشافعي الى ان الفرقة واقعة بلعان الزوج وحده ، وقال مالك الفرقة بلعانها معا ، وقال ابو حنيفة لا تقع الفرقة بلعانهما حتى يفرق بينهما الحاكم ، واذا قذفت المرأة زوجها حدت ولم تلاعن ، واذا اكذب الزوج نفسه بعد اللعان لحق به الولد وحد القذف ولم تحل له الزوجة عند الشافعي ، واحلها ابو حنيفة .(٢)

الطـــــــلاق

اما في الطلاق فالعوامل كثيرة ، لا بد وان جميعها ترتكز على عدم الاتفاق بين الزوجين في الاخلاق والعادات والمشارب ، فيرى الفريقان ان في الطلاق الوجه الصواب . انشد ابو القاسم علي بن محمد الكرخي :

وقائلة قالت فلانة طلقت ... فقلت ونفسي اطلقت بانطلاقها

تروح قلبي الهم يوم تزوجت ... وطلق قلبي الهم يوم طلاقها (٣)

وحق للمرأة ان تطلب فسخ نكاحها في ظروف سفر زوجها وتركها لمدة طويلة بدون نفقة او كسوة ففي مثل هذه الحالة يكتب محضر بالغيبة ويشهد الشهود انهم يعرفونها ، ويعرفون الزوج

---

(١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠١
(٢) نفس المصدر
(٣) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٢٩١

معرفة جيدة وان الزوج دخل بها واولدها او حتى اذا لم يدخل بها، على انها عرضت نفسها عليه فامتنع واجل ذلك وسافر ، وقد تركها منذ مدة وهي بعوز وفقر دون ما كسوة ولا نفقة وقد تضررت بسبب غيبته عنها ، ولم تجد من يقرضها على ذمته ، فيمضي الشهود وتمضي هي كذلك . وبذا تطلق منه .(١)

ويمكن الزوج ان يوكل رجلا عنه يقوم بطلاق زوجته ، ويعمل كما لو كان الزوج حاضرا فيطلق طلقة واحدة اولى على مؤخر صداقها عليه ... ويبيّن ما جاء في الوكالة المؤرخة كذا وكذا ، ويطلقها طلقة واحدة عن موكله ، وهكذا تصبح مالكة لنفسها لا يمكن الزوج الرجوع اليها الا بعقد جديد ، ويجب ان تقر بأن لا صداق لها عليه .(٢)

فاذا طلق الزوج الزوجة قبل الدخول بها على ما يتشطر لها من الصداق ، يسقط عنه نصف الصداق وتبرأ ذمته من النصف الثاني .(٣) اما لو طلق الزوج طلقة رجعية بعد الدخول بالزوجة ، فيمكنه ان يرجع اليها ان لم تكن قد انقضت عدتها بعد ، ولكن بعد انقضاء العدة يصبح امرها بيدها وعليه ان يعقد عليها عقدا جديدا بمثل ما يوجبه الشرع .(٤)

وان ارادة المرأة خلع نفسها وطلبت من زوجها الطلاق ، فيطلقها الزوج ، وتكتب هي بأنها لا تستحق عليه صداقا ، ولا بقية من صداق ، ولا نفقة ، ولا كسوة ، ولا حقا من حقوق الزوجية .(٥)

وجاء عن ابي حنيفة : "لا يجوز زواج الاختين في وقت واحد واذا حدث يفرق بينهما ولهما نصف المهر" .(٦)

وقد تكون المرأة احيانا مشتملة على حمل من الزوج ويقع الطلاق فيكتب بان عليه نفقتها من اكل وشرب ولباس وبانها يمكنها الاقتراض باسمه ، اذا تأخر عنها في بعض واجباته نحوها وهي بحالتها الغير الطبيعية .(٧)

---

(١) النويري ، نهاية الارب مج ٩ ، ص ١٣١ ـ ١٣٣
(٢) النويري نهاية الارب مج ٩ ، ص ١٢٩
(٣) النويري نهاية الارب ج ٩ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧
(٤) النويري نهاية الارب ج ٩ ص ١٢٨
(٥) النويري نهاية الارب ج ٩ ص ١٢٨ ـ
(٦) الجامع الصغير ص ٣٣
(٧) النويري نهاية الارب ج ٩ ص ١٢٩ ـ

ولو طلقت المرأة ثلاثا ، فلا تحل على الرجل حتى تنكح غيره .(١)

اما اذا هي ام طفل صغير ، فعليه بدفع النفقة اليه من طعام واكل وشرب وزيت وصابون حمام ، ولها حق الاقتراض باسمه لتطعم وتنفق على الصغير .(٢)

اما الزوج المطلق ان كان عبدا فلا يملك الا طلقتين ... والمجبوب لا يكتب في طلاقه اصابه .(٣)

والاسلام اوجب ضرورة انتظار المرأة المطلقة ثلاثة اشهر قبل ان تعيد زواجها وهذا يسمى "العدة" او "الاستبراء" .(٤) والارملة تنتظر اربعة اشهر وعشرة ايام ليكون هناك متسع من الوقت يتأكد منه ان كانت حاملا من زوجها ام لا . فلو ظهر حملها ، فعلى الرجل الانتظار حتى تضع طفلها .(٥) قال ابو حنيفة "امرأة تزوجت وبها جعل من الزنا فالنكاح جائز ولا يطؤها حتى تضع . اما اذا كان حملها معلوم النسب فالنكاح باطل" وابو يوسف يقول "ان النكاح فاسد بالوجهين".(٦)

اما زواج المتعة ، هو عند الفقهاء على ثلاثة انواع :

١) - ان يتزوج الرجل المرأة على مهر زهيد الى اجل معلوم على ان ينفسخ النكاح عند انقضاء الاجل بغير طلاق . وهذا عند الشيعة جائز .(٧) جاء في قوله تعالى " فما استمتعتم به منهن فاتوهن اجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما ".(٨)

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٩ ، ص ١٢٨
(٢) النويرى ، نهاية الارب مج ٩، ص ١٣٠
(٣) النويرى ، جزء ٩ ، ص ١٢٩
(٤) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ١٤
(٥) Levy, Sociology of Islam P.152. V.I
(٦) الجامع الصغير ، ص ٣٣ ،
(٧) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ١٤
(٨) القرآن ، سورة النساء ، آية ٢٣

٢) - كسوة المطلقة اذا طلقت ولم يدخل عليها .

٣) - متعة الحج وهي ان يتمتع الرجل بها اذا قضى طوافه ، فيحل له ما كان محرما .[1]

وزواج المتعة نادرا ما تتعاطاه الحرة ، وانما الجواري كن يتعاطينه .

تعـــدد الزوجـــات

والزواج باكثر من امرأة واحدة كان امرا مألوفا لا سيما وان القرآن جاء فيه " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا "[2] ولكن هل عمل هؤلاء المتزوجون بما جاء في القرآن فعلا ؟! وهل عدلوا بين زوجاتهم ، لم يحدث ذلك ، لان الزوج لا يتزوج زوجة جديدة الا لغرض او للذة في نفسه ولا بد ان يؤثر تلك الزوجة الجديدة على اساس ذلك الغرض . ولم يخطئ الجاحظ حينما ذكر ان في بعض البيوت كان العيال قسمين واحد معزز مكرم ، له الطيب والحسن والدلال والمفاضا والآخر عليه ان يقنع بكل ما يصل اليه .[3] قال سعيد الصغير احد ندماء المنتصر بالله في جارية له (فما احد احظى عندى منها ، ولا لي ولد احب اليّ من ولدها)[4] .

اما كثرة النساء في البيت الواحد ، معناه شغب متواصل ، تحاول الواحدة الكيد لاختها ما استطاعت ، حتى ضرب المثل (كأن بينهم داء الضرائر) لان الضرائر يبغضن بعضهن بغضا اعمى ولا يفرغن عن المماحكة والمشاجرة .[5] وقال الخوارزمي في هذا الباب " انما النمائم من سلاح النساء ، ومن حصون الضعفاء "[6] وقد يتفق بعضهن ضد واحدة اذا رأينا فيها الجمال ، وانها استحوذت على قلب صاحبهن ، وحينئذ لها الويل والثبور من نار حسدهن ومكائدهن .

---

(١) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، صحيفة ١٤
(٢) القرآن ، سورة النساء ، اية ٣
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٥٢
(٤) ابن قيم الجوزيه ، اخبار النساء ، ص ١٢٣
(٥) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٥٦
(٦) الخوارزمي بالرسائل ، ص ٩٢

قال الشاعر : كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذبا وزورا انه لدميم (١)

احب المهدى احدى جواريه "صدوف" واحلها من نفسه محلا رفيعا فحسدها جواريه واضمروا لها في قلوبهن ، فلم يزلن يبلغنه عنها ما يكره ، حتى غضب عليها وجفاها اياما ، ولما لم يستطع السكوت عنها طويلا ، ولم تطب نفسه بمراجعتها ومصالحتها ، حتى عرف بحاله الاعرابي اخو معلله صاحبة الفضل بن الربيع وقال له ابياتا جاء فيها :

اعتبت ام عتبت عليك صدوف وعتاب مثلك مثلها تشريف

لا تقعدن تلوم نفسك دائبا فيها وانت بحبها مشغوف

ان الصريمة لا ينوء بحملها الا القوى بها وانت ضعيف (٢)

لم يقتصر امر تعدد الزوجات على الشبان فقط لا بل والشيوخ ايضا ، غير مبالين ما يحويه دارهم من البنات والصبيان الذين فتل عضلهم ووصلوا موصل الزواج ان لم يكونوا قد تزوجوا وانجبوا ، والشيخ الندى القلب لا يقبل بالزوجة الجديدة الا ان تكون صبية كالوردة المتفتحة ، لا تهمه عواطفها او روحها تجاهه . المهم اشباع نزوة ورغبة طاشت في رأسه الملتهب شيبا ، وبعضهم كان اذا خطب لابنه واستحلى الخطيبة اخذها لنفسه ، وهل هناك التباس في الكلام ؟! الم يتزوج المعتضد قطر الندى وكان قد خطبها لابنه ، (٣) قطر الندى الطفلة الجميلة اللعوب زفّت لزوج كان احرى به ان يكون لها ابا من ان يكون بعلا ... اما مخاطر هذا الزواج فكان وراءها ما كان . لا سيما واولاد الشيخ شبانا حباهم الله حيوية وصبى ، فمن السهل جدا ان تقع علاقات غرامية بين المرأة الشابة واحد اولاد الزوج الهرم ، وهل من عجب في ان تتعشق الجارية شابا يوازيها نظارة وحيوية وتميل عن عجوز اكل الدهر عليه وشرب . واجبرتها احكام الاقدار ان تكون له جسما ،

---

(١) الجاحظ ، مجموع رسائل ، ص ١٠٦
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ١٢٥
(٣) محمد سعيد العريان ، قطر الندى ص ٨-١٠

ولكنها لم ،ولن ،تستطيع ان تكون له روحا وقلبا ... احبت بانة زوجة عبدالوهاب بن عبد المجيد ابنا له يدعى محمدا وكان اسن اولاده ، ويقال ان زياد بن عبدالوهاب منه اذ كان اشبه الناس به ... وبانة هذه مولاة جنان التي شبب بها ابو نواس ، وزياد هو الذى عناه ابو نواس في قوله وهو يشبب بجنان .

جفن عيني قد كاد يسقط من طول ما اختلج
× وفؤادى من حرحبك قد كاد اونضج ×
خبريني فدتك نفـــــــي واهلي متى الفـــرج
× كان ميعادنا خروج زياد فقد خرج × (١)

وتعدد الزوجات كان امرا مألوفا لدى الناس بالرغم من الاخطار الاخلاقية التي تنجم عنه ،سواء كان في تربية الاولاد الذين يلقنون النميمة والغدر والفتن والشغب من امهاتهم ليستعملوه مع اخوتهم من النسوة الاخريات . يقول عمر بن داود بن حفص الانطرطوسي الذى مات سنة ٣٩٠ هجرية قال " تزوجت بمائة امرأة واشتريت ثلاثماية جارية " (٢) طبعا لا يجب قبول هذا الخبر على علاته بل يجب التحفظ الكثير في سرد مثل هذه الاخبار ، ولكن مهما كان الامر لا بد وان يكون فيه بعض الصحة لا سيما في السماح لانفسه بالزواج والطلاق (لان لا يجوز ان يملك الرجل اكثر من اربعة نسوة في وقت واحد).

ما ينتظر من الزوجة الكريمة .

اما الزوجة الكريمة فكان عليها وفاء العهد لزوجها ،خدمته باخلاص ،والسهر على راحته بامانة ،تساعده في ملبسه ومشربه ،تغسله وتطيبه ،قال الشاعر :

اذا حسرت عنه العمامة راعها جميل الخفوق اغفلته الدواهن (٣)

---

(١) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ١٧ ،ص ١٣ تقدم
(٢) ياقوت البلدان ،ج ١ ،ص ٣٦٠
(٣) الجاحظ البيان والتبيين ،ج ١ ص ١٩٣ ،الاصفهاني ،الاغاني ج ١١ ص ٤٨ تقدم

ولا بد وان تتدخل احيانا في شؤونه ، تسديه النصيحة وتعطيه العبر ، وتقوم عليه باللائمة ان اتى امرا ليس معقولا حيث تشعر ان ذلك يهمها ، ويؤثر على حياتها وحياة اولادها ، حدث ابو عبيد الله بن ابي عوف قائلا : امضيت ورقة بثلاثمائة دينار لمدين عبيد الله بن سليمان بعد نكبته ، واخذته الى داري ليأكل معي ، واحضرت له كيسا ليأخذ منه بعض حاجته ، فاخذ وقام فخرج ، فاقبلت امرأتي تلومني وتوبخني وقالت : ضمنت عنه ما لا يفي به حالك ولم تقنع بأن اعطيته شيئا آخر .(١)

ومنهن من استطاعت ان تقوم امر بيتها في غيبة زوجها ، بحنكة وتجربة لا تقل عن الرجال شيئا ، يروى عن امرأة غاب زوجها في مصر ، ومرت الايام ولم تأخذ منه خبرا ، ونفذ ما كان بيدها من الاموال المدخرة لتدبير الاطفال والبيت ، فعمدت الى بيع ضيعة كانت لها ، ولكنها لم تتوفق في الثمن ، مرت الاشهر تتابع الايام ، وصار وقت الزرع وليس لديها ما تزرع به ، جاءت بعض اصدقائها وكلتهم في قرضها بعض المال ، ولكن رجاءها ذهب هباء ، وبينما هي تتقلب على احر من الجمر اذ بكتاب من زوجها ودراهم لمصروفها ، فدبرت امر البيت والضيعة معا .(٢)

وفيهن من ضربت بالمثل في مهارتها الاقتصادية ومحاولاتها في التوفير الذى اصابت فيها كل الاصابة . زوجت مريم الصناع ابنتها فحلتها بالذهب والفضة وكستها المروى والوشي والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب فلما سألها زوجها عن المال ؟ قالت : كنت ارفع من دقيق كل عجنة حفنة ، ونحن نخبز مرة في كل يوم ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك بعته . والمال الذى ترى هو ثمن ذلك الدقيق .(٣)

---

(١) التنوخي ، مشوار المحاضرة ، ص ١٦٥
(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٣٢
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٥٢

اما معاذة العنبرية التي دبرت شاة ، لم تبق في مخيلة غيرها طريقة تدبير الا وعملت بها ، فالرأس ، فيه القرون يسمر في جزع وتعلق فيه الكيران وغيرها مما يخاف عليه من النمل والفا والسنانير وبنات وردان ، المصران الاوتار للمندفة ، قحف الرأس وسائر العظام يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللادام وللعصيدة ولغير ذلك ، اما تلك العظام فتؤخذ ليوقد بها (١) اما الجلد فجراب والصوف منافعه معروفة ، والبعر حطب ، والدم لدبغ وجلي القدور .

فمما جاء نعلم ان اناس القرن الرابع الهجرى لم يكونوا جميعا من الثراء الذى يتخيله معاصرونا اليوم بعد قرائتهم مقتطفات الف ليلة وليلة ، او اطلاعهم على حياة البلاط العباسي في ذلك العهد ، فكما كانت لاناس خفاف مشغولة بالذهب والفضة ، كان آخرون يخصفون نعالهم ويرقعون ثيابهم لان المخصوفة (من النعل) ابقى . (٢) ويصعب على الطبقة المتوسطة ان تعيش في وسط ذلك القرن من غير الاقتصاد الذى اتينا عليه بامثلة ، لذا كان على المرأة ان تلعب الدور الاكبر لانها المدبرة والمسيرة للبيت باهله . وهناك اقوال جرت مجرى المثل في هذا الباب . جاء في الابشيهي : " بدال ما تمشي وتهزى كتفك ، رقعي فردة خفك " (٣) وكانوا يروون عن النبي (ص) ان خصف نعله ، ورقع ثوبه ، ولطع اصبه (

والمرأة النشيطة في البيت كانت دائما مفخرة لزوجها ، لا يكل عن مدحها في المناسبات . جاء في مقامة من مقامات الهمداني ان احد التجار دعى رجلا الى وليمة فقال : " يا مولاى ؟ لو رأيتها والخرقة في وسطها ، وهي تدور من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيدها الابزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّ

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٥٦
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٠
(٣) الابشيهي ، المستطرف ، ج ١ ص ٤٨
(٤) الجاحظ ، البخلاء ص ٢٠

في ذلك الوجه الجميل ، واثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون موانا اعشقها لانها تعشقني ، ومن سعادة المرء ان يرزق المساعدة من حليلته ، وان يسعد بطمأنينته .(١)

العلاقة الزوجية .

وكثيرات من هؤلاء اصبح لهن سلطان عظيم على ازواجهن ، فملكن قلوبهم وعقولهم ، فتولهوا بهن ونطقت السنتهم شعرا ونثرا بالتغزل فيهن . فهذا مالك بن اسماء المشغوف بزوجته يقول :

امغطى مني على بصرى للحب ام انت اكمل الناس حسنا
وحديث الذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق عاقل وتلحن احيانا نا وخير الحديث ما كان لحنا (٢)

وهل اكثر من ان يرى الجمال في اخطائها ؟ فهو يحبها ويحب كل ما يحكى او يصدر عنها .

روى القاضي التنوخي ، قال : قال ابو اسحاق سمعت بدعة الجارية تغني :

ادل فاكرم به من مدل ومن ظالم لدمي مستحل
اذا ما تعزز قابلته بذل وذلك جهد المقل

قال : فاطربني الشعر وعجبت لقائله وهو ابو حازم القاضي ، فلما التقينا سألته في ذلك فقال : مبتسما هذا شئ كان في الحداثة قلته في والدة هذا (واما الى القاضي واذا هو ابنه ، وكنت اليها مائلا وكانت لي مملوكة ولقلبي مالكة .(٣)

---

(١) الهمذاني ، المقامات ، ص ١٠٣
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ١٩٤
(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٥٠ - ٥١

ولقد لعبت الخيزران ام الرشيد دورا مهما في حياة زوجها المهدى ، ثم ولديها الهادى والرشيد اذ كانت الوفود تروح وتغدو على بابها (١) . اما زبيدة ام جعفر زوجة الرشيد وصل فيها التيه والدلال والحظوة ان تقدم الامين على المأمون في ولاية العهد . وفي المصروف والزينة قامت بما لم تقم به امراة قبلها في الاسلام ، اذ هي اول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر ، وصنع لها رفيع الوشي ، حتى بلغ الثوب من الوشي الذى اتخذ لها خمسين الف دينار . وهي اول من اتخذ الشاكريه من الخدم والجوارى ، ترسلهم في حوائجها ورسائلها ، واول من اتخذ قباقيب الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والديباج وانواع الحرير كالاحمر والاصفر والاخضر والازرق ، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر ، وتشبه النسوة في ذلك بام جعفر (٢) .

وكان بعضهم يأكل الهم قلبه لغضب زوجته عليه ، ويحاول بذل الغالي والنفيس في استرضائها واستعطافها ، وتذكيرها بالعهود ، فهذا عبدالله ابن طاهر كان قد اشترى جارية بخمسة وعشرين الف درهم على ابنة عمه ، فلما سمعت الخبر اغتمت كثيرا وانعزلت في بعض المقاصير مدة شهرين لا ترضى ان تكلمه ، فعمد هذين البيتين وامر الجارية ان تجلس على باب المقصورة وتغنيهما :

الى كم العتب في كل ساعة ... وكم لا تملين القطيعة والهجرا

رويدك ان الدهر فيه كفاية ... لتفريق ذات البين فانتظرى الدهرا

فلدى سماعها البيت الاول لم تحرك ساكنا ، واما في البيت الثاني فخرجت مشقوقة الثوب واكبت على رجله تقبلها (٣) .

---

(١) الطبرى ، الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ ، البيهقي المحاسن والمساوى ج ٢ ص ١٩٤ الى ص ١٩٥

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، م ٨ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩

(٣) ابن جبير ، الرحلة ، محمد مصارع العشاق ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧

اما نفقات واسراف البعض منهن فمما لا يكاد العقل يصدقه ، فام جعفر مثلا في احدى حجاتها تنفق الف الف وسبع مائة الف دينار . وجاء في ابن جبير وصف لحج خاتون السعودية . " عندما خرجت خاتون السعودية المترفة شبابا وملكا واستقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة امام الاخرى وعليها الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة ولينا ، وقد فتح لها امام الهودج وخلفه بابان وهي ظاهرة في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها ، وامامها رعيل من فتيانها وجندها ، ومن يمينها جنائب المطايا والهماليج على السرج المذهبة وقد عصبن رؤوسن بالعصائب الذهبيا والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهن يسرعن خلف سيدتهن سير السحاب ولها الوايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها "[1] وعندما وصلت ام معز الدين صاحب الموصل بلدها خرج الناس عن بكرة ابيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك واكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جوار وخرج امير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وابهة قد جللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ، ودخلت خاتون السعودية تقود عسكر جواريها وامامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها بسبائك ذهب مصوغة اهلة ودنانير سعة الاكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات فلا تكاد تبين من القبة موضعا ومطيتان تزحفان بها زحفا وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ومطاها مجللة الاعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره وكان مشهدا ابهت الابصار واحدث الاعتبار ."[2] ويقول ابن جبير ايضا ويكفي الخاتون السلجوقية قدرا وشرفا ان صلاح الدين الايوبي عند فتحه آمد بلد نور الدين وهي من اعظم بلاد الدنيا وزوجته يومئذ الخاتون السلجوقية بنت مسعود الملقب بعز الدين ، ترك صلاح الدين البلد كرامة لها ولابيها واعطاها المفاتيح فقبض ملك زوجها بسببها .[3]

---

(١) ابن جبير الرحلة ص ١٨٤
(٢) ابن جبير الرحلة ص ١٩٠
(٣) ابن جبير الرحلة ص ١٨٤ — ١٨٥

زواج الام .

والمفروض في الزوجة الكريمة ، التي يموت عنها زوجها ان لا تقبل بغيره بعلا لها . فالشريعة جوّزت زواج الارامل ، ولكن المجتمع والعرف والعادة والتقاليد استهجنوه .(١) وفي اوائل القرن الرابع الهجرى امتحن عمرو بن مسعدة شخصا تزوجت امه ، في هل يكتب اليه كتاب تهنئة ام تعزية ، فاجاب الشخص : هو الى التعزية اقرب . فسئل وكيف تعزيه ؟ فقال : " ان الاقدار تجرى بخلاف محاب المخلوقين ، وستر في عافية خير من شائنة في اهله والله يختار للعباد ، فخار الله لك في قبضها اليه فان القبور اكرم الاكفاء ."(٢) وقال ابو العلاء البيغاء " جرى بحضرة الامير سيف الدولة ذكر رجل تزوجت امه من اصحابه ... فقال لي : " اكتب الساعة على البريد رقعة عن نفسك الى هذا الرجل تعزيه بتزويج امه "(٣) فكتب بين يديه وقيل فيمن زوج امه :

زوجت امك يا فتى وكسوتني ثوب القلق
والحر لا يهدى الحرا م الى الرجال على طبق .(٤)

كذلك كتب الخوارزمي المتوفي سنة ٣٩٣ هـ - ١٠٠٣ م الى ابن مسكويه وقد تزوجت امه " العاقل اعزك الله تعالى لا يرى المحنة اذا تخطت دينه محنة ... بلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى ... وقد كنت اسأل الله تعالى ان يبارك لك في حياتها ، والان اسأله ان يعجل لك بوفاتها ، فان القبر اكرم صهر ، وان الموت استر ستر ، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليك الرزق فلا حمية فيما احل الله ولا مضايقة من حيث وسع الله وللانسان اباء والحمد لله الذى كان العقوق من جهتها ووقع الجفاء من جنبتها ، فانك برئ

---

(١) متز الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ص ١٤٧
(٢) البيهقي ، المحاسن والمساوئ ، ج ٢ ، ص ٨٩ - ٩٠ ، التنوخي الفرج بعد الشدة ج ٢ ص وكذلك ابن عبد ربه العقد الفريد ، ج ٢ ص ٢١٣ .
(٣) التنوخي نشوار المحاضرة ، ص ٢٣٧
(٤) الثعالبي اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

صغيرا وبلغت مرادها كبيرا فاجتمع لك برآن ووقع لك على الله اجران ."[١] وجرت العادة في قومس " الا تتزوج امرأة مات عنها زوجها ، فان فعلت ضرب الصبيان على بابها بالخزف "[٢].

دورهـــا الاجتماعـــي

بالرغم من ان منزلة المرأة في هذا العصر لم تكن لتحسد عليها ، لما كانت عليه من الحجر والمهانة ، وانعدام الشخصية ، حاولت المرأة ان تنهض بنفسها ، ان تدرس وتتثقف وتحصل على مركز طيب نوعا في مجتمعها ، وفعلا كان منهن فضليات اعترف بمركزهن وبما خلفنه من الاثر الادبي . حيث اقبل الناس للاخذ والسماع عليهن ، مثل خديجة بنت موسى ابن عبدالله الواعظة المعروفة ببنت البقال وتكني ام سلمة . " اخبر القزاز عن ابي بكر الخطيب ، قال : سمعت خديجة بنت موسى ابا حفص بن شاهين وكتبت عنها وكانت فقيرة صالحة فاضلة تنزل ناحية التوتة ، وتوفيت في جمادى الآخرة من سنة سبع وثلاثين واربعماية ودفنت في مقبرة الشونيزى "[٣] وستيته بنت القاضي ، وتكني ام الواحد ، كانت تفتي مع العلماء ، وحدثت وكتب عنها الحديث وتوفيت عام ٣٧٧ هـ . اما كريمه بنت احمد المروزى يكفيها فخرا ان يقرأ عليها الخطيب البغدادى صحيح البخارى في خمسة ايام .[٥] ولقب ابن خلكان الكاتبة المشهورة شهدة بنت العبرى " فخر النساء " سمع عليها خلق كثير .[٦] وتعد اول مثقفة في عصرها .[٧]

ومن الفقهاء من جوّز للمرأة تولية القضاء فيما تصح فيه شهادتها كأبي حنيفة ، بينما ابو جرير الطبرى جوّز قضاءها في جميع الاحكام .[٨]

---

(١) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ١٦٧
(٢) المقدسي احسن التقاسيم ص ٣٧٠
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جزء ٨ ، ص ١٢٨
(٥) ياقوت ، الارشاد ، ج ١ ، ص ٢٤٧
(٦) ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠
(٧) Levy, Socio... Islam P. 189-201
(٨) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٥٣

كان بعد نظر بعضهن الثاقب ، ومشورتهن الصائبة يؤثر على الرجال لدرجة يغلب امر النسوة عليهم ويأتمرون بامرهن ، كجميلة ، اخت ناصر الدولة ، التي كانت غالبة على امره ، لا يقطع امرا بدونها ولا يفصل رأيا الا عن مشورتها .(١)

تدلل البعض ، ونال الحظوة الكبرى ولكن ذلك لم يغيّر من فروض وقيود المجتمع الثقيلة الوطأة التي كن مجبرات على تحملها والعمل بها .

كانت المرأة معدومة الحرية ، وهذا انطبق بصورة اقوى على المرأة الحرة المختارة وحتى على الجارية المحظية ، لانهن كن يحجبن وراء الستائر الثخينة والابواب المحكمة الايصاد .(٢) والمرأة الحرة لا يمكن ان ترى الا من قبل اقرب اقربائها فقط اما غيرهم فامر مستحيل .(٣) قال غورك المجنون : ما كان اغناني عن حب من من دونها الاستار والحجب .(٤)

اما هذا الحجر والكبت فكانت له نتائج مرة مؤسفة ، لان المرأة انسان حي يحس ويشعر ، والضغط الزائد ولد عندها في كثير من الاحيان رد فعل ، فحاولت ان ترفع الستائر لترى ما وراءها ورشت البواب لترى ما في الشارع ، واقنعت اهلها بالاسباب والحجج للخروج الى الطريق ، وهناك في السوق وفي الطريق الى الحمام كانت تتصل بالرجال ويقع ما يحظره اهلها عليها .(٥) فتحب ، ومتى احبت المرأة لم يقف امامها شيء ، لان حرارة قلبها ، تصهر حديد الاقفال وتلهب خشب الابواب ، وسرعان ما ترى الطريق امامها مفتوحاً ، لترتمي في احضان من تريد ... والكثيرات كنّ يوفرن على انفسهن مشقة الخروج الى الحبيب ، فيدعينه الى بيوتهن ، ومخابئ القصور كفيلة لتضم اثنين في هدأة من الليل وفي غفلة من الرقباء .(٦)

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٩٧
(٢) Abbot, Two Queens of Baghdad p. 8
(٣) Grunebaum, Med. Islam p 175
(٤) مصارع العشاق ص ٧٨ ـ ٧٩
(٥) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ١٠٣
(٦) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧ .

وفي سنة ٤٠٤ هـ منع الحاكم النساء الخروج من دورهن ، ومنع الاساكفة من عمل خفاف لهن ، (١) فاتفق ان القاضي مرّ بدار امرأة ، فناشدته الله ان يقف ويسمع مظلمتها ، واخذت تتشب بالبكاء وتخبره ان اخيها مريض جدا وهي تخاف موته قبل ان تراه ، فرق لها قلب القاضي ومشى مع رجاله حتى دخلت البيت ، واذا بزوجها ممسكا بجلباب القاضي طالبا منه زوجته التي لا اخ لها ، واخيرا انطلت الحيلة امام القاضي النبيه وعرف ان المرأة فرّت الى عشيقها ، وكانت هذه الحادثة من اسباب التشديد على النساء اكثر واكثر (٢) . وحرّج الحاكم بامر الله الخروج على المرأة من بيتها وامر بقتل من تخرج منهن فشكا اليه من لا قيم لها يقوم بامرها ، فامر الناس ان يحمل كلما يباع في الاسواق الى الدروب ويبيعوه الى النساء ، وامر البائع بحمل شبه مغفرة يساعد طويل يمده للمرأة من وراء الباب وفيه ما تشتريه فلو رضيت به وضعت الثمن في المغفرة واخذت ما فيها للئلا يراها ، فكابد الناس من ذلك امرا كبيرا . (٣) وفي المدائن كانت العادة ان لا تخرج النساء في النهار ابدا . (٤) اما المقدسي فيقول " ولا ترى النساء في الدامغان في النهار ، ولا بها قهان ولا خمار " (٥)

وفي عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٤م قام الحنابلة وهم مسلمون متطرفون لمطاردة المنكر في بغداد ، وعظم امرهم ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يعترضون في البيع والشراء ، وفي مشي الرجال مع النساء والصبيان ، فاذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو ، فاخبرهم والا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة ، حتى اقاموا ببغداد واقعدوها (٦) . وفي سنة ٣٥٣ هـ شرط ازجور في ولايته بمنع النساء من الحمامات والمقابر (٧) .

---

(١) ابن تغربردي ، اخبار مصر ، ج ٢ ص ٦٤
(٢) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٦٠٦ ، الى ٦٠٧
(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٢٣
(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، وذكره القزويني ، اخبار البلاد ، ص ٣٠٢
(٥) المقدسي ، احسن التقاسيم ص ٣٥٦
(٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠
(٧) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢١٠

اما الماوردى فيقول من واجبات المحتسب " اذا رأى وقفة رجل مع امرأة في طريق سابل لم تظهر منهما امارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا انكار فما يجد الناس بدا من هذا ، وان كانت الوقفة في طريق خال فخلو المكان ريبة ، فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليهما حذرا من ان تكون ذات محرم ، وليقل : ان كانت ذات محرم فضها عن مواقف الريب ، وان كانت اجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤديك الى معصية الله تعالى"(١) وقال الماوردى ايضا " والمحتسب يعترض على وقوف المرأة مع الرجل في المحلات المريبة لذا لا يتأخر في تأديبهما "(٢) ... وهكذا ارتأت الشريعة ان تتبرّ النساء في بيوتهن ، ولا تحـ عاقبة خروجهن . وبمرور الايام اصبحت عادة بين الاشراف والكبراء ، لان ذلك استر لحريمهم واوقى من ان تلوكهن الالسن ودفعا لما يغلب على بعضهن من هوى الشباب وطيش الحب، ذكر اسحاق ابن ابراهيم المصعبي ، " ان رفع اصحاب الشرط اليه رقع يخبره كل واحد منه بخبر يومه وما جرى في عمله ، وفي جميعها كبسات وقعت على نساء وجدن على فساد من بنات الوزراء والامراء والاجلاء "(٣) .

ولم يكن الاب ليرضى ان تظهر ابنته لمخلوق غير ما يرتأيه هو بعلا لها . وجاء في رسائل الخوارزمي " اذا زوج كرائمه كفوا ل حجبهن ان يبرجن الا لديه ويجتليهن غير عينيه "(٤) . وبلغ امر التعصب ان منع الرجل مرور خدمه قرب الديوان وبحضرته ضيوف غرباء لئلا يشعر انهما احدى نسائه وفي ذلك عيب ومهانة ، قال ابن ابي بكر داسة : كنا بحضرة ابي الجصاص وقد ضرب لنا سرادق فجلسنا نتحدث واذا بصرير نعل من خلف السرادق فصاح

---

(١) الاحكام السلطانية ، ص ٢١٦ ، ابن الاخوة ، كتاب الحسبة ، ص ٣٠
(٢) نفس المصدر
(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦١
(٤) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٧

يا غلام جئني بمن مشت خلف السرادق الساعة . فاخرجت اليه جارية سوداء فقال لها : ما كنت تعملين ها هنا ؟ قالت : جئت الى الخادم اعرفه اني قد فرغت من الطبيخ واستأذن في تقديمه فقال : انصرفي لشأنك . فاراد بذلك ان يعلمني بانها ليست من حرمه ولا من يصونه فينزل عني ان اظن به مثل ذلك في حرمه (١) . واذا ما تزوجت المرأة يشدد الزوج عليها ، ويغار كل الغيرة اذا اخذتها الحاظ الآخرين ، ولا يرضى ان تكون لغيره عين عليها ابدا . قال ابو عطاء السندي لزائر له رآه يومئ الى زوجته :

كل هنيئا وما شربت مريئا ثم قم صاغرا فغير كريم

لا احب النديم يومض بالعين اذا ما خلا بعرس النديم

وقال وقد تعرضت اليه امرأة صاحبه :

رب بيضاء كالقضيب تثنى قد دعتني لوصلها فأبيت

ليس شاني تحرجا غير اني كنت ندمان زوجها فاستحييت (٢)

والمرأة حين يؤذن لها بالظهور الى الشارع كانت ملزمة بالتحجب عن اعين النظارة ، بوضع نقاب على وجهها ، ووشاح تجلل به نفسها (٣) . ويجب ان لا يخفى ان النقاب والوشاح كثيرا ما يساعدان المرأة في التخفي وبلوغ المآرب مطمئنة من العذال والرقباء ، حتى ضربت الامثال في ذلك . " يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية " (٤) . ولا يزال العراقي يقول : ياما تحت البوشي والعباية كل انواع المصائب والبلايا " لان المرأة العراقية لا زالت تستعمل غطاء وبرقعا يسترها عن انظار الرجال .

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٢
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢٠٧
(٣) الحريري ، المقامات ، ص ٥٢٢
(٤) الابشيهي ، المستطرف ، ج ١ ص ٥٠

ولم يستحسن ان تغيب المرأة عن البيت وقتا طويلا ، كذا لم يكن مألوفا او مسموحا به ، ان تبيت المرأة في غير دارها ، وكان بعض الرجال متعصبين الى درجة يحلفون الطلاق عليها فيما اذا باتت في غير دارها . (١) وذلك لما قد تجرّه غيبة الليل من الوبال عليها ، وتوقظه من الشك في قلب زوجها .

ان ذلك الخوف الذى شعر به الاهل من ناحيتها والاحاطة الشديدة التي احيطت بها كل ذلك اتعب الاهل والعصر منها ، وحاربها المثقفون والجهلة على حد سواء . حارب المعرى المرأة حربا شعواء ، اذ لم يكن ليطيقها ابدا ، ولما كان يعتقد ان الوجود عذاب وشقاء ، والموت راحة منهما ـ ولما كانت المرأة سبب الوجود ، لذا اعتقد ان بدء السعادة ان لم تخلق :

بدء السعادة ان لم تخلق المرأة فهل تود جمادى انها رجب ؟ (٢)

هذا طبعا من حيث البدء ، اما من الناحية الواقعية فالرجل في جحيم دائم من جرائمها ، لانها عبدة لمشاعرها ، وان العنصر الفكرى مفقود عندها ، وهي دائما ابدا منبع مشقة وعناء لابيها وذويها ، ومجلبة عار لهم .. اما في الناحية الزوجية فانها منبع النفاق والخيانة ، لذلك سنّ لها نظاما شديد الوطأة ، ضيق عليها الحياة ، كما ضيقها على نفسه ، وجعلها رهينة المحابس ، فهو يخشى عليها الجوار مهما كان حسنا ، .. ثم ينبه الزوج اومن يهمه امرها للاعذار التي تخلقها للخروج الى الاسواق كالذهاب الى الحمام ، وحضور الاعراس ، والتردد على السحرة والعرافين ، فلا خروج لها من الخدر الا الى القبر .

---

(١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ١٨
(٢) المعرى ، رسالة الغفران ، ص ١٤٥ (في الهامش)

يقـــول : لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوقد من حمامها (١)

وكـــذلك : وان طاوعن امرك ، فانه فيدا يزين عرائسا متيمات

ومنهـــا : وابعدهن من ربات مكـــر سواحر يعتدين محرّمات
يقلن نهيّج الغياب ، حتـــى يجيئوا بالركاب مزممات (٢)

واى جريمة في رأيه افظع من جريمة النسل التي ترتكبها المرأة فيقول :

ولكن الاوانس باعثـــات ركابك في مهالك مقتمات
صحبنك ، فاستفدت بهن ولدا اصابك من اذاتك بالسمات

وبنظره ان هذا هو الهول الاكبر :

ومن رزق البنين ـ فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات (٣)

وبالرغم من كل ما جاء به لا ينسى المعرى ان يوصي الرجل بالاضراب عن الزواج ، واما اذا لم يستطع الزهد فيهن فينصحه الا ينجب نسلا ، واذا عقمت المرأة فلا بأس من الزواج منها

اذا شئت يوما وصلة بقرينـــة فخير نساء العالمين عقيمها (٤)

والمعرى يعارض بشدة تعليم المرأة الا ان يقتصر على شئ بسيط من الغزل والحياكة :

علموهن الغزل والنسج والسرد ن وخلوا كتابة وقـــراءة (٥)

وقليل من القرآن ، وان لا يوكل بتدريسهن سوى العجائز او الشيوخ المهدمين يقول :

---

(١) المعرى ، رسالة الغفران ، ص ١٥٠ (في الهامش)
(٢) المعرى ، رسالة الغفران ، ص ١٥٥ (في الهامش)
(٣) المعرى ، رسالة الغفران ، ص ١٥٣ (في الهامش)
(٤) المعرى ، رسالة الغفران ، ص ١٤٨ (في الهامش)
(٥) المعرى ، اللزوميات ، ج ١ ، ص ٥٢

فحمل مغازل النسوان اولى يهن من اليراع مقلمات
ليأخذن التلاوة عن عجـــوز من اللائي فضن مهتمات
ولا يدنين من رجـل ضريـر يلقنهن آيا محكمـــات
سوى من كان مرتعشا يداه ولثته من المتثغمـــات (١)

ولا يعتقد بامكان حصانتها ، لانها متى ما رغبت في امر فلا يقف قيد في سبيلها :

وما تمنع الخوذ الحصان حصونها ولو ان ابراج السماء حصونها

وبعد هذه الحملة النكراء التي يحملها المعرى على المرأة يبين سخافتها وضيق تفكيرها ، وكم يود ان الزواج يتوقف ، ولكنه يرجع الى نفسه فيرى ان هذا الامر مستحيل ، والرجل في طبيعته لا يمكنه البعد عنها ، فكيف السلو والبعد والهجران ، وهي مع اطفالها البهجة والحياة لحياته في البيت . فيقول :

فوارس فتنة اعلام غـــيٍّ لقينك بالاساور معلمـــات
ودفن ، الحوادث فاجعات لاحداهن احدى المكرومات (٢)

وبرغم ما اسردنا من حوادث واستشهادات بمناسبة ميلاد وموت البنت ، كان لا يزال بعض القوم يحبها ويعتزبها ، ولكن حجتي في هذه النقطة ليست قوية لان ما وقعت عليه عيني من الكتب التي بحثت في هذا العصر لم تذكر الا القليل البسيط . فما هو الشريف الرضي يكتب الى اخيه يهنئه بابنته :

---

(١) المعرى ، اللزوميات ج ١ ص ١٨٠ — ١٨١
(٢) المعرى ، اللزوميات ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨

" اهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وام الابناء ، وجالبة الاصهار ، والاولاد الاطهار والعشيرة باخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون فلوكان النساء كمثل هذه لفضلت النساء على الرجال .

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخره للهلال (١)

فادرع يا سيدى اغتباطا واستأنف نشاطا ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها ، والارض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مونثة وبها قوام الابدان ، وملاك الحيوان ، والحيوان مؤنثة ولولاها لم تتعرف الاجسام ولا عرف الانام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون ، فهنيئا هنيئا ما اوليت واوزعك الله شكر ما اعطيت واطال بقاءك ما عرف النسل والولد ، وما بقى الامد ، وكما عمر كبد ". (٢)

وقال المتنبي في التهنئة ببنت : اهلا بعقيلة النساء ، وكريمة الاباء ، وام الابناء ، وجالبة الاصهار ، والاولاد الاطفال ." (٢) وفي محل آخر يمدحها ، ولكنه لعمرى ذم من باب المدح :

ولوكان النساء كمثل هذه لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب وما التذكير فخر للهلال (٣)

لم يكن لها المركز الذى يجب ان تتبوأه باعتبارها ركنا اساسيا في البيت ، لا تستشار ولا يأخذون لها رأيا في امر ، واعتقد البعض انها اقل من ان تراجع في امر ، او تسأل في مطلب ، قال ابن المقفع : اياك ومشاورة النساء ، فان رأيهن الى افن ، وعزمهن الى وهن .

---

(١) للجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، النويرى ، نهاية الارب ج ١ ، ص ١٧٧ - ٨
(٢) وكذلك الثعالبي ، اليتيمة ج ٢ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦
(٢) اليتيمة ، ج ١ ، ص ١٠٣
(٣) المتنبي ، الديوان ، ج ٢ ، ص ٢٧٤

واكفف عليهن من ابصارهن بحجابك اياهن ، فان شدة الحجاب خير لك من الارتياب ." (١)

قال محمد ابن واسع " ينبغي للرجل ان يكون مع المرأة كما يكون اهل المجنون يحتملون منه كل اذى ومكروه . " (٢) وقال صقلاب " تصبح في قل وتمسي في ذل وتروح على انثى وتغدو على طفل " (٣) وقال بعض اهل العصر :

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وامرة الصبيان

اما النساء فميلهن الى الهوى واخو الصبي يجري بغير عنان (٤)

والرجل يعد نفسه اعقل وارفع من ان يطيع زوجته او يعمل بمشورتها ، ويحسب ذلك نوع من ضياع النفس والكرامة . قال النخعي : " من اقتراب الساعة طاعة النساء ، ويقال من اطاع عرسه فقد اضاع نفسه " . (٥) وقال ابو حيان التوحيدي وهو يكلم الوزير ابن سعدان " ان الحديث معشوق الحس بمعونة العقل ، ولهذا يولع به الصبيان والنساء ، فقال : واى معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم ؟ " (٦) ومن امثالهم في صغر عقلها " لا تدع ام صبيك تضربه ، فانه اعقل منها وان كانت اسن منه " . (٧)

لذا لم يعود الرجل نفسه الركون اليها ، وافشاء ذات صدره في المهمات عندها ، لا بل يحاذر كثيرا ان يتمادى في اشعارها بهيبتها وقدرها عنده ، لئلا تزهد في الغي والحمق . قال الخوارزمي : " من افات النساء انهن اذا اكرمن قبح خلقهن واذا اهن فسد خلقهن " . (٨) وجاء ايضا : " اتقوا اشرار النساء وكونوا منهن على حذر ولا تشاورهن في امر ولا تضيقوا عليهن في معروف حتى لا يطمعن في المكر . (٩)

---

(١) ابن قتيبه ، عيون الاخبار ، كتاب النساء ، ج ٤ ، ص ٧٨ ـ ٧٩
(٢) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١
(٣) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٣ ، الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٨
(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٠
(٥) الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ، ص ٢٨٨
(٦) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج ١ ، ص ٢٣
(٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٨
(٨) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ١١٧
(٩) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ١٠٣

كأنما المسكينة لا غاية لها في هذا الوجود سوى الحيل والمكر والخداع وسبك الدسائس، .. نعم انا لا انكر ان الكثيرات لهن باع طويلة في هذه الحقول قديما وحديثا لذلك قال المثل " فتش عن المرأة " والحقيقة فتش عن الرجل قبل المرأة ، الا يكون السبب في كل ما تتعثر فيه المرأة في حياتها ؟ ثم الضغط والمذلة وعدم الاعتراف بالحقوق كل ذلك يدعها تفكر بنفسها في نفسها وتعمد الى الحيلة كيما تشبع بعض القليل الذى تغلي وتتقد به مشاعرها . فعلى ذلك وصمت بعدم الاخلاص وقلة الاخلاق وان مكائدها تخترق الستر والحجب ، ولا يمكن ان يؤمن عليها ايا كان من الرجال وحتى احيانا من النساء . قال السمعاني :

لا تأمنن على النساء ولو اخا ما في الرجال على النساء امين
ان الامين وان تحفظ جهده لا بد ان بنظره سيخـــــون (١)

اما تأديب المرأة ضربا بالعصا والسوط ، جوزه فقهاء العصر يومئذ ، فالماوردى يقول " يجوز للزوج ضرب زوجته اذا نشزت ، واما صفة الضرب فيجوز ان يكون بالعصا وبالسوط الذى كسرت ثمرته " (٢) كأنما المسكينة حيوان لا يعقل بالكلام والتفاهم ، بل عن طريق الضرب المؤلم . وكثيرا ما يتردد امامنا في الكتب اخبار الجوارى واثار ضرب المقارع والسياط في اجسامهن البضة الرقيقة ، وما هذا الا من تقاليد ذاك العصر الجائر . كانت تضرب احيانا لغير ما سبب ، اولمجرد رأى بسيط او مخالفة لها في نفسها معنى . ذكر ابن عبد ربه ان بكر شاعر باهله كلم الناطفي في مجالسة جاريته عنان ولما طلب اليها مولاها ذلك رفضت بحجة انها ليست نشيطة لذلك ، فقام اليها شادا بالسياط وقال للشاعر ادخل ، فدخل عليها ودمعها لا زال منحدرا على خدها . فانشد فيها :

---

(١) الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، ابن قيّم الجوزيه ، ص ٥٣
(٢) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٨

هذى عنان اسبلت دمعها كالدر اذ ينسل من خيطه

ولما سألها ان تجيزه ، قالت :

فليت من يضربها ظالمـا تجف كفاه على سـوطه (١)

كانت المرأة ساقطة من الحقوق المدنية " ان امكن استعمال هذا التعبير "، لم يحق لها الاشتراك في امر الوزارة ، مستندين في ذلك الى قول الرسول (ص) " ما افلح قوم اسندوا امرهم الى امرأة " وكذلك لان مثل هذا المطلب يتطلب حزما ورأيا وثباتا وعزيمة وهذا في نظرهم تقصرعنه عقول النساء ، ثم حجبهن كان يحضر عليهن حضور الاماكن ومباشرة الاعمال (٢) وجاء في المسعودى " ما بآراء النساء تساس الدول ولا بعقولهن يساس الملك " . (٣) وفي القض قال الماوردى " لا يجوز ان تقضي المرأة فيما لا تصح فيه شهادتها " . (٤) اما في الصلا " فلا يجوز للمرأة ان تكون اماما في الصلاة ، وان امت امرأة اوخنثى فسدت الصلاة من ائتم بها من الرجال . (٥) وقال الشافعي ان صلاة الجمعة لا تنعقد الا باربعين رجلا من اهل الجمعة ليس فيهم امرأة ولا عبد ولا مسافر . (٦) ولما يسخر الجاحظ من المعلمين ويضربهم بالحمق يقول : لا يقبل شهادة المعلمين ، وكان البعض من الفقهاء يقول النساء اعدل شهادة من معلم ". (٧) باعتبار ان المرأة حمقاء لا تعتبر شهادتها فاستشهد بها وفضلها على المعلم من باب المزح .

" لا تجب الجزية الا على الرجال الاحرار العقلاء ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لانهم اتباع وزراري ولو تفردت منهم امرأة على ان تكون تبعا لزوج اونسيب

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٥٩
(٢) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٢
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ١٣٧
(٤) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٥٣
(٥) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٨٨
(٦) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٨٩
(٧) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين ، ص ١٠٨

لم تؤخذ منها جزية ،لانها تبع لرجال قومها وان كانوا اجانب منها ، ولو تفردت امرأة من دار الحرب فبذلت الجزية للمقام في دار الاسلام لم يلزمها ما بذلته وكان ذلك منها كالهبة لا تؤخذ منها ان امتنعت ولزمت ذمتها ، وان لم تكن تبعا لقومها ".(١)

دورهـــا السياســـي .

اما في السياسة فقد برز البعض منهن ولكن بصورة عامة لم يكن لديهن الباع الطويلة التي وجدت عند الجواري ، بعددهن الكبير ، بخداعهن ومكرهن ، تلكم الدروس التي كن يلقنها منذ الطفولة ، ليكسبن قلوب الرجال ، اما القليلات اللاتي لعبن ادوارا في السياسة ، برهن على قوة شخصيتهن من وراء الستار والنقاب ، وكان لجمالهن في المقاصير بين الافرشة الحريرية الوثيرة تأثير غريب على ازواجهن فلم يطلبن امرا الا ولبي في الحال استعملت الخيزران جمالها الساحر وفتنتها بالتأثير على المهدى الطيب القلب .(٢) استحوذت على قلبه دون سائر نسائه وجواريه ، تزوجها وانجبت ولديها الذين سميا لولاية العهد . اما صداقتها للبرامكة فالتاريخ شاهد عيان بذلك ، طوال حياتها ويحي بن خالد البرمكي لا يقطع امرا دون استشارتها .(٣) وكم توسطت لدى زوجها في العفو عنه ، او تقريبه ودفع التهم التي يلصقها الاعداء به . سجن يحي مرة لسوء ادارته مقاطعة فارس ، ولكن الخيزران لم تقف مكتفة الايدى بل جاءت تحتج وتتوسل الى المهدى باخوة الرضاعة الموجودة بين الفضل بن يحي وابنها هارون ، وهل يحتمل المهدى دلال الخيزران طويلا! كلا والف كلا ، فسرعان ما تأثر وعفى عنه واعاده الى منصبه ثانية .(٤)

---

(١) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ١٢٨
(٢) الطبرى ، ج ٩ ، ص ٦٠٤ ،
(٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ٦٠٤ ، Abbot, Two Queens of Baghdad p. 59
(٤) Abbot, Two Queens of Baghdad p. 59

والمعروف في خلال تراث العالم العربي قديما وحديثا ان يكون للام المقام المفضل ، ولا يخيب مطلبها اذا استطيع الى ذلك سبيلا . فالخيزران لم تلعب دورها الاكيد الا وهي ام للهادى ثم للرشيد . (١) جاء في الطبري " كانت الخيزران في اول خلافة موسى تفتات عليه في اموره وتسلك به مسالك ابيه من قبله في الاستبداد في الامر والنهي فارسل اليها الا تخرجي من خفر الكفاءة الى بداءة التبذل ، فانه ليس من قدر النساء الاعتراض في امر الملك ، ولكن يظهر ان الخيزران استمرت في تدخلها لمدة اربعة اشهر اخرى ، فكانت زرافات الذين يطلبون تدخلها تغدو وتروح على بابها ، عندئذ غضب الهادى وهدد بضرب عنق كل شخص يأتي الى باب الخيزران ، ثم هدد والدته بقوله " ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك كل يوم ، امالك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ، اياك ثم اياك ما فتحتي بابك لطلي او لذمي ". (٢) ولو صحت رواية ايعاز الخيزران لجواريها بقتل الهادى (٣) لتفسح بذلك المجال للرشيد في تبوء العرش واطلاق يدها في الامور ، لكان هذا دليلا على قوة الخيزران ، وهل من السهل اليسور ان يأخذ الرشيد الخاتم من يحي بن خالد البرمكي في غد موت الخيزران ويعطيه للفضل بن الربيع ويقول : " وحق المهدى اني لاهم لك من الليل بالشئ من التولية وغيرها فتمنعني امي فاطيع امرها .. " (٤) اما زبيدة الحلوه الصناع مدللة اجدّها ابو جعفر وعزيزة العائلة الهاشمية ولبابة الرشيد ، مليكة قلبه التي لم يرد لها مطلبا او يرد عنها شيئا مهما كثر ثمنه . ضرب المثل في اسرافها ، وتنوع لباسها المحلى بالالماس والمجوهرات (*)

---

(١) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٥٦٩ ، Abbot, Two Queens of Baghdad p. 59

(٢) الطبري ، الرسل والملوك ج ٩ ، ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ ، البيهقي المحاسن والمساوئ ج ٢ ص ١٩٤ الى ١٩٥

(٣) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٥٧١

(٤) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٦٠٩

(*) (سآتي عليه مفصلا في باب الملابس)

وهباتها للشعراء لا سيما الذين حاولوا مدحها ومدح ولدها الذى كانت تريد ان تهيأه للعرش . فقد سدت افواههم باللؤلؤ .[1] واستطاعت في النهاية ان تكون المعين الاكبر للحزب العربي ، وحاولت المحاولات في اقناع الرشيد وتقديم ابنها الامين على عبدالله المأمون في ولاية العهد . بعثت زبيدة مرة بخالصة جاريتها الى الكسائي توصيه الرفق بمحمد فقال لها الكسائي " ان محمدا مرشح للخلافة بعد ابيه ولا يجوز التقصير في بابه "[2]

ولم تكن الخيزران وحدها التي فاضلت بين ولديها في الملك في سبيل رغباتها الشخصية فها هي والدة مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب الرى وبلد الجبل تقبض على ابنها سنة ٣٩٧ هـ وذلك ان ابنها وزّر ابا علي بن علي بن القاسم الخطير الذى استمال الامراء ووضعهم عيونا عليها وخوّف ابنها منها ، فاصبحت كالمحجور عليها ، تركت الرى الى القلعة ، فوضع عليها من يحفظها ، فاحتالت وهربت الى بدر بن حسنويه واستعانت به في ردها الى الرى وجاءها ابنها شمس الدولة وعساكر همذان وساروا جميعا الى الرى ، فحاصروها وجرى بين الفريقين قتال شديد ، ثم اقتحم بدر الجموع ودخل البلد منتصرا واسر مجد الدولة ، فقيدته والدته وسجنته بالقلعة ، واجلست اخاه شمس الدولة محله ، وصار الامر اليها ، ولكن برجوع بدر الى بلده ومرور حوالي سنة على شمس الدولة في الملك ، بدأت تقراء في عينه بوادر العصيان ، فلم يعجبها ذلك وقررأيها على اخيه مجد الدولة الذى رأت انه اليّن عريكة واسلم جانبا ، فاعادته الى الملك ، وترك شمس الدولة الى همذان ، وهكذا استرجعت سطوتها واصبحت اليها رسائل الملوك ومنها توخذ الاجوبة .[3] اما والدة الامير نوح فكانت تحكم في دولة ولدها ودائما عن رأيها يصدرون .[4]

---

(١) Abbot, Two Queens of Baghdad P. 172
(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٢٧
(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٤٤
(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٠

ويذكر ابن جبير في زيارته لبغداد ان كانت تجرى مناظرات في ساحة قصر الخليفة ، والموضع قسم من بيت حرم الخليفة ، وهكذا يتسنى للخليفة ووالدته وحرمه ان يسمعون ما يجرى ويفتح الباب احيانا للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر .(١) وكان القاضي اذا صعد المنبر وانتهى من الخطبة اثنى على الخليفة ودعا له ولوالدته وكنى عنهما بالستر الاشرف .(٢)

هذه لمحة مختصرة عن تدخل المرأة في السياسة تاركة مناقشة هذه النقطة في بحث الجواري ، حيث نرى الدور الاكبر الذى لعبته الجارية ، سواء كانت قهرمانة ، جارية ، محظية او ام ولد .

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٧٦
(٢) نفس المصدر

الفصـــــــل الثاني

الجـــــــوارى

تمهـيد في معنـــى الجـــارية .

الجوارى جمع جارية ، يشتقها تاج العروس ومحيط المحيط من جرى . وسميت الشمس بالجارية لجريها من قطر آخر . كذلك السفينه بتنقلها من بلد الى بلد ، والجارية نعم الله تعالى التي يجريها على عباده .

(والجارية فتية النساء) ويقال (جارية بينة الجراية والجراء والجرا والجرائية) وانشد الجوهرى للاعشى :

والبيض قد عنست وطال جراؤها ونشأنا في قن وفي اذواد

قال الجواهرى : وتروى بفتح الجيم وبكسرها وقولهم كان ذلك ايام جرائها بالفتح اى صباها . (١)

وجاء في المحيط والجارية ، لدوام جريها في النساء ، والخادمة الفتية منهن عبدة كانت او حرة ، قيل لها ذلك لخفتها وكثرة جريها بخلاف العجوز ، والعامة تستعمل الجارية للصغيرة من النساء في مقابلة الغلام من الرجال ـ لذا قيل ان الخفض للجارية كالختان للغلام ، وقولهم جارية بالغة اى مدركة ، الجراء الفتوة وأخوذا من الجارية . قال الاعشى :

---

(١) الزبيدى ، تاج العروس ، باب الياء ، حرف الجيم ، ج ١٠ ، ص ٧٣

والبيض قد عنست وطال جراؤها ونشأن في قن وفي اذواد

وتروى بفتح الجيم وكسرها ، وقولهم كان ذلك في وقت جرائمها اى صباها .(١)

مصـــــــادرهن .

والرقيق الابيض بصورة عامة ، الجوارى والغلمان ، كان يؤتى القسم الاكبر منه من بلغار ، حول نهر الفولجا .(٢) وسمرقند سوق كبيرة رائجة لهم ، قال ابن حوقل : " وانفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ، ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الارض ولا يدانيه في القيمة والحسن ".(٣) وكانت بلدهم لذلك مشهورة بانها مركز للتربية والتهذيب ، اما الطريق الثاني الذى كان يأتي منه رقيق الصقالبة ، فقد كان يخترق المانيا الى الاندلس والى الموانئ البحرية بايطاليا وفرنسا .(٤) واغلب تجار الرقيق في اوربا كانوا يهودا ، لذا سكنت الجاليات اليهودية في مدن مقاطعة سكسونية الشرقية مثل مدينة مجدبيورج ومرزبيورج حيث يكونوا على طريق سير قوافل الرقيق . وكانوا يدفعون ضريبة للجمارك في المانيا ، اربعة دنانير لكل رأس من الرقيق .(٥) والطريق الثالث يبدأ من بلاد الرقيق في الغرب ، متجها نحو الشرق رأسا مارا بمدينة براغ وبولونيا وروسيا .(٦)

وفي القرن الرابع الهجرى كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال افريقية اكبر اسواق الرقيق الاسود . وكانت تأتي المراكب محملة بالذهب والعبيد .(٧)

---

(١) البستاني ، بطرس ، محيط المحيط ، تحت مادة جرى
(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٣٢٥
(٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٤٥٢
(٤) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨
(٥) متز ، الحضارة الاسلامية ج ١ ، ص ٢٦٩
(٦) نفس المصدر
(٧) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٣ ، ص ٥٥

كانت تجارة الرقيق رائجة ومربحة جدا ،يشتغل فيها نخاسون وسماسرة ماهرون لهم في المدن سوق للرقيق لها قيّم يشرف على امرها . ولقد وصف اليعقوبي سوق الرقيق التي بنيت في سامراء ،في القرن الثالث الهجرى ، يقول : "هي سوق مربعة فيها طرق متشعبة وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق ." (١) كانوا يأتون بالاجسام البشرية المستعبدة ارواحها ويفرزونها للبيع . كما تفرز الخضر والفواكه وغيرها من الحاجيات ، وهكذا حسب درجاتهم يثمنون ويبوبون ،فالصغار منهم والذين ترى فيهم النباهة او مزية من المزايا المرموقة يومئذ كالغناء والرقص وغيره ،كان يبعث الى الحجاز للدراسة والتخرج على ارباب الفن ،اما الآخرون فكان يسحب كتلا وينادى عليه بالمزاد العلني ، فيحمل ليحمل في البيوتات اوفي مهن اخرى يحتاجها المولى . (٢)

تعليمهـــــــن

اما الرقيق الموهوب جمالا وفطنة فهو الذى يثقف ،ويتعب عليه ،ويكونوا غالبا من الخصيان والجوارى الصغيرات الموهوبات ،وكان النخاس يصرف عليهم الاموال الكثيرة ، لا سيما الجوارى في سبيل تثقيفهن وتعليمهن فنون الغناء والطرب على الآلات سواء كان ذلك بارسالهن الى الحجاز في مراكز معاهد الغناء . (٣) او ببعثهن الى مغن مشهور قبل ان يعرضن في السوق المربحه ،ويهم موالي الجارية ان تتعلم وتأخذ عن مشاهير المغنين ،واتفق عند مغن مشهور في زمن الرشيد وجود ثمانين جارية لاخوانه ، اودعن عنده لتعليمهن فن الغناء . (٤) لذا كان بيت المغني احيانا مدرسة للغناء حيث يلقي عليهن اساتذة الفن انغاما ويعلموهن الاصول .(٥)

---

(١) اليعقوبي ،البلدان ،ص ٢٧
(٢) Abbot, Two Queens of Baghdad P. 9
(٣) Abbot, Two Queens of Baghdad P. 9
(٤) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ٥ ،ص ١٦٤
(٥) الاصفهاني ،الاغاني ج ١٣ ،ص ١٢٧ تقدم

كما كنا يحفظن القرآن بقرآته السبعة ويروين اخبار الاوائل والمحدثين ، ويروون من الاشعار ما لا قبل لعده وحصره . ووجد بين هؤلاء مؤدبات بليغات فهذه عريب التي يظن انها ابنة جعفر بن يحي البرمكي ، تضرب بلاغتها في المثل ، وشهد لها اهل العصر من فحول الادباء والمثقفين ، وقيل ان بعض كتبها وقع بيد جماعة من الكتاب فلم يتعجبوا وقالوا : وما يمنعها من ذلك وهي ابنة جعفر بن يحي ؟ !!! (١)

وشهد ابراهيم بن المهدي لفضل الشاعرة فقال " كانت فضل الشاعرة احسن خلق الله خطا وافصحهم كلاما وابلغه في المخاطبة واثبته في محاورة " . وقال سعيد بن حميد فيها " لو اخذ افاضل الكتاب واماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك " . (٢)

وهكذا كانت الجارية لا تنفك عن الدراسة والتتبع في حقل صناعتها ، منكبة عليها تأخذ من مطارحهما الذين جلّ طرحهم تجميش ، وانشادهم مراودة ، وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها ، لانها ان جفتها تفلتت وان اهملتها نقصت . (٣) فصبرها ودأبها على التتبع وجلوسها للرجال ، فتق ذهنها ، وحل عقدة لسانها ، فكانت نكتتها عذبة ، وسرعة خاطرها حاضرة ، تقارع الحجة بالحجة ، وبكل موقف لها مقام ونوع كلام ، تقنع الكبير والصغير ، وتحاكي العالي والوضيع بغير هيبة ولا وجل . روى العتابي ان دخل على يحي بن خالد البرمكي وكانت له جارية يقال لها خلوب ، تجالس الادباء وتناقش الشعراء فقال لها : سليه لابطائه عنا جائزة فقالت له : قل على هذه القافية :

اذا شئت ان تقلى فزر متواترا وان شئت ان تزداد حبا فزر غبا . (٤)

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ٥ ، ص ٩٦
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٧ ، ص ٨ تقدم
(٣) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٧٣
(٤) الوشاء ، الموشى ، ج ١ ، ص ٢٩

وذكر ابن عبد ربه ان الناطفي دخل مرة على جاريته عنان واخبرها بان بكر شاعر باهلة يود مجالستها ، فاحتجت بانها ليست نشيطة لذلك فحمل عليها بالسوط وادخل الرجل فرآها ودمعها ينحدر على خدها فانشد :

هذى عنان اسبلت دمعها كالدر اذ ينسل من خيطه

وسألها ان تجيزه فقالت :

قليت من يضربها ظالمـــا تجف كفاه على ســـــوطه (١)

وفيهن من سحرت الخلفاء بلطافة منطقها وحدة ذكائها فحظيت عنده ، ونالت المركز المقرب ادخلت جارية للرشيد مرة ليشتريها ، ولما تأملها ردها وقال لصاحبها لولا خنس في انفها وكلف في وجهها لاشتريتها ، فلما تركت المكان التفتت الى الرشيد وقالت : اتسمح لي ببيتين حضراني : فقال هاته : فأنشدت :

ما سلم الظبي على حسنه كلا ولا البدر الذى يوصف

الظبي فيه خنس بيـــن والبدر فيه كلف يعـــــرف

فرجعها الرشيد واشتراها ، واصبحت من احظى جواريه . (٢) ومنهن من جمعت بين الادب والفقه والعلوم ، جاء في الف ليلة وليلة ان جارية تعلمت الخط والنحو واللغة والتفسير واصول الفقه والدين والطب والتقويم والضرب بالآلات الموسيقية (٣)

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٥٩
(٢) ابن الجوزى ، كتاب الاذكياء ، ص ١٦٠ ـ ١٦١
(٣) الف ليلة وليلة ج ١ ، ص ١٤٣

النخـــاسون ، وحيلهـــم في اســـواق الرقيق .

كان النخاس محتقرا ويشتم به احيانا مثلا (انت ايها النخاس الكذاب) وكثيرا ما غش الناس برقيقه المزوّر وتعليماته الباطلة . جاء في متز ، نص من رسالة ابن عبدون يظهر فيها الحيل والتلاعبات والغش في شراء وبيع الرقيق :

" فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وممسوح العجز بثقيل الروادف ، وبطين بمجدول الحشاء ، وابخر الفم بطيّب النكهة ، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقعة ، وكبروا الفقاح المنزلة ، واعدموا الخدود شعر اللحا ، واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور البسيطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطلوا الشعور الممرطة ، واذهبوا اثار الوشم والجدري والنمش والحكة "(١) .... لذلك كان على المشتري ان لا يغفل او يسهو فيغش لا سيما في المواسم ، حيث تتم للنخاسين الحيل فيبيعوا القبيح بالجميل ، والمريض بالصحيح . " ومن عادة النخاسين ان يطوّلوا الشعور بان يصلوا في طرفها من جنسها ، وان يزيلوا روائح الانف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما ، وان يجلوا الاسنان بالسواك بالاشنان والسكر وسحيق الصيني او الفحم او الملح المدقوق ، وكانوا يزيلون الشعث في اصول الاظفار بغسلها بالخل والعسل والمرتك او دهن الورد واللوز المر . ومن وصايا النخاسين للجواري ان يتبرجن للمشتري تارة ويختفين منه اخرى ، فان هذا مالك للقلوب ، وان يداريهن المشايخ والنافرى الطباع ويستلنهم ، ويتجنين الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم . وكان الجواري يخضبن حواجبهن بالرامك واطرافهن ان كانت الجارية بيضاء بالخضاب الاحمر ، وان كانت صفراء بالاسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد بالضد "(٢) . ومن امثالهم المألوفة (ربح درهم حتا يزيد ثمن الجارية

(١) متز الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٧٠ (٢) نفس المصدر ص ٢٧٠ ـ ٢٧١

مائة درهم فضة) .[1]

فالرقيق الاسود دائما في متناول الايدى ،فلا يكاد يخلو منه السوق ،وكلما كانت احداهن حالكة السواد ،كانت اقبح منظرا ،واسنانهن دائما ملفت الانظار[2] لاجتماع الضدين سواد وجوههن وبياض اسنانهن ... اما البيضاء الجميلة القسمات الحلوة السحنا فالنخاس يعلن عن جمالها ويعدد صفاتها ،ولقد جاء وصف هذه الاسواق في الف ليلة وليلة وكيف كانت تزخر بالرقيق والباعة والمشترين ،وصوت النخاس ينادى باعلى صوته والناس تزيد بالثمن . والسوق مملوءة بالجوارى من رومية وتركية وحبشية ،فالجارية ذات القيمة ينتظرها النخاس حتى يزدحم السوق ،ثم ينهض واقفا ويصيح " يا تجار يا ارباب الاموال ما كل مدورة جوزة ولا كل مستطيلة موزة ،ولا كل حمراء لحمة ولا كل بيضاء شحمة ولا كل صهباء خمرة ،ولا كل سمراء ثمرة ،يا تجار هذه الدرة اليتيمة التي لا تفي الاموال لها بقيمة ،بكم تفتحون باب الثمن "؟ فيتقدم احدهم ويدفع مثلا خمسة الاف دينار ، ويأخذ الثمن بالارتفاع بحسب المشترين ومقدرتهم على المزايدة .[3]

اما الرقيق الجيد فعلا والغالي الثمن لصنعته او جماله ،لم يكن ليعرض في السوق العمومي لان هذا يعني الحط من قدره ،[4] والاحسن ان يوضع في منزل خاص وغالبا يكون بيت النخاس ،وهناك يستطيع الرجل ان يتأمل في المرأة كل شئ ويعرفه ما خلا حظوة الخلوة .[5] لذا كان بيت النخاس مقصد الشباب والمجان ،يرتادونه ليتقاينون هناك بمن عنده من اصحاب العيون الكحيلة والجفون الساهية الفتانة ،والنخاس يرحب بالجميع ويلبي طلباتهم من دون ما تردد . ذكر علي بن الجهم انه كان يحاشر جماعة من

---

(١) متز ،الحضارة الاسلامية ،ج ١ ، ص ٢٧٠
(٢) Abbot, Two Queens of Baghdad p.9
(٣) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠
(٤) اليعقوبي ،البلدان ص ٢٧
(٥) متز ،الحضارة الاسلامية ،ج ٢ ، ص ١٤٧

الفتيان ،كانوا يتقاينون ببغداد ،ويلزمون منزل مقين بالكرخ اسمه المفضل ،فقال فيه علي بن الجهم شعرا يبين انهم نزلوا عند القيّم واشتفت الجواري اسماعهم باغاني صعيد والقريض وسريج ،وكانوا يأخذون ملء حديثهم معهن :

اوانس ما للضيف فيهن حشمة ولا ريهن بالجليل المهجل

وكان صاحبهن يشجع الزوار على الاقبال عليهن ويتحاشى رؤية ما هم فيه من قصف ولهو

يسر اذا ما الضيف قل حياؤه ويغفل عن وهوغير مغفل

ويكثر من ذم الوقار واهلـــه اذا الضيف لم يأنس ولم يتبذل

ولا يدفع الايدى المريبة غيرة اذا نال حظا من لبوس ومأكل

ويطرق اطراق الشجاع مهابة ليطلق طرف الناظر المتأمل .

واعرض عن المصباح والهج بمثله فان ضمر المصباح فادن وقبل

والامر يمتد الى الاكثر من اللص والضم والعناق والقين لا يحرك ساكنا ما زالت الدراهم تأتيه ،فهم احرار بكل ما يريدون من تلكم الجواري ،انما هي ليلة وتنقضي فالاحسن التمتع باكثر ما يمكن ،على قول امرئ القيس(اليوم خمر وغدا امر) ويكمل ابو الجهم وصفه :

وسل غير ممنوع وقل غير مسكت ونم غير مذعور وقم غير معجـل

لك البيت ما دامت هداياك حجة وكنت مليا بالنبيذ المعســـــل

فبادر بايام الشباب فانهـــا تقضى وتفنى والغواية تنجـلي

ومنها : هل الدهر الا ليلة طرحت بنا اواخرها في يوم لهو معجـل

سقى الله باب الكرخ من متنزه الى قصر وضاح فبركة زلزل .

مساحب اذيال القيام ومسرح الـ حسان ومثوى كل خرق معفّل (١)

---

(١) الاصفهاني ،الاغاني ، جزء ١٠ ،ص ٢١٩

ميزاتهـــــــن

ولهؤلاء الجواري صفات وميزات خاصة عرفها اهل العصر ، واختلفت قيمتهن لاختلاف ذلك ، جاء في رسالة ابن بطلان الطبيب النصراني الذي عاش حوالي النصف الاول من القرن الخامس الهجري وصف عام للجواري ، وهي لدليل كافٍ على بعد النظر والخبرة التي اكتسبها القوم في شراء الجواري . " فالمندیات لهن حسن القوام وسمرة الالوان وحظ وافر من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة ... لكن الشيخوخة تسرع اليهن ... يصلحن للولد ... والقندهاريات ، لهن فضيلة على كل النساء ، فان الشيب منهن تعود كالبكر ... والمدنيات سمر الالوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهم حلاوة القول ونعمة الجسم ، وملاحة دل وحسن شكل وبشر ، قنوعات بالقليل لا يغضبن ولا يصخبن ، ويصلحن للقيان ، ... والمكيات خنثات لينات الارساغ الوانهن البياض المشرب بسمرة ، ... اجسامهن ملتفة ، ... وبيونهن مراض فاترة ، والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، اخف خلق الله ارواحا ، واحسنهم فكاهة ومزاحا ، لسن باممات اولاد يكسلن في الحبل ويهلكن عند الولادة ... والبربريات مطبوعات على الطلاقة نشيقات للخدمة ويصلحن للتوليد ، ... ويقول ابوعثمان وهو من سماسرة هذا الشأن : اذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس ان تجلب وهي بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت الى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت بالعراق جمعت الى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات واداب العراقيات واستحقت ان تخبى في الجفون وتوضع على العيون . (١) والزنجيات مساويهن كثيرة ، ... والغالب عليهن سوء الاخلاق وكثرة الهرب ، ... والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن ... ويقال لو وقع الزنجي من السماء الى الارض ما وقع الا بالايقاع ... وليس فيهن متعة لصانعهن وخشونة اجسامهن ، اما الحبشيات فالغالب عليهن

نعمة الاجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدهن السل والدق ، ... دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها ، ويصلحن للائتمان على النفوس ، يخصهن قوة النفوس وضعف الاجسام كما يخص النوبة قوة الاجسام وضعف النفوس ، ... والبجاوات مذهبات الالوان ، ... ملس الاجسام ، ناعمات البشره ، جواري متعة ، ان جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من ان ينكل بها - لانهن يقورن ويمسح بالموس اعلى فروجهن حتى يبدو العظم فيصرن شهرة من الشهر ... والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة وقدودهن ما بين الربع والقصير ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الاولاد ومعادن النسل ، قل ما يتفق في اولادهن وحش ولا ردى التركيب . والرومیات بيض شقر ، سباط الشعر ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وامانة ، ... ولا يخلو ان يكن يألفن صنائع دقيقة . اما الارمنيات فالملاحة للارمن ، ... والعفة فيهن قليلة او مفقودة والسرقة فيهن فاشية ، ... وهن عبيد كد وخدمة ونساؤهم لا يصلحن لمتعة ، وجملة الامر ان الارمن اشر البيضان ، كما ان الزنج اشر السودان ، ... "[1] قال عبد الملك بن مروان " من اراد ان يتخذ جارية للمتعه فليتخذها بربرية ومن اراد للولد فليتخذها فارسية ومن اراد للخدمة فليتخذها رومية "[2]

هذا وصف عام للجواري اللاتي كان السوق دائما عامرا بهن ، وفي متناول الشخص ان يرى بغيته ويبذل المال في طلبها ، ... اما اثمانهن فتبعا لاشكالهن ، وثقافتهن ولا يخفى ان البكر اغلى ثمنا من الثيب .

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣
Grunebaum, Med. Islam P. 226

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٨٣

بيعهن واثمانهـــــن

كان ثمن الجواري البيض اقل من السود لانهم ارستقراطيو العبيد ، فالبيضاء توخذ لجمالها فقط من دون ما صناعة بالف دينار او اكثر (١) . وتختلف اثمانهن اختلاف ثقافتهن ومعرفتهن بالفنون المطلوبة فالجارية المثقفة التي تعرف الغناء واللعب والاوتار ثمنها مرتفع جدا ، يصل احيانا الف وخمسماية دينار (٢) . اما الجارية التي تحسن الغناء وتعرف ابوابه فكانت تشترى من الف الى الفي دينار (٣) . والمشهورات من المغنيات الفنانات غلت اثمانهن لا سيما اذا ابتيعت من مغن مشهور . ابتيعت حبشية جارية عوف بمائة الف دينار ، وعشرين الف دينار ، هذا مع العلم ارسل الى مالكها بصنوف الهدايا من الاطعمة وغيره مما كلف جملة من المال (٤) . واشترى الرشيد جارية من ابراهيم الموصلي بستة وثلاثين الف دينار (٥) . اما الجارية الصناع العازفة فكانت تضرب الامثال بقيمتها يقول الخوارزمي " ويشترون العوادة بالبدر ويجرون لها ما بقي برزق عسكر " (٦) . وعرضت على عمر بن معمر التميمي جارية وهو امير البصرة يومئذ ، كان مولاها قد احسن تأديبها وتثقيفها وانفق عليها الكثير من المال ، فاشتراها ابن معمر بمائة الف درهم (٧) . وحوالي عام ٣٢٠ هـ اشترى ابن رائق امير العراق جارية مولده لابنة حمدون النديم ، وكانت سمراء موصوفة بعذوبة صوتها وصحة غنائها ، اشتراها ابن رائق من مواليها بثلاثة عشر الف دينار واعطى من دله عليها الف دينار (٨) . وذات الخال محظية الرشيد وحبيبته التي سلبت عقله طويلا ابتاعها بسبعين الف درهم (٩) . وبصورة عامة لم يكن لتقل قيمة الجارية التي تعرف الخط

---

(١) الف ليلة وليلة (في قصص مختلفة) متز ، الحضارة الاسلامية ج ١ ، ص ٢٦٦
(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ، مصارع العشاق ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧
(٣) الف ليلة وليلة (في قصص مختلفة) متز ج ١ ، ص ٢٦٦
(٤) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٧٣
(٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٥ ، ص ١٦٤
(٦) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ١٣٣
(٧) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٥٦
(٨) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٦٦
(٩) الاغاني ، ج ١٥ ، ص ٧٩ ، تقدم

والنحو والتفسير واصول الفقه والدين والضرب على الالات المطربة عن عشرة الاف دينار .(١)

وكان لسمعة بعض مواطن الرقيق قيمة خاصة ، لما هو معروف عن نفاسة رقيقها ، يقول ابن حوقل " وانفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الارض ، ولا يدانيه في القيمة والحسن ، وغير غلام رأيته قد بيع بخراسان بثلثة آلاف دينار ، وتبلغ عندهم الجارية التركية ثلثة الاف دينار ، ولم ار بجميع اقطار الارض من الرقيق ما بلغ هذه القيمة من غلام ولا جارية رومية ولا مولدة فقا . الا ما كان معه آلة السماع من الحذق البارع والاداء ... "(٢)

المهن اللواتي يشتغلن بها .

ان وجود قسم من هؤلاء الجواري كان ضروري جدا بالنسبة لحياة العصر الاجتماعية ، اذ ان اسلوب المعيشة وما يقوم عليه من الواجبات تطلب اكثر من امرأة واحدة في البيت ، فبعضهن خصص للقصف والمنادمة وتسلية الضيوف ، حتى في غيبة صاحب الدار نفسه احيانا ، لان ذلك كان من واجبات الضيافة . فهذا ابو محمد المهلبي الوزير يزور ابا العباس المعروف بالشاجي وتنادمه جاريته وتغنيه وتسليه في غيبة مولاها .(٣) وكانت من بينهن العلوزات الماهرات اللاتي لا يمكن استغناء المجالس عنهن ، اذ لا سماع ولا شراب بدونهن ، كالطنبورية ، وكراعة ورباب ، وصناجة ورقاصة وزخانة ، يلعبن للضيوف ويسلين القلوب بقدودهن الياسة ، وبيونهن النعسى ، يرفلن بفاخر الحلى والملبوس .(٤) وكانت البعض يجلبن كمراضع للاولاد ، وتصير المرضع في

---

(١) ابن حوقل صورة الارض ج ١ ، ص ١٤٣
(٢) ابن حوقل صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٤٥٢
(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص ١٤٨ ـ ١٤٩
(٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٩٤

دار مواليها باحسن حال ، تكرم وتوصل ، وكلمتها تنفذ كرامة للرضيع الحبيب .[١] والبعض يشترون كجواري خاصات بخدمة زوجة حرة او محظية مدللة ، وصل هيام صاحبها بها ان خصها بقيان وجواري ليسهرن على راحتها وخدمتها .[٢] فيدخلنها الحمام اذا اغتسلت ، والمواشط يصلحن حفافها وما تحتاج الى اصلاح من وجهها .[٣]

اما الرقيق الاسود فيستعمل في غالب الاحيان للعمل والخدمة والتنظيف في البيوتات .[٤] وهؤلاء السوداوات اللاتي يمارسن هذه الاعمال لم يكن الرجل يهمه كثيرا ان ترى من الرجال او ان تتحجب منهم .[٥]

ان هذا لا يعني عدم اشتغال الجارية البيضاء في البيت ، لا بل كان الكثيرات يشتغلن ويعملن بمختلف الاعمال كالكنس وغيره ،[٦] او كالطبخ .[٧]

ولا يحاول الرجل ان يقرب فراش جاريته المشتراة للمهنة واعمال البيت ، بل يحاول ان يفهمها في كثير من المناسبات ، اذا رأى منها محاولة لاغرائه ومشاركته الفراش ، يذكرها انه اشتراها للعجن والطحن وجلب الماء والاهتمام بامر الضيف وتجهيز الطعام . قال ابو الاسود الدؤلي في جارية اشتراها للعمل والخدمة حاولت ان تتعرض له :

اصلاح اني لا اريدك للصبا ... فدعي التشمل حولنا وتبذلي

اني اريدك للعجين وللرحا ... ولحمل قربتنا وغلي المرجل

واذا تروح ضيف اهلك اوغدا ... فخذي لآخر اهبة المستقبل[٨]

---

(١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٣٩
(٢) الف ليلة وليلة (في كثير من القصص)
(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٤٦
(٤) ابن الجوزي ، الحمقى والمغفلين ، ص ٣٨
(٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٢
(٦) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ١٣٨
(٧) الف ليلة وليلة ، ج ٥٥٨ ، ج ١ ، ص ٢٤
(٨) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٢١ ، ص ١١٧

هذه كانت وظائفهن داخل البيت ، اما البعض فكن يشتغلن خارج البيت لحسابهن الخاص ، او احيانا لحساب مواليهن ، واشهر تلك الحرف الغناء وارتقت البعض قمة المجد والتعظيم في غنائهن ، يقول ابراهيم بن المهدى " وريق .... تحفظ كل شيء في دفاتر الغناء " (١) . فكانت الاموال ترمى تحت اقدامهن دون ما مقابل ، ولا غرض للرجل الا ارضائهن والاستزادة من سحر نغماتهن (*) روى ان ابا العباس البغدادى اشتغل دلالا ينفق ما يكسبه في الفساد ، حدث ان التقى به احد شيوخ البصرة في ليلة من شهر رمضان وكمه مملوء ، يريد دار بدعة الدرونية ، وكانت اذ ذاك مغنية البلد المشهورة فيه ، بالنبل والحذاقة والطيب والحسن واخبارها كثيرة طريفة تناقلتها كثير من الكتب العربية . قال الشيخ : " ايش في كمك يا ابا العباس ؟ فقال مخلط خراسان اتصدق به على بدعة صدقة شهر رمضان . فلم اشك في انه كذلك فقلت : فاطعمني منه ، فطرح في كمي منه شيئا ثقل به كمي ، ولما بلغت بيتي فنظرت به اذا هو لوز ذهب وسكر فضة وفستق وبندق عنبر وزبيب ند ، فختمته فلما كان الغد نظرت فاذا قيمته مال ، فجئت اليه لارده عليه فقال : يا بارد ايش هذا مما ترده ، جميع ما كان في كمي البارحة ، كذا فرقته على بدعة وجواريها . (٢) وكانوا يجلبونهن الى البيوت احيانا ليحيين ليالي عامرة . قال جعفر بن قدامة قال : حدثني محمد بن عبدالله بن مالك قال : كنا في مجلس ومعنا حسين بن الضحاك ونحن على نبيذ ، فعبث بالمغنية وجمشها فصاحت عليه واستخفت به ، فأنشأ يقول :

لها في وجهها عكـــــن وثلثا وجهها ذقـــــن

واسنان كريش الـــــــب ط بين اصولها عفـــن

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، صفحة ٩٨ ـ ٩٩

(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٤ ، ص ١٠٨ تقدم

(*) (سوف يبين تأثيرهن ومنزلتهن في باب الغناء)

قال فضحكنا ، وبكت الجارية المغنية حتى قلت قد عمت ، وما انتفعنا بها بقية يومنا . وشاع هذان البيتان فكسدت من اجلهما ، وكانت اذا حضرت في موضع وانشدوا البيتين تجن . ثم هربت من سر من رأى ، فما عرفنا لها بعد ذلك خبرا ". (١) كان يهم المغنية سمعتها كمغنية تستأنس بها المجالس ويستحليها السماع والنظارة لان ذلك يزيد من قيمتها وما يأتيها من المال التي تعمل من اجله .

البغـــــــاء

ومنهن من امتهنت البغاء واتخذته لها مهنة تتكسب منها وتعتاش ، لا يهمها الرجل اى نوع هو ، كل ما تريده ثمنا عاليا ، فكأنها تتاجر بنفسها :

لا تعتبن على القيان ولا على زهو القيان فانهن تجار (٢)

انتشر البغاء على الرغم من اباحة الزواج والتسرى باكثر من واحدة ، ويظهر ان هذا الداء انتشر وفشى في العصر البويهي . وصف احد الرحالة المسلمين حوالى سنة ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م حال البغاء في الصين وتكلم عن الزواني وهن يثبتن في ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزواني ، وعليهن في كل سنة ضريبة يؤودينها لبيت المال ، ثم قال " ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن ". (٣) ولكن بعد مضي حوالي الخمسين عاما سنة ٣٧٢ هـ ـ ٩٨٢ م فرض عضد الدولة على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمن هذه الضريبة . (٤) وعمل الفاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش . (٥) وهناك اسطورة اخترعت في اواخر القرن الرابع الهجرى ونسبت لعضد

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٧ ، ص ٢٢٤
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ٩٨
(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ١٤١
(٤) نفس المصدر
(٥) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٩

الدولة كما نسبت اليه اشياء كثيرة من الظلم والقسوة كذبا وبهتانا ، قيل انه خطب الاميرة جميلة الحمدانية فامتنعت عليه فغضب واضمر لها الشر ، وعندما وقعت اسيرة في يده استولى على جميع اموالها ، (١) وطلب اليها ان تدفع اموالا جسام ومتى عجزت عليها ان تختلف الى دار القحاب لتكسب فيها المال المفروض وتسدد ما عليها . ولكنها اصابت غفلة من سجانيها وغرقت نفسها في دجلة . (٢) ومن عجائب مدينة اللاذقية ما جاء في اخبار البلاد " ان المحتسب يجمع الفواجر والغرباء المؤثرين للفجور في حلقته وينادي على واحدة ويتزايدون حتى اذا وقف سلّمها الى صاحبها مع ختم المطران ، وهو يأخذها الى الفنادق ، فاذا وجد البطريق انسانا لم يكن معه ختم المطران الزمه جناية " . (٣) اما المقدسي في كلامه عن مدينة شيراز يقول " ودور الزنا بها ظاهرة " وايضا " وفي المقابر مجتمع الفساق " . (٤) وجاء فيه ايضا "ودور الزنا بشيراز ظاهرة بقبالات ." (٥) ويقول ياقوت " ان شيراز دور الفسق والفساد بها شهيرة " . (٦)

وفي سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٤ م " قام الحنابلة بكبس دور القواد والعامة وان وجدوا نبيذا اراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها ، وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو فأخبرهم والا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فارهجوا ببغداد " . (٧) وكان بعض النسوة يحملن باجر في جمع النساء بالرجال . يقول ابن قيم الجوزية : " قال المدائني : ان بعض عمال البصرة ، كان لا يزال يأخذ قوادة فيحبسها فيأتي من يشفع

---

(١) ابن تغربردي ، اخبار مصر ، ص ١٥ - ١٦
(٢) متز - ج ١ ، ص ٤٣ (في الهامش)
(٣) القزويني ، اخبار البلاد ، ص ١٧٢ .
(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٤٢٩
(٥) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٤٤١
(٦) ياقوت ، البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٢٠
(٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠

فيها فيخرجها ، فأمر صاحب شرطته وكتب رقعة يقول فيها فلانة القوادة تجمع بين النساء والرجال لا يتكلم فيها الاذان فكان اذا كلمه فيها احد قال : اخرجوا قصتها حتى اذا قرأت سكت الرجل مستحيا "(١) .

اما دور البغاء في بلاد الاسلام فقوامها الجواري المملوكات وتدل على صحة ذلك حكايات كثيرة .(٢) بعد ان ماتت ابنة عبيدة الطنبورية واختلت احوال علي بن الفرج والد البنت طلقت عبيدة ، وخرجت تمتهن البغاء ، فكانت تخرج للنهار بدنانير وللليل بدينار .(٣) وحدث احيانا ان بعض النسوة والبنات مارسن العهر خفية وبدون معرفة اهلهن ، وبعضهن دفعن اخواتهن وصويحباتهن من القاصرات اللاتي تسهل قيادتهن (٤)

منزلتهـــن من الرجـــال

معظم تلكم الجواري استحوذن بمجامع قلوب مواليهن ، لا يخالف لهن امرا ولا يتردد في تلبية مطالبهن ، الم يحمل المهدي برغبات الخيزران وولي ولديها العرش من بعده !! (٥) ويقول متز " وقد بين الجاحظ العلة التي من اجلها صار اكثر الاماء احظى عند الرجال من اكثر المهيرات ، بان الرجل قبل ان يملك الامة قد تأمل كل شئ فيها وعرفه ، ما خلا حظوة الخلوة ، فاقبل على ابتياعها بعد وقوفها في نفسه ، اما الحرة فانما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيرا ، والرجال بالنساء ابصر ، وانما تعرف المرأة من المرأة

---

(١) ابن قيم الجوزية ، اخبار النساء ، ص ١٣٢
(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٥ - ١٦
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٩ ، ص ١٣٦ تقدم
(٤) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ١١٧
(٥) Abbot, Two queens of Baghdad P-45

ظاهر الصفة ،فاما الخصائص التي تقع من نفوس الرجال فلا تعرفها "[1]. والموشى يقر بان هوى القيان على ما فيهن من العيوب اسرع الى النفوس واوقع في القلوب واعلق بالارواح واخلق للنجاح ،وهن اقرب املا واقل عللا والظفر بهن اسرع من الظفر بربات الخدور والمحتجبات وراء الستور وانهن مزورات واولئك معدومات .[2] قال غورك المجنون :

ما كان اغناني عن حب من ... من دونها الاستار والحجب[3]

فكانت اذا غضبت او انزوت بمقصورتها لعتاب او سوء تفاهم وقع بينها وبين مولاها ،تشعل النار في لبه فيأتيها مستجيرا متوسلا ،يكلمها نظما ونثرا . حلف الرشيد ذات يوم ان لا يدخل على احدى سراريه ،وكان لها مكان في قلبه ،فامتنع طويلا وهو ينتظر الايام علّها تسترضيه ،ولكن عبثا انتظر ،ولما لم يطق صبرا ولا سكوتا استدعى جعفر بن يحي وعرفه الخبر فانشده شعرا وطلب اليه ان يجزه :

صدّ عني اذ رآني مفتتن ... واطال الصد لما ان فطن

كان مملوكي فاضحى مالكي ... ان هذا من اعاجيب الزمن

وطلب الى ابي العتاهيه وهو مسجون ان يجز البيتين فاجاز :

عذّبه الحب ارتني ذلتي ... في هواه وله وجه حسن

فلهذا صوت مملوكا له ... ولهذا شاع امري وعلن

فقال الرشيد : جئت والله بما في نفسي واطلقه من الحبس وزاد في صلته .[4]

---

(١) متز ،الحضارة الاسلامية ،ج ٢ ،ص ١٤٧
(٢) الوشاء ،الموشى ،ص ١٠٠
(٣) مصارع العشاق ،ص ٧٨ ـ ٧٩ ، ابن قيم الجوزيه ،ص ١٧ ، (الشعر لعلويه المجنون)
(٤) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ٤ ،ص ٧٣ ،مصارع العشاق ،ص ٣٧٠

وهذا المأمون يتوسل ويتودد بشتى الوان الكلام الى احداهن وهي غضبى لا تكلمه :

تكلم ليس يوجعك الكـــلام ولا يؤذى محاسنك الســـلام
انا المأمون والملك الهمـام ولكني بحـــبك مـــــتهام
بحقي عليك ان لا تقتليني فيبقى الناس ليس لهم امام (١)

اليس غريبا وعجيبا ان يكلم المأمون احدى مماليكه بهذه اللغة ؟ ! وعرب التي اشتراها المأمون وذهبت به كل مذهب في الحب والتوله والعبادة ، حتى قيل انه قبل رجلها احيانا . (٢) وهل امتنع الرشيد عن طلب ذات الخال ورغبتها في تولية جيوشه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، لبى طلبها وكتب العهد وشرط على ولي العهد بعده ان يتمها ان لم تتم في حياته . (٣) ويحكى ان تغاضب المتوكل مع جاريته محبوبة ، فامر ان تقبع في مقصورتها والا يقربها احد من الخدم او الجواري ، ولكن قلبه المفعم بالوله والحب لمحبوبة قاده اليها ودفعه الى احضانها ، فصالحها وترضاها . (٤)

والمحظيات اللاتي يقلن الاشعار وينشدن الانغام ويتقن اللعب بالاوتار ، كن يسحرن الباب الخلفاء ، ويجزل هؤلاء لهن العطاء والبذل . فهذه دنانير البرمكية التي سحرت الرشيد واطارت عقله بصوتها الشجي المسكر و دنانير التي حركت عقارب الغيرة في قلب زبيدة التي شكت الخليفة لاعمامه لتعلقه بدنانير ، وهب لها الخليفة في ليلة عيد عقدا قيمته ثلاثون الف دينار . (٥) وشارية غنت فاطربت وانشدت فشدت بصوتها الحلو العذب ، علمها واديبها ابراهيم بن المهدى فغلبت عليه امره ، ولم تكن لتعدل

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٤٢٨ — ٤٣٢
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٨ ، ص ١٨١ تقدم
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٥ ، ص ٧٩ تقدم
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٨٢-٢٨٤ ، الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ص ١٨٧ ، ابن الجوزيه ، اخبار النساء ، ص ٣٢ — ٣٣
(٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٦ ، ص ١٣٢ تقدم

اى شئ آخر عنده ، وعندما توفي اشتراها المعتصم ، ثم الواثق . وكان الواثق يسميها يا ستي ، وهي التي علمت وخرجت فريدة مالكة قلب الواثق وجامعة حواسه ، فلم تبق في تعليمها غاية ... قال جحظه " كنت عند المعتمد يوما فغنته شاريه بشعر مولاها ابراهيم بن المهدى ولحنه :

يا طول علة قلبي المعـــتاد الف الكرام وصحبة الامجـــاد

فقال لها احسنت والله فقالت : هذا غنائي وانا عارية فكيف لو كنت كاسبة . فامر لها بالف ثوب من جميع انواع الثياب الخاصة فحمل ذلك اليها ، وهذا ما لم يأمر به خليفة لمغنية من قبل ابدا ."(١)

ولقد وصل العشق بالرجال ابعد حد فتغزلوا في بعضهن وهذا ادى الى اشتهارهن فابتاعهن الخلفاء والكبراء تعشق ابراهيم الموصلي ذات الخال وجن فيها ، فجاء بالشعر واللحن البديع ، اشتهر امرها حتى وصل الرشيد فابتاعها فغلبت على امره ، وكادت تلهيه عن امر مملكته قال ابراهيم :

اما تعلم ذات الخال فوق الشفة العليـــا
باني لست اهوى غيرها شيئا من الدنيـــا
واني عن جميع الناس الا عنهم اعمـــى
واني لو سقيت الدهـــر من ريقك لا اروى

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، جزء ١٤ ، صفحة ١٠٨ الى ١٠٩ تقدم

اذا ذات الخال قد طال بعن اسقمته الوجـــع
وليس الى سواكم في الذى يلقى لـــه فـــزع
اما يشعك الاســلا م من قتلي ولا الـــورع
وما ينفك لي فيك هوى تغـــتره خـــدع (١)

واحب الواثق فريدة الى درجة العبادة وكم كانت تصيبه نوبات عصبية كلما فكر ان المنية ستلقاه يوما وتترك فريدة الى غيره .(٢)

ومنهم من لم يسكن قلبه خارج بيته ، لبعده عن محبوبته التي خلفها في البيت ، فيسرع اليها ، ويجلس بين يديها فيسقيها وتسقيه وتنادمه وتشفيه . قال الفتح بن خاقان لابن حمدون : " يا ابا عبدالله دخلت قصرى فاستقبلتني جارية ربشا فقبلتها فوجدت في فمها هواء لو رقد فيه مخمور لصحا ".(٣) وقال بعضهم :

يا ليلة لست انسى طيبها ابدا كأن كل سرور حاضر فيهـا
باتت وبت وبات الذق ثالثنـــا حتى الصباح تسقيني واسقيها
كأن سود عناقيد بلمتهـــــا اهدت سلافتها خمرا الى فيها (٤)

وانشد عبدالله بن طاهر في جارية له كان يتعشقها :

سقتني في ليل شبيه بشعـــرها شبيهة خديها بغير رقيـب
فما زلت في ليلين شعر ومن دجى وشمسين من راح ووجه حبيب (٥)

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، جزء ١٥ ، صفحة ٧٦ ـ ٨٢ تقدم
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، جزء ٤ ، صفحة ١١٦ الى ١١٧
(٣) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ٣٩
(٤) الثعالبي ، اليتيمة ، جزء ١ ، ص ٤٤
(٥) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ١٠٥

ولما لم يكن يتحمل الصبر في البعد عنها كان يخرجها في اسفاره .[1] هجر محمد بن اسحق بن ابراهيم جارية له كان يخرجها معه في اسفاره ، وحدث له خروج وهو غضبان عليها فجعلت تغني وتبكي وهو مستمع :

نأت دار من تهوى فما انت صانع اصطبر للبين ام انت جازع

فان تمنعوني ان ابوح بحبهـــا فليس لقلبي من جوى الحب مانع

فدخل وترضاها واخرجها معه .[2]

وقد تمتع بعض الجواري لا سيما اللاتي عشن مدللات في قصور الخلفاء والامراء ، فظهرت بمظهر النعمة وعومل بعضهن كما لو كن بنات العائلة المالكة واتين من الامور ما لا يصدقه العقل . كان للسيدة جارية تحبها كثيرا ، اشتهت يوما ان تقوم بدور القهرمانة وتنزل الى السوق ، فاحبت بزازا واحبها ، ولم يكن ان يخطبها دون ان تراه السيدة ، فاحتالت في حمله في صندوق مع جملة صناديق محملة اقمشة وحريرا وادخلته القصر بالاتفاق مع السيدة سرا هكذا ، لان الخليفة كان قد منع دخول الرجال الى مقاصير الحرم ففي قصر الخلافة خطبها ، وبنى بها ومكث معها هناك سبعة ايام ، لما لم يكن مسموحا ان يقوم زواج في بيت الخلافة الا لاولاد الخلفاء المقربين ، واعطتها السيدة خمسين الف دينار من عين وورق وجوهر وقماش ، هذا غير ما كان لها خارج القصر من اموال وذخائر[3]

---

(١) مصارع العشاق ، صفحة ٢٥٣

(٢) نفس المصدر

(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جزء ٢ ، ص ١٧٢ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ٢ ، ص ٧٦ الى ١٨٣ ، الف ليلة وليلة جزء ١ ، ص ١١١ ــ ١١٢

واللاتي سببن الجنون لعشاقهن كثيرات يقصر المجال عن ذكر قصصهن . حدث ابو بكر محمد بن فرخان قال : لقيت غورك المجنون وفي عنقه حبل قصير والصبيان يقودونه فقال لي يا ابا بكر بم يعذب الله اهل جهنم ؟ قلت بالشد العذاب قال : صف لي قلت ومن يصف عذاب رب العالمين ؟ قال : انا في اشد من عذابه ،ثم رفع ثوبه عن جسده فاذا هوناحل الجسم دقيق العظم فقال لي :

انظر الى ما فعل الحـــب لم يبق لي جســم ولا قلب
انحل جسمي من لم يـــــزل من شأنها الهجران والعتب
ما كان اغناني عن حب من من دونها الاستار والحجـب .(١)

وان ماتت او اصابها مكروه فالويل للعاشق المولع المسكين ،تغيب فتغيب سروره في غيبتها وتتركه في عالم من الاحزان مكفهر ،لا المدامة تنسيه ولا العيدان تسليه . يقيم على حبها ويندب حظه العاثر بموتها . ولما اصيب محمد بن عبدالملك وزير المعتصم في جاريته ،برح به الوجد والهم وقال فيها الرقيق من الاشعار :

يقول لي الخلان لو زرت قبرها فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر
على حين لم اصغر فاجهل قدرها ولم ابلغ السن الذى معها الصبر(٢)

---

(١) مصارع العشاق ،صفحة ٧٨ ـ ٧٩
(٢) الثعالبي ،خاص الخاص، صفحة ٩٩

اخـــــلاقهن

بالرغم من كل ما كان يبذله المولى من حب وعشق وتوله وعطايا وبذل ، قليل جدا هن اللواتي بادلن بالمثل ووفين وبقين على العهد . لم يكن يعرفن ما معنى الود الصادق والاخلاص العميق ومن اين لهن ان يتعلمن ذلك ، وكيف يرجى من القينه التقى والعفة ، ومن وصايا النخاس لها ان تتبرج للمشترى تارة وتختفي اخرى ؟ فان هذا مالك للقلوب . وان تداري الشيخ والناقرى الطباع وتستميلهم وتتجنب الشباب وتمتنع عليهم لتتمكن من قلوبهم . (١) كيف اذا ينتظر الوفاء والفضيلة من هؤلاء . يقول الوشاء " فحبهن حب كذوب وعشقهن عشق مشوب وهواهن الى الملل منسوب ، ليس بثابت ولا متصل وانما هو لطمع وغرض ، وهن سريعات الغرض يستدل على ذلك بافعالهن الرديئة واخلاقهن السيئة وانهن لن يقصدن الا اهل النشب ويصدن عن ذوى الحسب ، وان محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال ، وتنتقل عند الافلاس والاقلال ، ومن اول الاشياء على خبث سرائر الاماء ان الواحدة منهن اذا رأت في مجلس فتى له غنى ، وكثرة مال ويسار ، وحسن حال مالت اليه لتخدعه واقبلت عليه لتصرعه ، ومنحته نظرها وغمزته بطرفها وغنت على كاساته ، حتى توقع المسكين في حبالها (٢)

تودك ما دامت هداياك جمة وتدنيك عشقا ما غنيت اخا رفد

اذا ما رأت في مجلس من تخاله غنيا حيته بالتحية والـــــود (٣)

وكذلك : لا تعتبن على القيان ولا على زهو القيان فانهن تجـــــار (٤)

---

(١) للوشاء للموشى ، جزء ، ص ، عن آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٧١

(٢) الوشاء الموشى ، جزء ٢ ، ص ٩٢-٩٣

(٣) الوشاء الموشى ، ج ٢ ، ص ٩٥

(٤) الوشاء الموشى ج ٢ ، ص ٩٨

وهكذا تخلص القينة وتفي للحبيب المملوء الجيب فمتى فرغ ما فيه واصبح في يدها ، تغلق بابها وقلبها دونه ، وتبعث به الى حيث القت رحلها ام قشعم . وكثيرون ضيعوا ثروات طائلة في سبيل القيان والجواري المستهترات . روى ان احد اولاد الكتاب ورث عن ابيه مالا جليلا انفقه على القيان والجواري وسرعان ما نفذ المال وخلا الدار العامر واصبح المسكين في حال يرثى لها وانقطعت اخباره عن اصحابه ، فقصده احدهم واذا به نائم في حشو لحاف قذر فتوسل الى زائره ان يكسيه ويأخذه الى المغنية الفلانية الحبيبة القديمة التي اتلف ماله عليها ، فلما ذهب ورأته تصورت ان حاله تغيرت فهشت له وبشت ، ولما وافاها بحقيقة الامر ، طلبت اليه ان يخرج في الحال لئلا تأتي ستها وتعاقبها ولما وقف بالباب ينظر اليها صبت عليه مرقة سكباج فصيرته آية ونكالا وضحكت منه طويلا (١) ويقول الجاحظ " ولا وفاء لهن ولا حفاظ عندهن ، ولا يدمن على ود ولا يفين لعاشق بعهد وهواهن مشرك وحبهن مقتسم ".(٢) وقال ابراهيم الشيباني : القينة لا تخلص محبة لاحد ، ولا توثق الا من باب طمع .." وقال علي بن الجهم قلت لقينة :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى اليك فان الحب اقصاني

فقالت : تأتي من باب الذهب وانشدت :

اجعل شفيعك منقوشا تقدمه فلم ينل مدينا من ليس بالداني (٣)

وقال عبدة بن الطبيب :

فان تسألوني بالنساء فانني عليم بادواء النساء طبيب

اذا شاب رأس المرء قل ماله فليس له في ودهن نصيب

---

(١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٥ ـ ١٦
(٢) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٦١
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٦١

يردن ثراء المال حيث علمنـــــه وشرخ الشباب عندهن عجيب (١)

والجاحظ يعجب كل العجب اذ كيف تسلم القينة من الفتنه ،او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانما تكتسب الاهواء ،وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشاء ،وهي انما تنشاء من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ،وصنوف اللعب والاخانيث ، وبين الخلعان والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ،ولا يرجع منه الى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ،وتروى الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت فصاعدا ،يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة ابيات عدد ما يدخل في ذلك من الشعر اذا ضرب بعض ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ، وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة ..،وطرح المطارحين كله تجميش،وانشادهم مراودة . (٢)

قال الشاعر : تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن جزوعا اذا بانت فسوف تبيني

وان هي اعطتك اللبان فانهـــا لغيرك من طلابها لمتليـــن

وان حلفت ان ليس تنقض عهدها فليس لمخضوب البنان يمين . (٣)

ولقد وصف الوشاء اخلاق القيان وصفا جاء لعمرى حقيقة صحيحة واقعة ،يبيّن كيف تحاول اساليب الغواية معه ان رأت فيه مخايل الغنى ،فتتغنى له وتتشرب .

اذا ما رأت في مجلس من تخاله غنيا حيته بالتحية والود

وغنت على اقداحه كل ما اشتهى وقالت له ماذا تريد وانا اتتمرى

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٣ ، ابن قيّم الجوزيه ص ٨٠ ؛ ابن قتيبه ، عيون الاخبار ،كتاب النساء ، جزء ٤ ،صحيفة ٤٥ وكذلك في المعرى ، رسالة الغفران ،ص ١٤٦ وما بعدها (على انه كلام علقمة بن عبده) .

(٢) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٧٣

(٣) ابن قيّم الجوزيه ، ص ٨٠

وقومي اليه اشرب الرطل واسقني فقد حنّت قلبي واشتملت على ودى

ثم تمثل الحزن امامه اذا ما حان وقت الفراق ، وتبعث له رسولها اذا انصرف وتبثه لوعتها بعده وهكذا تغلب الغواية والحيلة عليه فتوافيه

فان جاء وقت الانصراف تحازنت لفرقته حتى يقوم على وعد

ويغدو اليه في الفراش رسولها تسائله ما كان حالك من بعدى

ويا ليت شعرى بت فانني رعيت نجوم الليل كفي على خدى

فلا يجد المغرور من دفع جدرها سرورا بتعجيل الزيارة من بد .

سرعان ما تعانقه وتنكب مقبلة رجليه ، وهكذا تبقى تخدمه وتقوم على امره طائعة راضية ، واذا اعتذر لها وتأسف لما تقوم من الخدمة اليه والرعاية به ، اجابته انما البيت بيتها وتأمل ان يبتاعها ،

فان هي جاءت عانقته وقبلت يديه وابدت فرحة قل ما تجدى

وتخدمه عمرا فان قال انه ليحزنني ان تصنعي هكذا عندى

تقول له ذا البيت بيتي وانما اؤمل ان يبتاعني سيدى وحدى

وبعد ان تتمكن من قلبه ، تحاول ابتزاز امواله بشتى الوسائط كالفصد مثلا وما يتبع ذلك من الهدايا الثمينة كالخلاخل والطيب وثياب الخز والبرد والملحم الخ الخ حتى تبتز كل ما لديه ، وحينذاك تتركه غير مأسوف عليه .

فتفصد لا من حاجة لفصادها ولكن لتكليف الهدية في الفصد

فمن بين خلخال يصاغ وخاتم ومن دملج يهدى على اثر العقد

ومن ثوب خز بعد وشي وملحـــم ومن مصمت يشرى على اثر البرد
ويا لك من مسك زكي وعنبـــر وعود وكافور نقي ومن نـــد
فذا فعلها حتى اذا عاد مفلســا تخبثت وابدت جانب الهجر والصد
فقولا لمن يهوى القيان تفهمـــوا مقالي فاني قد نصحت لكم جهـدي (١)

وقد يتوهم من يظن ان القينة تلعب برجل واحد في الوقت الواحد ، لا بل قد يجتمع عندها ثلاثة او اربعة من مربوطيها ، تجتمع بهم كل على حدة ، وتكلم كل باللغة التي يفهمها في عزلة وعلى انفراد . (٢)

قيل في ذلك : تريدين كيما تجمعين وخالدا وهل يجمع السيفان ويحك في غمد
وقال آخـــر : الا يا عاشق القينات جهـــلا اردت بان تكون ابا البغول
اترضى للهوى من ليس يرضى على ضيق الهوى الفى خليل . (٣)

تراسل الجميع وتبث وتبكي ، وكأنها تكلم احدهم بما لم تفه به في حياتها ، وتشعر بما لم يخطر لها ببال ، ولا تكاد تعرف ما معنى هذا الشعور ، الذى لم ينتابها من قبل ، ترسل اليه الرسل وتعاديه بالتدلل وتخبره عن سهرها وتنبئه عن فكرها وتشكو اليه القلق وتخبره بالارق وتبعث اليه بخاتمها وفصلة من شعرها وقلامة من ظفرها وقطعة من مسواكها ولبان قد جعلته عوضا عن قبلتها ، وكتاب قد نمقته بظرفها وطيبة بكفها وسحته بوتر من عودها ونقطت عليه قطرات من دفعها وختمته بغالية قد عدل بالعنبر متنها ، وطبعت عليه بفص قد نقشت عليه بعض مداعباتها وتمثلت عليه ببعض مجانتها وضمنت الكتاب

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ٩٥ — ٩٦
(٢) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٧١ — ٧٢
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٠٠

شكوى شوق مريض ، فمتى عرفت بانه ابتلى اخذت في طلب الهدايا السرية وتشهت الثياب الورنية والازر النيسابورية والاشتان الانجاجية والاردية الرستيدية والعمائم السوسية والتكك الابريسم والخفاف الرنانية والبغال الكتبانية والطق المحشية والعصائب المرصعة وخواتيم الياقوت الثمنة ." (١) ومتى ما علمت انها تمكنت من قلبه تأخذ بالتمارض من غير سقم لتجيئها هدايا ذوى الوجد من القمص المعنبرة والغلائل المسكة والاردية المرشوشة واللخالخ المعجونة ومخانق الكافور المنظومة ومراسل القرنفل المحجرة والمسك الاذفر والعنبر الاشهب والعود الهندى والند الخنزائني والماورد الجورى والحملان الحولية والجداء الرضع والبط الصيني والفراريج الكسكرية والدجاج الفائق والفراخ المسمن والنبايخ المنضده بانواع الرياحين والفاكهة يتبعها صنوف من الشراب المعسل والدوشاب ، والمطبوخ والشمش ونبيذ السكر والقشمش ثم الدنانير الجدد الشهرية والدراهم المسيفة الدارية في خرائط الديباج الابريسميه ، ومناديل الوشي الانجمية ، وفي خلال ذلك العيدان المعرعر الموزونة والمضارب المدهونة والاوتار الصينية ، حتى اذا نفذ اليسار واحست بالافلاس اظهرت الملل وضجرت واخذت في الجفاء والعتاب وصرفت عنها هواه ، ومالت الى سواه ، فحينئذ يدرك المغرور الندم ويلحقه الاسف حين لا تغنى عنه الحيلة . (٢)

وحيلهن مبتكرة في بابها للتخلص من العشاق في دور افلاسهم ، كان روح بن حاتم المهلبي كثير الزيارة للزرقاء جارية ابن رامين ، وكان يختلف عندها جارية وهواها محمد بن جميل وتهواه هي ايضا فقال لها ان روح بن حاتم قد ثقل علينا فما اصنع فقالت " قد عمر مولاى ببره " فقال : احتالي له . فبات عندها روح ليلة فاخذت سراويله وهو نائم فغسلته ، فلما اصبح سأل عنه فقالت غسلناه ، فقطن انه احدث فيه فاحتج

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ص ١٤

الى غسله فاستحيا من ذلك وانقطع عنها وخلا وجهها لابن جميل .(١)

وبعد الا يكفي بهذه القصة لنعرف اى شيطانات رجيمات كن ، كيف لا ، اى خير يرجى من نساء يبتن مع اكثر من رجل في ليلة واحدة !! ؟

والجاحظ في رسائله لا يسكت عن ذلك بل يقول : " القينة لا تكاد تخلص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتربطين ليقعوا في انشوطتها . فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في اشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب واظهرت الشوق الى طول مكثه والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه ، فاذا احست بان سحرها قد تغلب فيه كاتبته تشكو اليه هواها وتقسم له انها مدت الدواة بدمعها ثم جعلت الكتاب في سدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زهر ، والحت في اقتضاء جوابه ، وان اجيبت عنه دعت انها قد صيرت الجواب سلوتها ، واقامت الكتاب مقام رؤيته وانشدت :

وصحيفة تحكي الضمير ... ر مليحة نغماتها

جاءت وقد فرح الفؤا ... د لطول ما استبطأتها

فضحكت حين رأيتها ... وبكيت حين قرأتها

عيني رأت ما انكرت ... فتبادرت عبراتها

اظلوم نفسي في يد ... يك حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ به

ان كتاب الحبيب ندماني ... محدثي تارة ويحانسي

اضحكني في الكتاب اوله ... ثم تمادى به فابكاني . (٢)

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٣ ، ص ١٢٣ نقد م
(٢) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٦٩ ـ ٧١

وهل تقف عند هذا الحد !! العياذ بالله ،لا تلبث ان تغار من اهله وتوصمه النظر الى صواحبها ،فتزوده عند انصرافه خصلة من شعرها ،وقطعة من مرطها ،تهدى اليه في النيروز تكة وسكرا ،وفي المهرجان خاتما وتفاحا وتنقش على خاتمها اسمه ،وتبدى عند العشرة اسمه ،وغنته :

نظر المحب الى الحبيب نعيـــم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم توهمه انها لا تنام من السلامة ! ولا تمتاء بالطعام ،وانها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون :

واهوى من الاسماء ما وافق اسمها واشبه اوكان منه مدانيا .(١)

ان طراز معيشتهن ،ومداولتهن من يد الى اخرى جعلت الفسق والفجور في طبيعة القينة اوالجارية ،لا يهمها تواصل هذا وتعاشر ذاك ،لا بل مهما هيئ لهـا من محيط وراحة وبيت بزوج وقلب ، لا تودء ولا تريده ، ومما جمعته وقرأته من المصادر تحققت ذلك وتلمسته . كانت الجارية تتحيل وتتذرع بشتى المطاليب للاتصال بعشيقها بالرغم من كونها زوجة ،ام ،ام ولد ،والمفروض فيها حينذاك ان تكون محجوبة ولا تتداولها الاعين ، ولكن هيهات ! هيهات ان تحجب وتسدل الستور عليها ،لان المرأة ان ارادت شيئا لا يقف امامها مانع او حائل ،وكم بالاحرى جوارى ذلك العصر اللاتي كانت حياتهن جملة حيل ودسائس ومكر وخداع ! فابتدعن الحيل وما اكثرها واسهل انطلاؤها على الزوج اوالمولى المسكين،فالحمام في معظم الاحيان كان العذر المقبول . فهذه عبيده الطنبورية ،اتصلت بعلي بن الفرج الزنجي وكان حسن الوجه كثير المال

---

(١) الجاحظ ،رسائل فنكل ،صفحة ٧١ الى ٧٢

فولدت منه بنتا فحجبها لذلك ،فلم تف له العهد بل كانت تحتال وتخرج بعلة الحمام لتتصل بمن تودّه . (١) وهذه عريب حبيبة وعشيقة الخلفاء بذلوا الغالي والنفيس في شرائها ، كان الامين قد جن فيها فاشتراها بمائة الف دينار وعندما قتل هربت الى حاتم بن عدى ثم صارت الى المأمون الذى اشتراها بخمسين الف درهم ،تغلغل حبها في كل جارحة من جوارحه ،هام بها الى حد العبادة ،وقيل انه قبل رجلها . ولكن بالرغم من ذلك كله عشقت محمد بن حامد ،واحتالت مرارا وبطرق شتى للاتصال به حتى حملت منه وولدت بنتا ، وقيل انها افرت فعلا بابي عيسى بن الرشيد ،وكم زعمت وصرحت انها لم تصف الود الخالص لاى من اولاد بني هاشم سواه . وروى انها عشقت صالحا المنذرى الخادم وتزوجته سرا . (٢)

اما اقاصيصهن اذا نزلن الى السوق ،حيث ان السوق ايضا كان من معاذيرهن المشروعة عند الازواج والمولي ،ففي السوق مع البزازين كانت تنجز الصفقات الغرامية ، وتهتك الاستار ،ويراق ماء الحياء ،مع العلم ان كثيرات من هؤلاء كن حريما لرجال مستورين ذوى سمعة طيبة . (٣) ولذلك قالوا فيهن :

ان النساء وان دعين لعفة ... رحم تقلبها النسور الحوّم

في الليل عندك سرها وحديثها ... وفدا لغيرك وجهها والمعصم

كالخان تسكنه وتصبح راحلا ... فيحل بعدك فيه من لا تعلم

---

(١) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ١٩ ،ص ١٣٦ تقدم
(٢) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ١٨ ص ١٨٠ ـ ١٨٤ تقدم
(٣) الف ليلة وليلة ،ج ١ ،ص ١٠٣

وقال اخـــــر : ان النساء خائنـــات لكل دان وقـــاص

مخضبات بنـــــان مخفـرات عـــقا ص

مكحـــلات جفـــون مجـــرعات غصـاص (١)

لا شك ان المصادر تحاملت كثيرا على هؤلاء المسكينات اللاتي حكم الدهـــر القاسي عليهن ان يكن رقيقا يباع ويشرى دون ان يكن لهن اى قيمة في الموضوع . ومع ما رماهن المجتمع به نرى البعض يحببن مواليهن ويخلصن لهم الى النهاية بالرغم مما يصيبهن من العذاب والتشريد . اشترى البرامكة دنانير ذات الصوت الرخيم ، دنانير التي ارقصت القلوب وشنفت الاسماع . حباها مواليها وحنوا عليها وبذلوا لها الاموال والهدايا ،كان لها مركز في قلب الرشيد كبير جدا ،الم تشترى زبيده بسببها عشرة جوارى وتهديهن للرشيد ليسلو دنانير ،وشاءت الصدف ان تكون مراجل ام المأمون ، وواردة ام المعتصم منهن ؟. بعد ان نكب الرشيد البرامكة ،ابتاعها تاجر ،فاحضرت واخذ يقنعها بوجوب نسيان مواليها ،وطاعته هو الذى احسن اليها وحباها ،فقالت : يا امير المؤمنين ان القوم ادبوني وخرجوني واحسنوا الي احسانا منه انك قد عرفتني بهـــم وحللت هذا المحل منك ...واني اذا ذكرتهم وغنيت غلب علي البكاء ... وطلبت اليه ان يمهلها حتى تزول عنها مسحة الاحزان فتعود تجرب الغناء ،ولكنه اصر وامر مسرور بانزال العقاب فيها وردها اليه بعد ايام .فقال لها :بحياتي عليك الا غنيت اليوم ... فاخذت العود وغنت :

---

(١) الف ليلة وليلة ، ج . ص ٢٩٩

تبكي مغازي الناس لا غزوة بالطالقان جديدة الايـــام
ولقد غزا الفضل بن يحي غزوة تبقى بقاء الحل والاحـــرام
ولقد خشمت الفاطمي على التي كادت تزيل رواسي الاســلام
وخلعت كفر الطالقان هـدية للهاشمي امام كل امـــام

ثم رمت العود وبكت حتى سقطت مغشيا عليها ، وبكى الرشيد معها ، فقال لها : ويحكي اقلت لك سريني ام غميني ، اعدلي عن هذا وغني غيره فأخذت العود وغنت :

الم تر ان الجود من صلب آدم تحدر حتى صار في راحة الفضـــل
اذا ما ابو العباس جادة سماؤه فيا لك من جود ويالك من فضـــل

فغضب الرشيد وقال : قبحك الله ، خذوا بيدها واخرجوها ، فاخرجت ولم يعد ذكرها بعد ذلك ، ولبست الخشن من الثياب ولزمت الحزن حتى ماتت . (١) وخطبها عقيلا مولى صالح بن الرشيد ، لانه كان مجنونا في حبها ، فردته فاستشفع عليها مولاه صالح وبذل الحسين بن محرز فلم تجبه وقامت على الوفاء لمواليها . (٢)

ومحبوبة جارية المتوكل التي كان اهداها عبدالله بن طاهر في جملة اربعمائة وصيفة للمتوكل ، احبها المتوكل وتعلق بها ومالت نفسه اليها ، ولما قتل صارت مع بعض الجواري الاخريات الى وصيف ، وبينما هو جالس يوما ليصطفح امر احضار جواري المتوكل ، فخرجت محبوبة بثوب ابيض يبسط حزنا على المتوكل ، فطلب اليها وصيف الغناء ، فأخذت العود وغنت بعد امتناع وهي تبكي :

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٥ ، ص ٨ ـ ٩ ، الاصفهاني الاغاني ، ج ١٦ ، ص ١٣٢ تقدم
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٩ ، ص ١٣٣ ، الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ، ص ١٨٧

اى عيش يطيب لـــي لا ارى فيه جعفـــرا
ملكا قد رأته عينـــي قتيـــلا معفـــرا
كل من كان ذاهـــبا م وحـــزن فقد بـــرا
غير محبـــوبة الـــتي لو ترى المـــوت يشترى
لاشترته بملكهـــا كل هذا لتقبـــرا
ان موت الكثيـــب اصلح من ان يحـــمرا

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها لو لم يكن بغا حاضرا فاستوهبها منه فوهبها ، واعتقها وامر باخراجها ، وان تختار البلد الذى تود الاستقرار فيه فتركت سر من رأى ولم يسمع او يصرف عنها شيئـــا .(١)

وكما بينا سابقا ان الامة احظى من الحرة عند الرجل ، لانه يرى فيها ما يوافقه ويقع في نفسه . والامة تشرى بالعين وترد بالعيب ، اما الحرة فهي غل في عنق من صارت اليه ... وقال بعضهم " عجبت لمن لبس القصير ، كيف يلبس الطويل ومن احفى شعره كيف اعفاه ، وعجبا لمن عرف الاما" كيف يقدم على الحرائر " .(٢) والجاحظ يقول متعجبا " اذ كيف كانوا لا يرون بأسا ان تنتقل المرأة الى عدة ازواج لا ينقلها عن ذلك الا الموت ما دام الرجال يريدونها ، وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ، ويعافون المرأة الحرة اذا فارقت زوجا واحدا ، ويلزمون من خطبها العار ، ويلحقون بها اللوم ، ويعيرونها بذلك ، ويتحظون الامة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالي .(٣)

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ج ١٦ ، ص ١٣٢ تقدم ، ابن قيم الجوزيه ص ٣٢ ـ ٣٤
(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ، ص ٢٩٦
(٣) الجاحظ ، رسائل فنكل ، ص ٦١

والامة ملك يمين سيدها ،له ان يراجعها اوان يستخدمها في البيت للعمل . اما في حالة وطئها ، لا يمكن ان يقرب منها ما لم يكن متأكدا من انها قد اكملت عدتها .(١) واذا كانت قد ابتيعت حديثا فيجب ان يمتنع عنها حتى تحيض وتطهر . وهذا ما يسمى بالاستبراء .(٢)

ولا يجوز في الشرع الاسلامي ان يشترك رجلان في امة في وقت واحد ، وقد حدث مرة ان رجلين اشتريا امة فوطئاها ،فامر الخليفة بعقابهما .(٣) كذلك لا يجوز للرجل اذا تزوج اخت امه له وقد وطئها ،ولم يطأ التي تزوج حتى تخرج التي وطئ عن ملكه ،ولا يطأ الامة وان كان لم يطأ التي تزوج .(٤) وقال ابو يوسف " لا حد على الذى يطأ جارية امرأته او جارية ابيه او جارية امه ،اذا قال " لا اعرف انهن يحرمن علي " . ولا حد على من وطئ جارية ابنه اوابن ابنه ، وان قال قد علمت انها حرام على ما جاء في ذلك عن رسول الله (ص) (انت ومالك لابيك) ،فأما من وطئ جارية اخيه او اخته او جارية ذى رحم محرم منه سوى ما سميت فعليه الحد ."(٥)

اما اذا وطئ الرجل امة ابنه فولدت منه فهي ام ولد له وعليه قيمتها ، ولا مهر عليه ،فان كان الابن زوجها اباه فولدت لم تصر ام ولد له ولا قيمة عليه ،وعليه المهر وولدها حر .(٦) واذا وطئ السيد جاريته وولدت له طفلا تصبح حينذاك ام ولد (٧) ولا يجوز بيعها (٨) . قال الماوردى " ان حملت الجارية من سيدها صارت ام ولد له " .(٩)

---

(١) Levy, Sociology of Islam P. 157 V.1
(٢) الخوارزمي مفاتيح العلوم ،ص ١٤
(٣) الكندى ، الولاة وكتاب القضاة ص ٣٣٨
(٤) الجامع الصغير ،ص ٣٣٢
(٥) ابو يوسف ، الخراج ،ص ١٠٨
(٦) الجامع الصغير ص ٣٣
(٧) الكندى للولاة وكتاب القضاة ،ص ٣٣٨
(٨) ابن الاخوة ، كتاب الحسبة ،ص
(٩) الماوردى ، الاحكام السلطانية ص ٤٤

الـــــــزواج

وفي حالة زواج المولى من جاريته ،عليه ان يعتقها اولا ثم يتزوجها وبذلك تصبح حرة .(١) ونص الكتاب يكون كما يلي : " هذا ما اصدق فلان فلانة مملوكـــة فلان المقرة لسيدها بالرق والعبودية عندما خشي على نفسه العنت ،وخاف الوقوع في المحظور لعدم الطول ، وانه ليس في عصمته زوجة ولا يقدر على صداق حرة على ما شهد لـه به من يعينه في رسم شهادته ، صداقا تزوجها به ، مبلغه كذا وكـذا وولي تزويجها اياه بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شـرعا ـ ولا يفتقر الـى اذنها ـ ويكمل الصداق ـ ويكتب : " وشهدت البينة ان الزوج المذكور فقير ليس له موجود ظاهر ، ولا مال باطن ،ولا له قدرة على نكاح حره ،ولا في عصمته زوجه ، وانه عادم للطول " .(٢) وقد يزوج السيد جاريته لعبده فيكتب في ذلك : " هذا كتاب تزويج اكتبه فلان لعبده فلان من امته فلانة ،المقر له منهما بالرق والعبودية وهو انه اشهد على نفسه انه زوج عبده المذكور لامته المذكورة تزويجا صحيحا شرعيا بسؤال كل منهما لسيده المذكور في ذلك ،وقبل الزواج المذكور من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولا شرعيا ، ولا يحيد الصداق ،ولا اعتبار باذنها ،وان كشفه عاقد كتب كما تقدم ."(٣)

الاولاد .

وفي الزواج ،يكون الاولاد احرارا والمرأة تصبح معتوقة لتنص عليها نصوص الزواج . ولاولاده حق في الارث وفي كل ما يملك والدهم . كما لها حقوقها الاخرى من متأخر صداقها ونصيبها من التركة . ولا يجوز للرجل ان يبيع ام ولده ،(٤) وتصبح حرة بموت زوجها .(٥)

---

(١) التنوخي بالفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٥٨ (٢) النويري نهاية الارب ج ٩ ص ١٢٢ ـ ١٢٣
(٣) النويري ونهاية الارب ، ج ٩ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ (٤) الكندي الولاة وكتاب القضاة ص ٣٣٨
(٥) Levy, Sociology of Islam P. 115 V-I

اما أم ولد فاولادها احرار .[١] ويلحق الولد بوالده ان كان وطأها بعد ملكها ، وان كان وطأها قبل ان تلحق به فيكون زنا ولا يلحق الولد به ان علقت منه .[٢] لذا على الرجل ان يقر ويقول انه وطئ جاريته المقرة له بالرق والعبودية ، الوطء الصحيح الشرعي على فراشه واستولدها ولدا يسمى فلانا ، وانه من صلبه ونسله ، ونسبه لاحق بنسبه .[٣]

وان اراد الشخص ان ينفي ولد الجارية يبين انه وطئ مملوكته فلانة ويبين جنسها وهي المسلمة المقرة له بالرق والعبودية ، ثم استبرأها بعد الوطء استبراء صحيحا شرعيا وانه لم يطأها بعد الاستبراء ، وانها بعد ذلك اتت بولد ، وهذا الولد ليس منه ولا من صلبه ، ويحلف على ذلك بالله العظيم اليمين الشرعية ويشهد عليه .[٤]

اثرهن في الجو العائلي والمجتمع .

ان كثرة هؤلاء الجواري اثر في الجو العائلي تأثيرا كبيرا ، ادى الى ما نسميه تفكك العائلة واضرام الهوى في قلوب النساء لغير ازواجهن اذ يكون الرجل منهمكا في الفساد مظاهرا لها بالزنا لا يقربها الا في النادر . فالحال تغريها بطلب الرجال ، وهو بعد هذا كله يحذرها من الخروج والشخوص والاحتكاك بالرجال .[٥] لم يكن الاب يعلم عدد اطفاله ، والى اى محظية او سرية ينتسبون . زعموا ان المتوكل تسرى باثنى عشر الف سرية .[٦] فلكثرتهن لم يعد الرجل يغار عليهن ، ولم يتورع مالك الجارية احيانا من تقبل

---

(١) Levy Sociology of Islam P.114 V.I
(٢) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٤٤
(٣) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥
(٤) نفس المصدر
(٥) ابن قيم الجوزيه ، اخبار النساء ، ص ٤٩
(٦) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ١٣٢

عشاق جاريته في بيته ومنازلتهم اياها . فهذا ابو الشيص الملقب بصريع الغواني ، احب قينة لرجل من اهل بغداد ، فكان يختلف اليها وينفق عليها في منزل مالكها حتى اتلف الكثير من ماله . (١) وهذا الواثق خليفة وامام المسلمين ، اذا شرب وسكر رقد في مجلسه وفعل ذلك ندماؤه ، سكر يوما ونام وقام جميع ندمائه الا مغنى اظهر التراقد ، وبقيت معه مغنية فكتب ورقة ودفعها اليها :

اني رأيتك في المنام كانمـــا ... ارويتني من ريق فيك البـــارد
وكأن كفك في يدى وكأنمـــا ... بتنا جميعا في فراش واحـــد
ثم انتبهت ومعصماك كلاهمـــا ... بيدى اليمين وفي شمالك ساعدى

فأجابته القينة : خيرا رأيت وكل ما ابصرته ... ستناله مني برغم الحاســـد
وتبيت بين خلاخلي ودمالجي ... ويحول بين مراسلي ومجـــاســـدى
فنكون انعم عاشقين تعاطيا ... ملح الحديث بلا مخافة راصـــد . (٢)

وروى ابن ابي طاهر : ان دعى مرة قوما ، وامر جاريته ان تبخرهم ، وكانت تدخل يدها في ثوب بعضهم لتبخرهم ، اطالت مع احدهم وهي تقوم بفعل ، فسألها مولاها ، ما وراء الثياب من وراء ، فاجابت بجواب مضحك ماجن سر مولاها والحاضرين له . (٣) كأنها لم تأت بفعل منكر قبيح . فلعمرى اى ضوء ستلقي هذه المرأة على البيت الذى تنساب في جنباته وما نوع اللبن الذى سترضعه ولدها لا اعرف !! .

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٥ ، ص ١٠٦ نعم
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ ، ابو نواس بالديوان ، ص ٤٨
(٣) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ، ص ٥٥

كانت عادة التسرى بأكثر من واحدة ترافق عادة شراء عدة غلمان ، وكيف يرجى متانة الاخلاق من تلكم الجوارى وهؤلاء الغلمان ! ؟ كيف يمكن الجارية ان تسكن الى رجل قد لا تراه او يراها لاشهر عدة ولا يعلم من امرها شيئا ، وهي بعد، تلك القينة التي فصلنا كثيرا في اخلاقها . فالبعض منهن كن يطلبن الى اسيادهن ان يكون لهن نصيب معهم احيانا ، وكن يتحين الفرص ويتحيلن في هذا المطلب ، فصد الرشيد يوما فارسلت اليه بعض محاظيه قدحا فيه شراب مع وصيفة حسنة الوجه جميلة الطلعة وخطته بمنديل مكتوب عليه :

فصدت عرقا تبتغي صحـــة ... البس الله بـــه العـــافية
فاشرب بهذا الكأس يا سيد ى ... واهنا به من كـــف ذى الجارية
واجعل لمن انفـــذه خلوة ... تحظى بها في الليلة الاتيـــة (١)

فهذه محظية ، ولا بد ان كان لها مكانة لتتجراء وتسأل وتطلب ذلك ، فما بال الاخريات اللاتي لم يكن يتطاولن ويتجرأن ، فكن يرين التعويض في غلمان الدار . فاجاء المتوكل يوما خادما يحمل رسالة الى جارية فتيحة حبيبته :

اكتوى في المحو في الكتاب ومحـ ... ـيه بريق اللسان لا بالبنـــان
ومرى الختام فوق ثنايـــا ... ك العذاب المفلجات الحســـان
انني كلما مررت بحـــرف ... فيه محو لطعته بلســـاني
فاراها تقبيلة من بعـــيد ... اهديت لي وما برحت مكانـــي (٢)

---

(١) الصبحي ، المستطرف ج ٢ ص ١٩٠
(٢) ابن قيم الجوزيه ، ص ١٠٥

فكانت الدسائس والمخاتلات تجرى في القصور ورب البيت ساه لاه لا يفقه معنى لما يدور حواليه ، واشتهرت بهذه العلاقات بعض الشريفات العاليات المراكز ، فعليه بنت المهدى تهادت الاشعار مع طل الخادم ، وحلف الرشيد عليها ان لا تكلمه ولا تسميه باسمه فحرفت اسمه بعد ان حجب ومنع عنها :

ايا سروة البستان طال تشوقي فهل لي الى ظل لديك سبيل

متى يلتقي من ليس يقضى خروجه وليس لمن يهوى اليه دخول

ولما احبت رشاء احد خدمها تغنت فيه وموهت عن اسمه بزينب :

وجد الفؤاد بزينبا وجدا شديدا متعبا

اصبحت من كلفي بها ادعى سقيما منصبا (١)

ولخديجة بنت المأمون في خادم لابيها كانت تهواه كثير من الاشعار والاناشيد الملتهبة غراما وصبابة . (٢)

ومن لم يستطع ان يتحمل مرارة ولوعة الحب ، لعدم رضى مواليه عليه فضل الانتحار ليضع حدا لعذابه ، حدث عبدالرحمن بن اسحاق القاضي وكان منحدرا مع محمد بن ابراهيم اخي اسحق من سر من رأى يريد بغداد ، ودجلة يومئذ زاخرة ، قدم النبيذ وضربت ستاره فغنت جارية من ورائها :

يا رحمتا للعاشقين ما ان ارى لهم معينا

كم يشتمون ويضربون ويهجرون فيصبرونا

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ١٦٤

(٢) الاصفهاني الاغاني ، ج ١٤ ، ص ١١٠ تقدم

فأجابتها اخرى فيعطون ماذا ؟ فقالت يصنعون هكذا . ورمت بنفسها في دجلة ، واذا بغلام يقذف نفسه وراءها وهو يقول :

انت التي غرقتني بعد القضا لو تعلمينا .(١)

معظم هؤلاء الجواري والاماء كن غير عربيات ، تغلب على السنتهن لكنة وعجمة ، وهذا اثر في اللغة العربية التي تكلمها اطفالهن فتدهورت ، واصبح البون شاسعا بين لغة العصر واللغة التي يتكلمها الناس في البادية . قال الشاعر في جارية له لكناء :

اول ما اسمع منها في السمر تذكيرها الانثى وتأنيث الذكر
والسوْاة السوآة في ذكر القمر .(٢)

وقال اسماعيل بن عمار في قينة :

وهاج قلبي منها مضحك حسن ولثغة بعد رائي وفي سين .(٣)

ثم كيف يتربى الطفل ابن القينة او الامة ، التي تناقلتها ايدى ، وضمتها بيوت عدة ، لم يكن دأبها طوال هذه المدة الا تعلم الغوايه ، والعشق والمكر والخداع ، اما انا شخصيا فلا ارقها كثيرا عن البغي في الوقت الحاضر ، سوى ان تلك كانت بصورة شرعية تتناقلها وتقبلها الرجال اما هذه فلا . فأى بيت ومحيط تستطيع هذه الامة ان تهيئ لطفلها ، لا سيما ان كانت بنتا ، فما الفضيلة التي ستلقنها اياها ، وهي لا تعرف ما معنى الفضيلة !! ومن يقرأ الف ليلة وليلة وغيرها من الكتب التي تبيّن الحياة في تلك الاعصر ، يعجب ويشده للمكائد النائية عن الاخلاق التي كانت البنات يقمن بها مع رجل

---

(١) مصارع العشاق ، ص ٢٢ ، النويرى نهاية الارب ، ج ٢ ، ص ٢١٠
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٨
(٣) الأغاني ، ج ١٠ ، ص ١٢٩ تقدم

الشارع او مع اي شخص يحمل صفة الرجولة .

وهكذا كان تاثيرهن او بالاحرى تأثير ذلك النظام الفاسد في كل مرفق من مرافق المجتمع ، اليس من المضحك المبكي ان يستملح الرجال لحن الجواري الظراف والكواعب النواهد ، ويسر الرجل من ذلك جدا لا سيما ان لم تكن الجارية متكلفة ، بل على سجية العجماوات ، وكما استملحوا اللقغاء ، اذا كانت حديثة السن ومقدودة ، فاذا اسنت واكتهلت ، لم يستطرف ذلك منها ، وربما كان اسم الجارية غليم او صبيه وما اشبه ، فأذا صارت عجوز واصبحت ام رجال وبنات فمن القبيح ان تنادى بيا غليم . (١)

برزت الجواري في مجالس ذاك المجتمع بلباس الغلمان ، الذى ابتكرته زبيدة ام جعفر بعد ان رأت شغف ابنها بالاولاد فاتخذت الجواري الجميلات الوجوه ، وعمت رؤوسهن وجعلت لهن الطرز والاصداغ والاقبية ، والبستهن الاقبية ، والقراطق والمناطق ، فبرزت ارداقهن وبثت بهن اليه فاعجبته واجتذبن قلبه وابرزهن للناس من الخاصة والعامة وقلده اهل العصر في هذا وسموهن (بالغلاميـــات) . (٢) وكان للقاهر كثير من هؤلاء الغلاميات فلم يهنأه له مجلس شرب او طرب اوغناء بدونهن . (٣) وهكذا اصبح الظرفاء لا يشربون الا من اكفهن ولا يتغزلن الا بهنّ . (٤)

واذا اعجب بالجارية احد الندماء سرعان ما يهديها له صاحبها ويملكه اياها ، كأنما لم تكن سوى سلعة بسيطة ، سهلة المتناول . (٥)

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٢٤
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٩٩
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ٨ ، ص ٣٠٠
(٤) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٥ ، ص ٣٣٠
(٥) عطف الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٧ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ تقدم ، ياقوت الارشاد ، ج ١ ص ٦٥

اثرهـــن في الســـياسة .

وكثيرات تمكن من قلوب مواليهن ، واصبح لهن من التأثير عليهم بحيث اخذن يتدخلن في امور وسياسة الدولة . كانت المحظية تأتيها رقاع المطالبين والمصادرين ، لتكلم بها الخليفة او الوزير ، وقلما رفض مطلبها . او توانى في امر تنفيذه ، وكم من المرات استشفعن لمن في الحبوس وافرج عنهم ، وصار الى اهله معززا مكرما موصولا . لما حبس المتوكل علي بن الجهم ، وانقلب عليه الجميع وصوروه للخليفة بكل قبيح وشنيع ، لم يلجأ المسكين الى غير قبيحة مدللة المتوكل ومالكة زمام وناصية قلبه ، بعث اليها من محبسه بقصيدة يمدح الخليفة ويذكره بحقوقه عليه وهي :

عفا الله عنك الا حـــــرمة تعود بعفوك ان ابعـــــدا

فاستشفع بظلامته اليها ، فوجهت القصيدة بيد ابنها المعتز الى ابيه ، ضحك المتوكل لدى قراءة الرقعة وقال : اصبح ابوعبدالله ـ فديته ـ خصمكم ، هذه رقعة علي بن الجهم يستقبل ، وابوعبدالله شفيعه وهو ممن لا يرد . (١)

ولما ولي المعتز الخلافة وهو صغير السن ، غلب على الامر النساء (٢) . كان يثوثر اللذات ، عديم الرأى ، تدبره امه قبيحة وغيرها من الخدم ، لذا فسد امره وقهر في سلطانه (٣) وكانت نتيجته ما عرف من القتل والتشنيع ، وعندما طالبوه بالاموال قبل القتل ، بعث الى امه يسألها ويتوسل اليها كيما تخلصه من الموت باموالها ، فانكرت وجود المال وعرضت ابنها للقتل في مقدار خمسين الف دينار ، ومثل هذا كان متوفرا لديها

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١
(٢) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٧٢
(٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٦٥

اذ وجد بحوزتها ما قيمته الفي الف دينار ، منها على رفوف في اسفاط زهاء الف الف دينار ، وسفط فيه مقدار مكوك زمرد نادر الوجود وسفط فيه نصف مكوك حب ثمين جدا وسفط فيه مقدار كيلجه ياقوت احمر .(١) اما السيدة شغب ام المقتدر فكانت الخليفة الحقيقي في خلافة ابنها ، عنها يصدر واليها يرد ، تأمر وتنهي ، تعزل وتقضي ، كتب اليها حامد بن العباس ان تضمن له الوزارة لقاء مال معيّن .(٢) ولاذ بها نصر الحاجب مستجيرا بحرمتها ، عندما سعى به ابن الفرات واطمع المقتدر في امواله ، فاجارته ومنعت عنه الحيف والاذى .(٣) اما ابن الفرات حاول استرضائها دائما ابدا ، واطلق لها في كل يوم خمسماية دينار .(٤) ولم تقصر يد خالة المقتدر في الامر ، فكانت لها حرمتها وكلمتها ، وكم اجارت وكم اطلقت ، وكم لا ذ بها من اكابر الدولة وعظمائها . اجارت ابو جعفر محمد بن يحي بن شهرزاد عندما سعي به عند بجكم وهرب من داره ، اجارته وادخلته دارها ، واقام عندها نحو الشهرين ، حتى قتل بجكم وانتهت محنته فرجع الى اهله مكرما .(٥)

وام موسى جارت واستبدت ، ضاربت الوزراء والامراء في سطوتها ، يقول الكامل ، في سنة ٢٩٨ هـ " جعلت ام موسى الهاشمية قهرمانة دار المقتدر بالله فكانت تؤدى الرسائل من المقتدر وامه الى الوزير "(٦) . ولقد اغرت المقتدر وامه على خلع الوزير علي بن عيسى من منصبه ، دخلت مرة الى مجلس الوزير وهو مجتمع بمؤنس ونصر رئيس الحجاب اجتماعا حربيا لتعبئة الجيوش ضد الفاطميين ، واذا بها تنفجر في مطالبها ، حاول الوزير اقناعها ، بان ما يقدمون عليه اهم بكثير مما جاءت تطلب . لم تقنع ام موسى ولم تهدأ ، بل حفظت الحادث للوزير المسكين في طيات قلبها الاسود ، وفي الزيارة الثانية

---

(١) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ١١ ، ص ١٧١٩
(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٨٢
(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٠٣
(٤) الصابي ، الوزراء ص ٣١
(٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٨ ص ١٣٥
(٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٧

كادت له الكيدة وابعدته عن الوزارة .(١) اتفق ان صارت الى الوزير في ذى القعدة سنة ٣٠٤ هـ لموافق على ما يطلق في عيد الاضحى للحرم والحاشية ، ومن سوء حظ الوزير ان كان محتجبا فلم يجسر خادمه ان يستاذن لها فصرفها صرفا جميلا ، فانصرفت ترعد وتزبد ، ولما استيقظ الوزير بعث اليها بابنه وغلامه يستعذران ولكن هيهات ان ترضى ام موسى ، صارت الى المقتدر والسيدة ولفقت عليه الاحاديث ، فصرفه الخليفة غداة اليوم واعتقل عند زيدان القهرمانة .(٢) وعندما طمع ابن ابي البغل في الوزارة لم ير خيرا من ام موسى لتأخذ بيده وتتوسط الامر لدى الخليفة ، وبالحاحها الشديد على الخليفة والسيدة كاد الامر ان ينفذ لولا تدخل الخاقاني وايقاف الخليفة عن عزمه ، فلم يكن للمقتدر من وسيلة يطيّب بها خاطر ام موسى غير استرضائها بكميات هائلة من الاموال .(٣) ووصل غي ام موسى ، وبلغت منها الجراة ان تحاول نقل الخلافة من المقتدر الى احد اولاد المتوكل ، لتجعل من ابنة اخيها سلطانة .(٤) ولما شعر المقتدر والسيدة بالمؤامرة المدبرة قبض عليها وعلى اختها واخيها وسلموا الى ثمل القهرمانة التي اشتهرت بالشر والعقوبات فاستخرجت منهم اموالا عظيمة وجواهر نفيسة ، ومن الثياب والكسوة والفرش والطيب ما يعظم قدره ، حتى اضطر علي بن عيسى الوزير ان ينصب ديوانا خاصا سماه ديوان المقبوضات عن ام موسى ، ويقال انه حصل منهم الف الف دينار .(٥) وقيل ان السبب في تقليد الخاقاني الوزارة ، ان دستنبويه ام ولد المعتضد بالله قامت بامره مع المقتدر لمائة الف دينار بذلها لها .(٦)

---

(١) Bowen, The life and times of Ali Ibn Isa p. 147-148

(٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٧٣ ، وكذلك الصابي الوزراء ، ص ٢٨٥ ، الى ٢٨٦ ، Bowen p. 151-152

(٣) الصابي ، الوزراء ، ص ٢٧٢

(٤) ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ١ ، ص ٨٣ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ١٠٠

(٥) ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ١ ، ص ٨٤

(٦) الصابي ، الوزراء ، ص ٢٧١

وزيدان المار ذكرها ،كانت عندها حبوس الوزراء والامراء ،لذا احسن اليها الكثير منهم خوفا من ان يصير امره يوما بيدها ،اطلق ابن الفرات لها ضياعا بنواحي كسكر ومستغلات بالبصرة لها ارتفاع وافر .(١) وكانت ممكنة من خزانة الجوهر فاتخذت لها سبحة لم ير مثلها ، وضرب بها المثل في النفاسة فيقال (سبحة زيدان) كما يقال (اشقر مروان) اشتملت على ثلاثين درة متشابهة في الوزن واللون ،كل واحدة منها كبيضة العصفور مفصلة بعشر ياقوتيت ،لم تعرف في عقد ملكة ولا خزانة ملك .(٢)

هكذا لعبت المرأة في بلاط المقتدر وساعدت على انهيار سلطة الخلفاء انهيارا لم يعرف بعده الوقوف او السند ،حتى ضج الناس وعافوا الحالة ،لا سيما عندما اصبح مركز الخليفة قلقا جدا ،يولى ويخلع باسرع سلمح البصر ،فعندما خلع المقتدر سنة ٣١٧ هـ وجيء بالقاضي ليشهد عليه بالخلع قال للمقتدر " يا سيدى يعز علي ان اراك على هذه الحال وقد كنت اخافها عليك واحذرها وانصح لك واحذرك عاقبة القبول من الخدم والنساء " .(٣) وعندما قتل المقتدر واراد مؤنس نصب ولده ابا العباس احمد ليطيب نفس جدته واخوته فتقنع بذا انفسهم عارض ابو يعقوب اسحق بن اسماعيل النوبختي هذا الرأى وقال : " بعد الكد استرحنا معن له والدة وخالة " .(٤)

ولم يقتصر الامر على بلاط المقتدر فقط ،فها هي حسن الشرازية تتولى السفارة بين المستكفي بالله وتوزون ، وتولت سمل المتقي بيد غلامها السندى ،(٥) واشتد امرها في الدولة بحيث سابقت العيارين والشطار في كبس منازل التجار والاستيلاء على اموالهم .

---

(١) الصابي ،الوزراء ، ص ٣١
(٢) الثعالبي ،ثمار القلوب ،ص ٥٠٥ وكذلك ص ٥٥٤
(٣) ابن الاثير ،الكامل في التاريخ ،ج ٨ ،ص ١٤٨
(٤) ابن مسكويه ،تجارب الامم ،ج ١ ،ص ٢٤٢ وابن الاثير بالكامل في التاريخ ،ج ٨ ،ص ١٨١
(٥) متز ،الحضارة الاسلامية ،ج ١ ،ص ٢١

قال صاحب كتاب العيون والحدائق : " لما تمت للمستكفي الخلافة غيّرت حسن الشيرازية اسمها وجعلته علما وصارت قهرمانة للمستكفي ،فاستولت على امره كله ... وصارت تكبس منازل التجار والمستورين فتحوز ما تجده لنفسها ، وانبسطت يدها حتى صارت تأخذ اموال الناس التي لا شبهة فيها . وجاء ايضا ، انحدر ابن شيرزاد الى دار توزون فاستغاث اليه خلق من تجار الكرخ وذكروا ان حسن القهرمانة كبست بعض التجار فاخذت منه متاعا كثيرا من بز وغيره ،ما قيمته ثلاثون الف دينار ." (١)

زينـــة المـــــرأة .

كان الطيب من متممات زينة المرأة ،فاستعملن ما ليس للرجال فيه نصيب كاللخالخ والصندل والصيّاح والقرنفل والساهرية والاذقال والمعجونات والزعفران والخلوق وماء الخلوق والكافور وماء الكافور والمثلثة الخزائنية والبرمكية السلطانية وسائر صنوف الادهان من البنفسج والزنبق والبان ،الا انهن اجتنبن استعمال الترشام ،والنساء يستطعن استعمال جميع زى الرجال في الطيب ،اما الرجال فلا يستطيعون . (٢)

وكان الزعفران من اهم مواد الطيب والزينة ،تمدح به النساء الحسان . (٣) وما لبثت النسوة ان اتخذنه لطلاء وجوههن وربما سمي هذا الطلاء الغمرة وفي الامثال : من خدع بالغُمرة وقع في الغَمرة ـ اى في الشدة والمكروه ،يروى ان ابن عبدل تزوج بهمدانية فلما دخل بها كرهها فقال :

---

(١) ابن مسكويه ،تجارب الامم ،ج ٢ ،ص ٧٥ (في الهامش)
(٢) الوشاء ،الموشى ،ج ٢ ،ص ١٢٧
(٣) الزيات ،الديارات ،ص ٣٥ .

واني قد دللت على عجـــوز مبرقة مخضبـــة البنان

تغض جلدهـا ، واخضر ، الا اذا ما ضرجت بالزعفران

ولذلك قيل " اهلك النساء الاحمران : الذهب والزعفران " [1] وربما سمي الزعفران (عطر العذارى) . قال ابن مقلة الوزير وقد تلطخت يده بالمداد :

انما الزعفران عطر العـــذارى ومداد الدوى عطر الرجال [2]

ولكن هذا لا يعني ان الرجل لم يتطيب به ، لا بل ان النساء اكثرن من استعماله بينما الرجل استعمله احيانا . ودخل الزعفران في تركيب ماء الخلوق ، نوع من الطيب مائع اعظم ما فيه الزعفران ، تتطيب به النساء كثيرا . والغالية مزيج العنبر والمسك ، واحب ما تستعمله المرأة . وعمل لام جعفر غاليه سميت (غالية العنبر) [3] . اما الآس والدهن فكانا طيب الفقراء [4] .

استعطن الكحل ، لكحل العيون وجعلها سوداء قاتمة تنفذ في القلوب ، اذ كان سواد العيون مما يتغنى به . وحمل الكحل من اصفهان للسلطان [5] .

استعطن الامشاط في تسريح شعرهن ، وكانت الامشاط الفائقة الجودة والصنع ترد من الري [6] . وفضلوا الامشاط المعمولة من الصندل لان ريحته طيبة ، والشعر سريع لقبوله ، وينقي سمك الشيب [7] . واخذن المرايا للتفرج على كمال زينتهن ، واستعملها الرجال ايضا . يقول الثعالبي انه اهدى الى المعتز في يوم نوروز مرآة خسروانية

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١١٧
(٢) ابن الجوزي ، الظراف والمتماجنين ، ص ٥٣
(٣) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٦٩
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٩٤
(٥) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٧
(٦) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٨
(٧) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٥

في نهاية الحسن ،قال فيها المهدى : اهديتها ليذكرني بها اذ رأى حسن وجهه فيها[1] ومن المرايا الجميلة المحلاة .[2] وكان اهل شيراز احذق الناس بصنعها .[3]

---

(١) الثعالبي ،خاص الخاص ،صفحة ٣٩
(٢) التنوخي ،نشوار المحاضرة ،صفحة ١١٥
(٣) ابن الفقيه ،مختصر كتاب البلدان ،صفحة ٢٠٤

الفصـــــــل الثالـــــــث

تأديـــــب الاولاد

جرت العادة في البيوت ان يؤتى بالمراضع كي يتعهدن الاطفال ، وتصير المرضع في دار مواليها باحسن حال ، ويصل اليها منهم الخير العظيم ، وكذلك لابنها الرضيع.[1]

وبعد ان يترعرع الطفل ويصبح قادرا على مسك القلم وتعقل الالفاظ ، كان يحضر له مؤدب يعلمه الخط والحروف ثم الاجزاء القصيرة من القرآن.[2] لان القرآن كان اول ما يجب ان يتعلمه الصبي.[3] واذا ما كبر الطفل وتقدمت سنه ، كثر اهتمامهم بمؤدبيه ، فيطلبون له المعلمين المهذبين منهم . وقد يمتحنونهم احيانا ليكونوا على ثقة من منزلتهم العلمية.[4] قال الجاحظ " ذكرت لامير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فامر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ."[5]

طلبوا المعلمين الفقهاء الخطاطين ، ليأخذ الولد عنهم اصول الخط.[6] لان الخط عد يومئذ من الفنون الجميلة . ولم يغفل عضد الدولة عن تأديب اولاده بالرغم مما كان لديه من مشاكل الدولة وسياستها فهو " يقسم ايامهم بين اداب البراعة والشجاعة واوقات الجد واللعب والاقتصاد فيما يجرى بينهم من الترافه والتهاجر ، وتهذيب من يلوذ بهم ويكون في جملتهم ، فان الاخلاق بالممازحة تعدى وبالمهاجرة تسرى "[7]

---

(١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٣٩
(٢) الف ليلة وليلة ، ج ٢ ، ص ٥٦١
(٣) ابن الجوزي ، الحمقى والمغفلين ص ١٠٩ - ١١١
(٤) ياقوت ، الارشاد ، ج ١ ، ص ٢٢١
(٥) المسعودي ، مروج الذهب ج ص ٢٢٣-٢٢٤
Grunebaum , Med. Islam P. 218
(٦) الف ليلة وليلة ، ج ٢ ، ص ٥٦١
(٧) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٣ ص ٧٠

ويجبرون صبيانهم ان يرددوا الارجاز ويتعلموا المناقلات ويأمرونهم برفع الاصوات وتحقيق الاعراب .[١] وتعلم السباحة في الانهر .[٢] كان الحجاج يوصي مؤدب بنيه بقوله "علمهم السباحة قبل الكتابة ،فانهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم ."[٣]

ان تعليم الاولاد كان احسن من تعليم البنات اذ يقول ابن الاخوه من واجبات المؤدب " الا يعلم الخط امرأة ولا جارية فقد ورد النهي بذلك لقوله صلعم لا تعلموا نساءكم الكتابة ولا تسكنوهم الغرف ،ولكن علموهن سورة النور وقيل ان المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سما ."[٤] لم يكن هناك طريق للتعليم العام ،بل ان التعليم العالي والتعمق في الحديث والفقه وعلم الدين اختص بدراسته من كان يفكر في ان يكون قاضيا او اماما في المستقبل .[٥] وكثيرون ارسلوا اولادهم في اسفار طويلة كي يأخذوا عن علامة او شهير . ففقيه بلاد قوص بعث بابنه الى الخوارزمي ليدرس عليه .[٦]

واطلق الاب او الوالي للمؤدب حرية تأديب ابنه من قصاص وتوبيخ الى ضرب اذا اقتضى الحال .[٧] كان لشريح القاضي ولد يكثر البطالة ،فنظر اليه والده يوما وهو يهارش بكلب له ،فكتب له رقعة الى معلمه :

ترك الصلاة لاكلب يسعى بهـــا طلب الهراش مع الغواة الفواحش
فاذا اتاك فعضه بملامة او عظه موعظة الرفيق الاكيس
واذا همت بضربه فبدرة واذا ضربت بها ثلاثا فاحبس

---

(١) الجاحظ ،البيان والتبيين ،ج ١ ،ص ٢٢٤
(٢) الجاحظ ،البيان والتبيين ، ١ ،ص ٣٠٢
(٣) ابن قتيبه،عيون الاخبار ،كتاب النساء ،ج ٤ ،ص ١٦٦
(٤) ابن الاخوة ،كتاب الحسبة ،ص ١٧١ تالى ١٧٢
(٥) Grunebaum, Med. Islam P. 67
(٦) الخوارزمي ،الرسائل ،ص ٨٨
(٧) ابن الاثير ،الكامل في التاريخ ،ج ٨ ،ص ٤

وليحملن مني اليك صحيفة نكراء مثل صحيفة المتلمس
واعلم بانك ما اتيت فنفسه مع ما يجرعني اعز الانفس

فضربه المعلم عشرا وعشرا اخر ،فقال له شريح : لم ثنيت عليه الضرب ؟ فقال : العشرة الاولى للبطالة ،والثانية للبلادة حيث لا يدرى ما يحمل" .(١) وعلى المؤدب ان ينتبه الى سلوك تلميذه ويمنعه من لعب الكعب والبيسر والنرد وجميع انواع القمار او اهانة الناس بالكلام البذئ والتصرف الدنئ ، محاكيا العوام والسوقة .(٢)

اما الذين لم يكونوا من الغنى لاحضار المؤدبين الى البيت ،بعثوا باولادهم الى الكتاب .(٣) قال ابو الجهم حبسني ابي في الكتاب ،فكتبت الى امي :

يا امنا افديك من ام اشكو اليك فظاظة الجهم
قد سرح الصبيان كلهم وبقيت محصورا بلا جرم .(٤)

وارسال الصبيان للكتاب امر لا بد منه كي يتعلم الطفل دينه وقرآنه ،هذا الى جانب القراءة والخط والكتابة والحساب .(٥) قالت الحكماء :من ادب ولده صغيرا سر به كبيرا وقالوا : اطبع الطين ما كان رطبا واعمد العود ما كان لدنا ،وقالوا : من ادب ولده غم حاسده ،وقال الشاعر : اذا المرء لعبته المروءة ناشئا فمطلبها كهلا عليه شديد .(٦)

---

(١) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،ج ١ ،ص ٢٧٧
(٢) ابن الاخوه ،كتاب الحسبة ،ص ١٧١ ، Grunebaum, Med. Islam P. 218.
(٣) الطبري ،الرسل والملوك ،ج ١٠ ،ص ١٠٨٣
(٤) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ١٠ ،ص ٢١٧
(٥) ابن الاخوة ،كتاب الحسبة ،صفحة ١٧٠ ، Grunebaum, Med. Islam P. 218.
(٦) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،ج ١ ،ص ٢٧٢

وقال بعضهم : التعلم في الصغر كالنقش في الحجر . وقيل لرئيس اختلف ابنه الى الكتاب :

يا عارضا يروى الثرى غيثه ومنهلا يشفى الصدى مورده

اقعدت في الكتاب من لم يكن يضره انك لا تقعـــــــده

انت ابوه فهو ينمي الـى كتابة يوجهها محـــــــتده

ان شئت علمه وان شئت لا لا بد ان تحكى اباه يده (١)

والظاهر ان يوم الجمعة كان يوم عطلة ، لذلك كانوا يستثقلون يوم السبت ايما استثقال ، وكان يضرب بذلك المثل " اثقل من يوم السبت على الصبيان ".(٢)

والمدرس يقبض اجرة على عمله .(٣) وكانت الاجرة احيانا رغفانا من الخبز ، وهذه تتفاوت بالنسبة لغنى التلميذ ومقدرة اهله في الجود والبخل ، كما قال من هجا الحجاج ، وذكر انه كان معلما :

اينسى كليب زمانا مضى وتعليمه سورة الكوثر

رغيفا له فلكة ما تـرى وآخر كالقمر الازهر .

وانشد الجاحظ للرقاشي في ذكر معلم :

مختلف الخبز خفيف الرغيف منتشر الزاد لئيم الوصيف .(٤)

وكان التلميذ المجتهد يحظى بنصيب اكبر من عطف المؤدب ، ويكتسب معلومات وتجارب اكثر من رفاقه .

وكانت المدارس الابتدائية المتصلة بالجوامع تعمل كعمل الكتاتيب في الوقت الحاضر في العالم الاسلامي . حيث يدرس القرآن فيها دون ما تفسير او تعليق عليه ، وكذلك تعلم الصلاة .(٥)

---

(١) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٨٢
(٢) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ٥١
(٣) اليهقي ، المحاسن والمساوئ ، ج ٢ ، ص ٢٢٦
(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٦٤
(٥) ابن الاخوة ، كتاب الحسبة ، ص ١٧١ ،
Levy, A Baghdad Chronicle P. 67

لم يسمح للصغار التعلم في المساجد والجوامع عملا بوصية الرسول في ان هذه المحلات المقدسة يجب ان لا يدخلها الصغار ولا المجانين الذين قد يحملون الحيطان ويوسخون الارض.(١)

اثرى بعض هؤلاء المعلمين وكسبوا مالا جزيلا كالكسائي مثلا.(٢) اما ابن حفصويه ابو الفتح الاديب المروزى الصدقي من اهل مرو، كان اديبا فاضلا عارفا باصول اللغة حافظا لها، رزق من التلامذة مالا لا يوصف وصار اكثر اولاد المحتشمين تلامذته.(٣)

بالرغم من ان المعلم يتطلب فيه الحكمة والتعقل في الامور، كان بعضهم يصل به الغي وقلة العقل الى درجة ان يجلس ابناء المياسير والحسان الوجوه في الظل ويقعد الآخرين في الشمس، ويقول: يا اهل الجنة، ابرزوا في وجوه اهل النار.(٤) ويتطلب من المدرس ان يكون شريفا، عفيفا، امينا، حافظا للقرآن، خطه جميل وله معرفة في علم الحساب، والاولى ان يكون متزوجا، ولا يفسح لعازب ان يفتح مكتبا لتعليم الصبيان الا ان يكون شيخا كبيرا قد اشتهر بالدين والخير، وعليه الرفق بالاطفال. وان لا يضربهم الا عند الضرورة، وان لا تكون عصاه تخينة بحيث تكسر عظامهم ولا رفيعة لا تؤثر في اجسامهم، بل وسطا.(٥) كما ينبغي ان لا يستخدمهم في خدمته الخاصة وان يكون القائد الامين، يتسلمهم في الغدو والرواح.(٦) ولا زال الملّة "وهذا لقبه" بلحيته الطويلة وعمامته وعصاه يرى سائرا في شوارع بغداد وازقتها القديمة في جيش من الاطفال بناتا وصبيانا، عند الصباح وفي المساء ذاهبين للكتاب ام قافلين منه والكل يردد آيا من الجزء الحكيم.

---

(١) ابن الاخوة، كتاب الحسبة، صفحة ١٧٠
(٢) ياقوت، الارشاد، ج ٥، ص ١٩٨
(٣) ياقوت، البلدان، ج ٥، ص ٣٠٤
(٤) ابن قتيبه، عيون الاخبار، كتاب النساء، ج ٤، ص ٣٩
(٥) ابن الاخوة، كتاب الحسبة، ص ١٧١، Grunebaum, Med. Islam P. 218
(٦) نفس المصدر

ويزور المحتسب المدارس دائما ليتأكد من ان المدرسين لا يضربون تلامذتهم اويسبون لهم اذى مؤلما .(١) كذلك يتأكد من باع المدرسين في مجهودهم العلمي ان كانوا كفوئين للمهنة التي يعملون فيها ، لانهم سينشئون جيل المستقبل ، فالذى لا تتوفر فيه شروط العلم يمنع من المهنة .(٢) وكان على معلمي الصبيان ان يسألوا اولاد الجند الذين في مكاتبهم عن امور اباءهم ومتصرفات احوالهم في منازلهم ويكتبون بذلك الى ديوان البريد ويعلمهم معاش مقابل عملهم هذا .(٣)

وكثيرا ما كان هؤلاء المعلمون مثار سخريه الناس . قيلت فيهم نوادر كثيرة ، قال الجاحظ " مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال : عندى صغار اوباش فاقول لاحدهم اقراء لوحك فيصفر لي بضرطة فاضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فاضربه بالعصا الطويلة فيفر من بين يدى ، فاضع الكرة في الصولجان واضربه فاشجه فتقوم الي الصغار كلهم بالالواح فاجعد الطبل في عنقي والبوق في فمي واضرب الطبل وانفخ في البوق فيسمع اهل الدرب ذلك فيسارعون الي ويخلصوني منهم " .(٤) ولقد وجه للجاحظ تهم كثيرة في خصومته للمعلمين ، قال الجاحظ ان كان قد الف كتابا في نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل ، ولكنه امسك عن ذلك لصاحبته معلما رزينا عاقلا مثقفا ، لا ينقصه شيئا من العلم والاخلاق ابدا حتى انه هم بتمزيق الكتاب بسببه . طرقه يوما واذا الكتاب مسدود فقيل له : انه حزين لموت احد اقربائه . فذهب الى بيته يعزيه ، ويسأله عن المتوفي رحمه الله ، ان كان ابنه او اخاه او زوجته ، اوابن عم اوصديق ، فكلما سأله النسبة اجاب المعلم بلاء . حتى قال

---

(١) Levy, Sociology of Islam, P. 369-370 V.1
(٢) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٢١
(٣) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٣ ، ص ٥٩
(٤) الابشيهي ، المستطرف ، جزء ٢ ، ص ٣٠٢

هي حبيبتي ، ولم ارها ولم تراني ، بل كنت قد سمعت شخصا ينشد :

يا ام عمرو جزاك الله مكرمـــة ردى علي فوآدى اينما كانـــا

لا تأخذين فوءادى تلعبين بـــه فكيف يلعب بالانسان انسانـــا

واليوم مر الرجل بعينه وهو يغني :

لقد ذهب الحمار بام عمـــرو فلا رجعت ولا رجع الحمـــار .(١)

حينذاك لم يستطع الجاحظ السكون على سخافة وقلة عقل المعلم الذى وضع عظيم ثقته فيه طوال مدة مصاحبته له ، قام عنه وابتعد هاربا ، ليخلو بنفسه ويتم كتاب التنديد بالمعلمين . كذلك قال الجاحظ " لا يقبل شهادة المعلمين " وكان بعض الفقهاء يقول : النساء اعدل شهادة من معلم .(٢)

لا شك في ان معظم هذه القصص والحكايات ملفقة ، وليست للجاحظ ، انما فيها شئ من روحه التهكمية الفكهة ، تعطي صورة عن الفكرة نحو المعلم يومئذ . ومن امثال العامة في المعلمين (لا تستشر معلما ولا راعي غنم) . ومنها ايضا في فساد عقل المعلمين وجنونهم :

معلم صبيان يروح ويغتدى على انفه الوان ريح فسائهم

وقد افسدوا منه الدماغ بفسوهم ورفعهم اصواتهم في هجائهم

واقذع الجاحظ بذمهم عندما اشار الى صقلان المعلم :

وكيف يرجى العقل والحزم عند من يروح الى انثى ويغدو الى طفل

وانشد لغيره في المعنى نفسه :

متى يأت المعلم يوم خيـــر ولم يعرف سوى انثى وطفل .(٣)

---

(١) الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣
(٢) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين ، ص ١٠٨
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٩٤

الباب الثاني

مستوى المعيشة

الفصل الاول

١) لمحة مختصرة في حياة بغداد في القرن الرابع الهجري

٢) الاسعار - ٣) المهن والحرف - ٤) النفقات - ٥) الدخل .

الفصل الثاني ..... البيوت

١) مواد البناء - ٢) شكلها - ٣) مرافقها - ٤) معاملات البيوت - الايجار - التهاني بالبيت الجديد - ٥) وسائل الراحة - ٦) تأثيث البيوت - ٧) صورة لبيوت الاغنياء ، متوسطي الحال والفقراء .

الفصل الثالث ..... الملابس .

١) انواع الاقمشة - ٢) شكلها ووصفها - ٣) للمرأة وللرجل - ٤) تنوعها حسب المناسبة .

الفصل الرابع ..... الطعام .

١) الخضروات والفواكه - ٢) اعمدة الغذاء - ٣) كتب الطبيخ - ٤) الطبخات المعروفة يومئذ - ٥) الحلوى وانواعها - ٦) آداب الطعام والموائد وما يتداول من الكلام حين الاكل .

الباب الثاني

مستوى المعيشة

الفصل الاول -

لمحة مختصرة عن حياة بغداد في القرن الرابع الهجرى .

بغداد ، دار السلام ، دار النهى والفن ، والغنى والترف . بسمة العصر العباسي ، وحاضرة العالم المعروف وقتئذ ، صاغها مخيلة المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ وابدعت فيها انامل الخلفاء بعده ، فالبسوها القشيب من الحلل والفاخر من الابهة والعظمة ، افتتنت وفتنت ، اشتعلت فاضاءت المسالك والممالك فقصدها المعجبون والمغرمون بكل فن مستملح او خبر مستظرف ، وسرعان ما اصبحت كعبة الطالب والمستزيد ، ملفت المغامر والصياد ، فقال فيها الشعراء وتغنوا :

بغداد سقيا لك من بلاد ... يا دار الانس والاسعاد

بدلت منك وحشة البوادى ... وقطع واد وورود واد .(١)

" بغداد القرن الرابع الهجرى " كانت محط الانظار وملتقى القصاد من كل فج ، يلقى النازل فيها الوانا من الحياة ، يلقى الهوى والحب والامل المنشود . خلع العذار فيها لا يكلفه كثيرا ، وسرعان ما يضيع بين جموعها الزاخرة من المجان وطلاب اللهو . قال ابو حيان التوحيدى " وقد احصينا ونحن جماعة في الكرخ " اربعمائة وستين جارية

---

(١) البغدادى ، تاريخ بغداد ، جزء ١ ، ص ٦٢

في الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط في وقت ، او ثمل في حال ، وخلع العذار في هوى قد حالفه واضناه ، وترنم واوقع وهز رأسه ، وصعد انفاسه واطرب جلاسه واستكتمهم حاله ." (١)

كانت العمارة في هذا العصر قد عمت جانبي دجله على السواء ، اعني الكرخ والرصافة ، القسمين الذين يكونان " بغـــداد " .

ما بين قطربل فالكرخ نرجســـة تندى ومنبت خيرى ونسرين
تحيا النفوس بريا ها اذا نفحـــت وخرشت بين اوراق الرياحين
سقيا لتلك القصور الشاهقات ومـا تخفي من البقر الانسية العين . (٢)

حتى ان بعض الصالحين كان اذا ذكرت عنده بغداد تمثل بابيات ضدها لما عاينوه فيها من الفجور والظلم والعسف :

قل لمن اظهر التنسك في النـا س وامسى يعد في الزهـاد
الزم الثغر والتواضع فيـــــه ليس بغداد منزل العبـاد
ان بغداد للملوك محـــــل ومناخ للقارئ الصيـــاد . (٣)

لم يكن العصر ، عصر لهو ومجون فقط كما يبدو للقارئ عند اول وهلة ، بل عصر تبلورت ونضجت فيه الحياة العقلية عند العرب ، وآن نضوج ما بذره الاولون في القرون الثلاثة التي سبقت هذا العصر ، فعمرت مجالس الادب والمجادلات العلمية ، وامها الناس من كل قطر ومصر للاستماع الى فحولها والاخذ عنهم .

---

(١) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ، ص ١٨٣
(٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٨
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤١

كل هذه العوامل ساعدت في حركة الحياة الاقتصادية . راجت التجارة بين عشاق المال ، واخذوا يكدسون الدنانير والذهب :

ويا جنة الدنيا ويا مجتنى الغنى ومنبسط الامال عند المتاجـــر . (١)

مما ادى الى ارتفاع مستوى المعيشة ، ارتفاعا لم تشهده بغداد من قبل ، وزخرت شوارعها بالمارة من مختلف الانحاء ، فعمرت اسواقها ، وكثرت بضاعتها ، وفخمت قصورها . هذه بغـــداد ايام المقتدر ، قد كبرت عما عرفها الخلفاء الاسبقون ، وكثرت فيها الشوارع والدروب ، وعلت ابنيتها على الطرقات ، كانت متلاصقة الدور والمساكن ، قال ابو الحسن بشر بن علي بن عبيد النصراني الكاتب : " كنت اجتاز بالكبش والاسد مع والدى فلا اتخلص في اسواقها من كثرة الزحمة . " (٢) وكان عبدالملك بن صالح العباسي اتى بغداد فرأى كثرة الناس بها فقال " ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد نودى فيهم " (٣) ومن العسير يومئذ ان يطلب شيء الا وجد فيها ، مهما قل وغلا وندر . يقول ابن الرومي :

وعندهم كل ما اشتهوه من الا كال والاشربات والاشـــواب

والطرقات والمراكب والولـــــــــدان مثل الشوادن الاسراب

واليلنجوج في المجامر والنـد ترى نشره كمثل الضبـــاب

والغوالي وعنبر الهند والمســـــــك على الهام واللحى كالخضاب

ولديهم وذائل الفضض البـــــيض تباهى سبائك الاذهـــاب (٤)

قيل لرجل كيف رأيت بغداد ؟ فقال : " الارض كلها بادية ، وبغداد حاضرتهـا " (٥)

---

(١) ياقوت ، البلدان ، جزء ٢ ، ص ٢٣٨
(٢) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٧١
(٣) ياقوت ، البلدان ، جزء ٢ ، ص ٢٣٩
(٤) ابن الرومي ، الديوان ص ٤٥٠ ـ ٤٥١
(٥) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٢ ، ص ٤٤

اما الشافعي فقال : " ما دخلت بلدا قط الا عددته سفرا ، الا بغداد فاني حين دخلتها عددتها وطنا . " اما ابو بكر بن عياش فيقول " ومن لم يرها لم ير الدنيا ".(١)

ووصف ركن الدولة بغداد فقال : " واحصي فيها من الحمامات فكانت عشرة الاف .. وعدد كبير من الناس والسفن والملاحين ، وما يحتاج اليه يوميا من الشعير والحنطة والاقوات ، .. واحصي ما يصل الى اصحاب المعابر فيها من الثلاجين في كل يوم اربعون الفا او ثلاثون الفا . "(٢)

ونتيجة لهذا النوع من الحياة اصبح من المتعذر او العسير جدا على متوسطي الحال ان يشقوا لهم طريقا في وسط بغداد الفاحش الغلاء ، حتى قيل :

يحتاج باقي المقام بينهم ... الى ثلاث من بعد تشريب

كنوز قارون ان تكون لـه ... وعمر نوح وصبر ايـــوب .(٣)

وقال آخر : بغداد ارض لاهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق .(٤)

صرف فيها مقادير هائلة من الطعام ، مثلا كان "ما يتخذ في سوق من الاسواق من سويق الحمص في كل سنة ، وكان مبلغه مائة واربعون كرا ، وانه يخرج في كل سنة منهم حتى لا يبقى منه شيء ، فاذا حال الحول طحنوا مثل ذلك " . وكما لا يخفى ان سويق الحمص هذا غير طيب وانما يأكله الضعفاء والمتجملون شهرين او ثلاثة من السنة عند انعدام الفواكه ، واضعافهم من الناس لا يأكل ذلك اصلا ... وكان في كلواذى وقطربل حوالي الفي جريب خس ، كل جريب خس يزرع فيه ستة ابواب ، كل عشرين خسة

---

(١) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٢ ، ص ٤٦ ـ ٤٧
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٦٥ ،
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٣
(٤) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤١

بدرهم ، فالجريب خمسة وعشرون دينارا لالفي جريب خمسون الف دينار ، كل ذلك يؤكل ببغداد ، فهذه كانت بغداد التي يؤكل فيها في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار . (١) وشكا بقال في البصرة منفرد عن السوق قلة المحصول والمعاش ، وذكر ان كان يشترى من دكانه في كل سنة عشرة مكاكي خردل دون باقي الحوائج ، وفي تلك السنة بقي من مكوكي الخردل بقية . (٢)

فازدهار بغداد ، ونشوء مركز حضارى جديد ، وارتفاع نسبة السكان ، زاد الحياة اضطرابا فيها . وهذا ليس بالنسبة لبغداد فقط ، بل بالنسبة لجميع المدن الكبرى في ذلك الوقت كاصفهان مثلا . اذ كان في هذه المراكز العظيمة للحضارة ممثلون لجميع الحرف يتناقشون فيما بينهم للتفوق . لذا اضطر الرجل ان يكابد الاهوال ، ويلقى المشقات في جمع ثروته ، لان المسابقة في محيط كهذا تتطلب المهارة والجلد ، يقول خالد بن يزيد (خالويه المكدى) في وصيته لابنه : " اني قد بت بالقفر مع الغول ، وتزوجت السعلاة ، وجاوبت الهاتف ، ورقيت عن الجن الى الجن ، واصطدت الشق ، وجاوبت النسناس ، وصحبني الرئي ، وعرفت خدع الكاهن ، وتدسيس العراف ... والخ ، من معاناة ركوب البحر او من عمل السلطان او من كيمياء الذهب والفضة . " (٣) لا شك ان في هذه الوصية كثيرا من المبالغة والخرافات ، ولكنها تلقي بعض الضوء على ما كان يتحمله التاجر من الامور في اسفاره ، وقطعه الفيافي العامرة باللصوص ، وقطاع الطرق ، هذا بالاضافة الى صعوبات السفر على ظهور الدواب . اما في البحر ، فالسفن البسيطة كثيرا ما تلاعبت بها امواج البحر وجعلتها اثرا بعد عين في اعماق المياه . والذى ساعده الحظ وضحكت له الدنيا بملء فيها ، اتخذ من بغداد موطنا ، فاشترى الضياع واقتنى الجوارى ، وركب الفاره من الدواب وكأنه خلق لبغداد ، وبغداد وجدت لتضمه ويؤنسه جوها العبق . وكم تأفف الناس من بعض هؤلاء

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٦٥ ــ ٦٦
(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ج ١ ، ص ٢٣٨
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٧٤

النزلاء الحديثي النعمة فقالوا :

ما ان يزال ببغداد يزاحمنـــا على البرازين اشباه البرازين
اعطاهم الله اموالا ومنزلـــة من الملوك بلا عقل ولا دين
ما شئت من بغلة شقراء ناجية او من اثاث وقول غير موزون . (١)

ان هذا الشعر على الاكثر قيل في الاتراك الذين ملأوا العاصمة وقام لهم النفوذ واثروا الثراء الفاحش . وانتقد بعضهم اهل بغداد بأنهم اهل مال وثروة ، وليس لهم شعور متبادل بين بعضهم البعض . فيقول :

بغداد دار طيبها آخذ نسيمها مني بانفاســـي
تصلح للموسر لا امـــرئ يبيت في فقـر وافـــلاس
لو حلها قارون رب الغنـــى اصبح ذاهم ووســـواس
هي التي توجد لكنهـــا عاجلة للطاعم الكـــاس
حور وولدان ومن كل مـــا تطلبه فيها ســـوى النـاس . (٢)

لا ادرى ما الذى يعني في الشطر الثاني من البيت الاخير (كل ما تطلبه فيها سوى الناس) فلو قصد بذلك لطفهم ، فأظن بأن حكمه ليس بالصحيح ، لان الظرف تجلى يومئذ في بغداد وبين اهل بغداد . (٣) فهذه كتب الادب والتاريخ والجغرافية تفيض بصور مختلفة لنهاية ظرف وطيبة اخلاق البغداديين ، فهم كرماء حسنو الجوار ، يهيبون من دون ما مقابل ، يمكن ائتمانهم على الانفس والاموال ، وبعد هذا كله كيف يوصمون بما وصموا به لا ادرى !! وقد يمكن وجود بعض الناس العديمي المروءة وهذا امر منتظر في اكبر حاضرة في العالم يومئذ ، قصادها كثيرون ، وسكانها متباينون ، فمن عزيز النفس ، الى حقيرها ،

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٩٣
(٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٥
(٣) البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٥٠

ومن كريم الاخلاق الى دنيها ، ومن فقير وغني . كل هذه المتناقضات سهل وميسور رؤيتها في بلد المقتدر يومئذ ، " لذا اختلفوا في نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، واللباب من كل شكل ، التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم في المجلس ومواقع اسمائهم في العنوانات ، وما يستقبلون به من التحيات ، فمن شاء اطعم كلبه الدجاج المسمن ، واعلف حماره السمسم المقشر . "(١)

وكما مر بنا سابقا ان بغداد حوت كل مطلب ومزيد ، وكان الله قد افاض من نعمه الكثير على اهاليها ، فهذه دجلة خراجها ثمانية الاف الف وخمسمئة الف درهم .(٢)

قال الاصمعي : سمعت الرشيد يقول : " لو نظرنا فاذا كل ذهب وفضة على وجه الارض لا يبلغ ثمن نخل البصره "(٣) لذا كانت البصرة معروفة بكثرة خيراتها ودوام الرخص فيها . ولما بيع الجدى في البصرة مرة بعشرة دراهم استنكر الناس الثمن .(٤)

الاســـــــــعار .

اما اسعار المواد المختلفة فاختلفت بالنسبة لندارتها ، وكثرتها في منطقة دون الاخرى . يقول المقدسي " اشترينا الخبز فيها ثمانية امناء بمنهم بدرهم واللحم والجوز وسائر الفواكه بها رخيص ."(٥) بينما في واسط بيع كوز الزبد بدرهمين واثنى عشر دجاجة بدرهم ، واربعة وعشرين فروجا بدرهم .(٦) وفي كرمان حيث الثمر بها كثير ، وربما بلغ بها

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٨ .
(٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ٧
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٠٥
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٦٨
(٥) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٣٩٠
(٦) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢١٥ (في الهامش ، عن ياقوت)

كل مائة من بدرهم . (١) وكان الخوخ يباع في اول موسمه كل ستة بدرهم ، ولم يقتصر بيعه على المثرين فقط لا بد كان يشتريه العوام ، بينما في موسمه تباع المائتين خوخة بدرهم . (٢) ويبع رطلا الخبيص بحبة ، والدبس الرطل بحبة ، والشيرج الرطل بقيراط . (٣) وكل عشرين خسه بدرهم واحد . وثمن الجامة خمسون درهما وخمسة دنانير واقل ام اكثر على قدر كبر الجام . (٤) كذلك اشترى اللحم ، البصل ، الباذنجان ، القرعة ، والجزر كل بدانق . (٥) وكان يكفي عائلة متوسطة في اليوم من اللحم ما ثمنه نصف درهم فان غلا فبدرهم (٦) وكان كر الارز بالنصف يساوى ثلاثين دينارا . (٧)

ان الامور لم تبق هادئة بل اضطربت الاحوال وازدادت المشاغبات ، وارتفعت اسباب المعيشة ، الى درجة لا يصدقها العقل ، فلغتنمها البعض واصبحوا من الموسرين المرموقين . يحكى ان عزّ الثلج في بعض السنين ببغداد وقل ، وكان عند ابن سليمان الثلاج حوالي خمسة ارطال ثلج قد بقيت لديه ، فارسل عبيدالله بن طاهر وهو اذ ذاك امير بغداد ليشترى ثلجا لجاريه عزيزة عليه ، كانت مريضة وقد وصف الثلج لشفائها . فلما علم الثلاج الامر رفع قيمة الثلج فباع الرطل الاول بعشرة الاف درهم ، وجاؤا يسألونه عن رطل ثاني وثالث ورابع بنفس القيمة ، اما الخامس فلم يقبد به الا عشرين الفا . (٨)

قد يكون ارتفاع الثلج من باب الصدفة ، اما ارتفاع غيره من المواد فهو الواقع الحقيقي . اشترى السكن الحرشي شاة بستين درهما . (٩) وفي سنة ٢١٤ هـ ارتفعت الاسعار ، حتى اخذ الناس في البصرة يأكلون الكلاب والفيران وجثث موتاهم . ويروى عن

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٣ ، ص ١٨٩
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٠١
(٣) ابن الجوزي ، الاذكياء ، ص ١٠٦
(٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٦١
(٥) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٩٣
(٦) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢١٧
(٧) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٥٥
(٨) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٦٣
(٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ١١٤

امرأة انها جلست تبكي لانهم لم يسمحوا لها من جثة اختها بسوى الرأس .[١] وفي سنة ٣٢٩ هـ " اشتد الغلاء والوباء وكثر الموت حتى انه كان يدفن الجماعة في القبر الواحد دون ان يغسلوا او يصلى عليهم ... ورخص العقار ببغداد والاثاث حتى بيع ما ثمنه دينار بدرهم ."[٢] وكانت البيوت والعقارات تباع برغفان الخبز ، والدلال يأخذ اجرته من بعض ذلك الخبز .[٣] وفي" سنة ٣٣٤ هـ افرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة ، واكلوا الموتى والحشيش والميتة والجيف ، وكانت الدابة اذا رثت اجتمع على الروث جماعة ففتشوه ولقطوا ما يجدون فيه من شعير واكلوه ، وكان يؤخذ بزر قطونا ويضرب بالماء ويبسط على طابق حديد ، ويوضع على النار حتى ينقب فيأكلونه ، فاصيب الناس من جراء ذلك باورام في احشائهم ، ومات اكثرهم ومن بقي كان في صورة الموتى . وكان الشخص يقف على الطريق وهو ينازع الموت جوعا فيصيح ويصرخ الجوع الجوع حتى يسقط وقد فارقته روحه ، ولو سار انسان وبيده كسرة خبز سترها تحت ثيابه والا استلبت منه ، وكانت الكلاب تشبع بجثث الموتى ، اذ لم يكن بالامكان دفن جموعهم بسرعة . وانحدر كثيرون الى البصرة ليشبعوا بالتمر ، فتلف معظمهم . ووجدت امرأة هاشمية قد سرقت طفلا وشوته في التنور وهي تأكل بعضه ، فمسكت وضربت عنقها ."[٤] وفشى ذلك بين النساء ولكن سرعان ما قبض عليهن وقتلن جميعا .[٥] وفي سنة ٣٣٤ هـ اشترى للامير معز الدولة كرّ دقيق حوارى بعشرين الف درهم ولم يستطع الناس العبور من الجانب الغربي الى الشرقي وبالعكس ، لان ناصر الدولة منع ذلك فلحق الناس في السواد ضرر عظيم ، وتسلط الجند على غلاتهم ، فكانوا يحصدونها ويدرسونها ويحملونها الى معسكرهم . والسعر بالجانب الشرقي خمسة

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ص ٥٩ — ٦٠
(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ٢٨٢
(٣) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٩٦
(٤) ابن مسكويه تجارب الامم ج ٢ ، ص ٩٥
(٥) ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ، ص ٩٦

ارطال خبز بدرهم لورود الزوارق من الموصل محملة دقيقا ، اما في الجانب الغربي فبقي السعر عاليا بعد ادراك الغلات من قبل الجند كما ذكرنا ، فكان رطل الخبز بدرهم وربع فيما اذا وجد ، لان ناصر الدولة منع دقيق الموصل ، ولان رجاله منبثون في الجانب الغربي يحولون بين الغلات وبين اصحاب معز الدولة .(١) وفي سنة ٣٩٢ هـ في جمادى الاولى بلغت كارة الدقيق الخشكار ثلاثة دنانير مطيعية ، ثم زادت في جمادى الآخرة فبلغت خمسة دنانير ، فاشتدت المجاعة بالناس .(٢) وفي سنة ٤١٦ هـ غلت الاسعار في هذه السنة وبيع كر الدقيق بثمانين دينارا ، فترك الكثير اوطانهم .(٣) وفي سنة ٤١٧ هـ اشتد البرد فلم يزرع وقلت عمارة المحاصيل وفي سنة ٤١٩ انعدم الرطب من البرد القارس وبيع كل ثلاثة ارطال بدينار جلالي ، وجمدت المياه مما اهلك عشرات الالوف من النخيل .(٤) وفي سنة ٤٢٢ هـ تأخرت الامطار وقلت الزراعة في السواد لقلة الماء ، ومما زاد الطين بلة احتباس المطر ، فجف المناخ وكثرت النزلات في الرؤوس والصدور فطبخوا ماء الشعير وشربوه وبيع كل ثلاثين رمانة بدينار سابوري ، ومن الشراب بعشرة قراريط ، وهذا ليس ببغداد فقط بل في الري ، همذان ، حلوان ، واسط ونواحي فارس ، كرمان ، ارجان ، وغيرها .(٥) وفي سنة ٤٢٣ هـ في جمادى الاولى زادت الاسعار وجاءت انباء الموصل بتلف الغلات حتى انهم لم يتمكنوا من جمع البذور في كثير من النواحي كالاهواز وواسط ، اما في الاحساء واقسام البادية فعمد الناس الى مواشيهم وقايضوا باولادهم لئلا تأتيهم رأفة في ذبحهم واكلهم .(٦) وفي سنة ٤٣١ هـ ارتفعت الاسعار ولم يعد بامكان الناس الذهاب من محل لآخر بدون خفير يأخذ من الماشي دانقين ومن راكب الحمار اربعة دوانيق .(٧) وفي

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٩١
(٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ و ص ٤١٨
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٢
(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٣٦
(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٦٠
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ، ص ٦٧
(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ، ص ١٠٥

سنة ٤٣٩ هـ بيعت رمانة بقيراطين ونيلوفرة بقيراطين وفروج بقيراطين وخيارة بقيراط ومائة منا سكر بتسعين دينار وطباشير درهم بدرهم فضة وزاد الامر في ذى الحجة .(١)

المهـــــن والحـــــرف .

اشتدت الازمة ، وضاق اصحاب الحرف والمهن البسيطة ذرعا بالحالة ، اذ ان اعمالهم لم تكن من الرواج والانبساط بحيث تسمح لهم من العيش في ذلك الوسط الغالي وما عسى ان يكون راتب الطائف (الشرطي) (٢) ، الناطور (٣) الذى يقوم بالحراسة ، الحانوتي الذى يجمع بين عدة مواد في دكانه ، السماك (٤) الحائك (٥) ، القصار ، الصباغ ، الطراز ، النجار ، الخباز ، الدقاق (بائع الدقيق) (٦) البقال ، الميزين ، (٧) الحمال ، الوقاد (الذى يوقد تحت القدور) (٨) واتخذت بعض النسوة الغزل مهنة لهن ، ينفزلن الصوف ويبعنه لقاء اجر معين . (٩) فعامل الكيزان مثلا اجرة داره خمسة دراهم في الشهر ، وثمن البيت البسيط يومئذ يساوى الف دينار (١٠) واحيانا خمسماية درهم ، هذا مع العلم ان رأس مال العمل في الكيزان مائة درهم فقط . واجرة خرط الزجاج يوميا درهم ودانقان او درهم ونصف .(١١)

هذه بعض المهن التي اتخذها العوام في بغداد كي يعتاشوا منها ، فهل يمكن ان تدر عليهم في الوقت العصيب ، بما يساعدهم على العيش !! ان ذلك لامر مستحيل

---

(١) المنتظم ، ج ٨ ، ص ١٣٢
(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ١٦٨
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٠٥
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٩١
(٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٣٥
(٦) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٢٣ و ص ٢٢٧ و ص ٢٣٤ و ص ٢٤٠
(٧) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٤٠ و ص ١٣٧
(٨) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٩٩ و ص ١٠١
(٩) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٩١
(١٠) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص ٣٩
(١١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٣٤

لا سيما وان العقارات بيعت برغفان الخبز ، وتعامل الناس فيما بينهم لمدة طويلة على اساس الرغيف . (١) وكتاب البخلاء للجاحظ ، يعطي فكرة واضحة عن عامة الشعب يومئذ ، ومستواهم المعاشي ، وللقارئ حينئذ ان يتخيل حالة هؤلاء المساكين بما وصلت اليه من البؤس والعسف والضنك ، لذا اضطر الكثيرون الى تزوير شهادات باسماء اصحاب النفوذ كي يتقاضوا دراهم واموالا ، كل ذلك في سبيل القوت . (٢) ولما كانت الاحوال السياسية تزداد سوءا يوما بعد يوم تعطلت الرواتب واثرت على الشعب وتدهورت الحال ببعض القوم المحترمين ممن كان يشتغل في دوائر الحكومة ، او ممن كان له ارزاق في الجيش . كان لاحدهم رزق في الجند قد تأخر زمن المكتفي ووزارة العباس بن الحسين ، فساءت حاله ورثت هيئته ، حتى لزم الجلوس عند خباز كان بالقرب منه ، استشفعه على جماعة ليعطيه في كل يوم خمسة ارطال خبزا ، يتقوت بها هو وعياله ، فاجتمعت عليه للخباز ديون فضاق به صدر الخباز ولم يعطه بعدها ، فخرج ذات يوم الى صاحبه وقال : لقد علمت ان لا بد لي من مسائلة الناس ، وقد عولت على ان اسأل كل من يشترى من الخباز ان يتصدق علي ، وقد حملني الجوع على هذا ، ولكني تذكرت ما في ذلك من الذل والمهانة فمنعتني نفسي . (٣)

لم تعرف بغداد المساواة بين الشعب طوال دوام عزها وسؤددها . كان فقيرها يجاور غنيها فيرى من نعيم جاره وبؤس نفسه ما يسود معيشته ، ولكن ما الحيل ، وهكذا حكمت الظروف عليه ، وكثيرا ما ضربت الامثال في ذلك ، والعامة قالت : كلاب القصابين اسرع عمى من غيرها بعشر سنين لانها لا تزال ترى من اللحوم ما لا تصل اليه ، فكأن رؤية ما تشتهيه وتمنعها عنه لعدم مقدرتها على اخذه يورثها العمى . (٤) وجاء في

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ، ص ٩٦
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج ٣٦
(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ٢ ، ص ٢٨
(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٩٣

البيان والتبيين قصص كثيرة للوضع الاقتصادي يومئذ ، وتحايل القوم بالمعاذير والحجج في سبيل العيش . يحكى ان اعرابيين ثمشيا في السوق فاذا فارس قد اوطأ دابته رجل احدهما واسمه (حيدان) فقطع اصبعا من اصابعه ، فتعلقا به حتى اخذا منه ارش الاصبع ، وكانا جائعين فحين صار المال في ايديهما قصدا لبعض الكرابج فابتاعا من الطعام ما اشتهيا ، فلما اكل صاحب حيدان فشبع انشأ يقول :

فلا غرث ما كان في الناس كرجح وما بقيت في رجل حيدان اصبع .(١)

اما الذين اتخذوا الكدية والشحذ وسيلة العيش فكثيرون ، تفننوا في كيفية التلاعب بالناس والتأثير عليهم ، ولقد بين ذلك الجاحظ في البخلاء ـ وعدد انواعهم وما كانوا يعمدون اليه للتأثير على المعطي فمنهم .

١) المخطراني .. الذى يأتي في زى ناسك ويدعي ان بابك قد قوّر لسانه من اصله ، لانه كان مؤذنا هناك ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثائب ، فلا يرى له لسان البتة ، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور ، ولا بد للمخطراني ان يكون معه واحد يعبر عنه ، او لوح قرطاس قد كتب فيه شانه وقصته .

٢) الكلفاتي .. الذى يتجنن ويتصارع ويزبد حتى لا يشك انه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه ، حتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته .

٣) العواء .. الذى يسأل بين المغرب والعشاء وربما طرب ان كان له صوت حسن وحلق شجي .

٤) الاسطيل .. المتعامي ، وان شاء اراك انه منخسف العينين ، وان شاء اراك ان بهما ماء ، وان شاء اراك انه لا يبصر للخسف ولريح السيل .

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٣٦

٥) المزهدى .. الذى يدور ومعه الدريهمات ويقول هذه الدراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة ، فزيدوني فيها رحمكم الله ! وربما احتمل صبيا على انه لقيط ، وربما طلب في الكفن .

٦) المستعرض .. الذى يعارضك وهو ذو هيأة وفي ثياب صالحة وكأنه قد هاب من الحياء ، ويخاف ان يراه معرفة ثم يعترضك اعتراضا ويكلمك خفية .

٧) المقرش .. الذى يقف على الميت ويسأل في كفنه ، ويقف في طريق مكة على الحمار الميت ، والبعير الميت ، يدعي انه كان له ويزعم انه قد احصر ، وقد تعلم لغة الخراسانيين واليمانية والافريقية ، وتعرف تلك المدن والسكك والرجال . فمتى شاء كان افريقيا ومتى شاء كان من اهل فرغانة ، ومتى شاء كان من اى مخاليق اليمن شاء .

٨) المكدى ... صاحب الكراء .

٩) الكعبي .. اضيف الى ابي كعب الموصلي ، وكان عريفهم بعد خلويه .

١٠) = البانوان .. الذى يقف على الباب ويقول " بانوا " وتفسير ذلك بالعربية : يا مولاى .

١١) القدسي .. الذى يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليله ، فاذا تورم واختنق الدم ، مسحه بشئ من صابون ودم الاخوين ، وقطر عليه شيئا من سمن واطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه ان به الاكله ، او بليه شبه الاكله .

١٢) المشعب .. الذى يحتال للصبي حين يولد بأن يعميه او يجعله اعسم او عضد ليسأل الناس به اهله وربما جاءت به امه وابوه ليتولى ذلك منه بالعزم الثقيل ، لانه يصير حينئذ عقدة وغلة ، فاما ان يكتسبا به ، واما ان يكريا بكراء معلوم ، وربما اكروا اولادهم فمن يخفي الى افريقيا ، فيسأل بهم الطريق اجمع بالمال العظيم فان كان ثقة عليها والا اقام بالاولاد والاجرة كفيلا .

١٣) الفلور .. الذى يحتال لخصيتيه حتى يبين انه آدر ، وربما يبين ان بهما سرطانا او خراجا او عرقا ، وربما يرى ذلك في دبره ان يدخل فيه حلقوما ببعض الرئة .

١٤) الكاخان .. الغلام المكدى اذا واجد ، وكان عليه مسحة جمال ، وعمل العملين جميعا . (١) وخبز الصدقه على سائل او سجين اسمه الذكورى . (٢)

ولا اعلم بالضبط لماذا يقول الجاحظ : رأيت الناس شرهم الفقير . (٣) قد يمكن ان يكون للمحايلات والطرق الغير المشروعة التي استعملوها كما جاء في البحث .

لم يكن باستطاعة العامي البسيط ان يأكل اللحم كل يوم ، لغلائه وقلة ذات يد المشترى . دخل حامد بن العباس يوما الى دهليزه فرأى فيه قشر باقلاة فاحضر وكيله وقال : " ويلك يوكل في دارى الباقلاء ؟ قال : هذا من فعل البوابين . قال : اوليست لهم جرايات لحم ؟ قال : بلي فسلهم عن السبب . فسألهم فقالوا : لا نهنأ باكل اللحم دون عيالنا فنحن ننفذه اليهم لنأكله معهم ليلا ونجوع بالغدوات فنأكل الباقلاء . (٤) ولم يكن اللحم الاكلة الوحيدة التي يتعسر اكلها على البعض بل السمك ايضا وغيره كثير . (٥)

انف الغني تسخين الطعام بعد ان يبرد ، او ان يمد يده الى جردقة قطعت منها كسرة ، بينما يعمد العوام الى الجرادق التي ترفع عن المائدة ، فما كان منها ملطخا بنوع من الطعام دلكوه ومسحوه ، وما كان منه قد كسر بعضعه يقطعونه بسكين ليتساوى ولا يبان كالقطع المنهوشة ، اما الانصاف والارباع فللثريد ، ومنه يقطع كالاصابع ويجعل مع القلايا . (٦)

كما انهم تفننوا في الاقتصاد ، لكي يتمكنوا من العيش في ذلك المجتمع الفاحش الغلاء .

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٨١ — ٨٣
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٨٥
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٨٧
(٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٤ - ١٥
(٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٤٤
(٦) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٩٠

فكان الشخص ان بليت جبته المحشوة احتال في طريقة الاستفادة منها ، فيخرج الصحيح فيجعله مخاد ، وقطنها للقناديل ومادون خرق المخاد للقلانس ، ثم يعمد الى اصلح ما بقي فيبيعه الى اصحاب الصينيات والصلاحيات ، وجعل ما لا رقعة فيه ممحاة له وللجارية ، اذا قضيا حاجة ، اما السقاطات وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف فصاما لرؤوس القوارير .(١)

وكثيرا ما يضطر العامي العامل ، ان يأخذ غذاءه خارج البيت فيحمل معه صرّة فيها جردقتان وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح ، واخرى فيها اشنان واربع بيضات وبعض الرطب ان كان في زمنه ، او العنب احيانا .(٢) اما العوام المتوسطو الحال والذين بامكانهم العيش دون ان يشعروا بالضنك او ان يحرموا كثيرا من الاشياء فضرورى ان لا تقل ثروتهم عن سبعمائة دينار ، اذ ان هذه تعتبر ثروة غير قليلة .(٣) ويروى عن شخص ورث عن والده مالا كثيرا انفقه في القيان ، ثم مات خادم كان مولى لابيه وابن عم في يوم واحد ، فحصل له من تركتهما اربعون الف دينار ، فعمر دارا بالف دينار واشترى آلات وفرشا وثيابا وجوارى بسبعة الاف دينار ، وسلم التاجر الفي دينار يتجر له فيها واودع في بطن الارض عشرة الاف للشدائد ، وابتاع بالباقي ضيعة تغل في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته . والبيت المتوسط عادة بفرشه وآلته ومركوبه وغلمانه وجواريه يكلف خمسة آلاف دينار ، وله ضياع وتستغل بعشرة الاف دينار ، ويرفع لوقت الحاجة تحت الارض خمسة الاف دينار اخرى ، بينما رأس المال لهذا البيت قد يكون حوالي ثلاثين الف دينار .(٤)

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٦٧
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٤٣
(٣) مصارع العشاق ، ص ١٥٩
(٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٩٣ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٧

وقد يكون احدهم صيرفيا داره مفروشة بفاخر الفرش والآلات ليس فيها الا جوار روميات للخدمة ، فلو زاره صديق ، ادخله الحمام والقى عليه ثيابا شبيهة بما يلبسه اولاد الخلفاء ، فبعد ان يبخر بند جهد عتيق ، يؤتى له بطعام وشراب طيبين ، وعند ما يفض المجلس يأمر للضيف بخمسماية دينار ، ان هذا الوصف يعطي صورة صادقة للبيت الاعتيادي المعروف في القرن الرابع الهجري ، ولا بد ان يكون رب البيت غنيا ، ليستطيع دفع هذه النفقات ، ولكن بالرغم من غناه ، لا يوضع في صف الاغنياء من الوزراء والامراء والكبار ، لان غنى هؤلاء لا يقارن بما عند هذا ، ونفقاتهم لا يمكنه ان يجاريها ، فقصر احدهم كان كمدينة صغيرة . لما تحويه بداخلها من الانفس والخدم واصحاب المهن وغيره .(١)

بلغت دار الوزير ابن الفرات من الوسع والكبر بحيث احتيج الى ان يحمل فيها كثير من الفنيين ، واصحاب المهن كيما يسدوا الطلبات الكثيرة ، واراد الوزير ان يجزى خياطا ، كان قد قام له بخدمة ، فاجزاه الف دينار ، وجعله رئيسا على الخياطين في داره فلم تمض عليه مدة حتى صار صاحب عشرات الالوف .(٢)

كان ابو الحسن بن الفرات قد استوزر للمقتدر ثلاث مرات ، ومما قيل عنه "عندما افضت الوزارة اليه زاد في ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطا في كل من وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لها ، ولان كان من عادته ان لا يخرج احد من داره في وقت عشاء الا ومعه شمعة ، ودرج منصوري ، وانه سقي في داره في ذلك اليوم والليلة اربعون الف رطل ثلجا ."(٣) وهذا كان دائبه في كل تولية وزارة حتى اصبح لوا متعارفا بين التجار .

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٠٤
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٣٨
(٣) الصابي ، الوزراء ص ٦٣ ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١١٣ ، ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ١٢٠

وكان لابي حسن بن الفرات مطبخان في داره ، مطبخ الخاصة ولا يمكن ان يحصى ما كان يدخله من الغنم والحيوان لكثرته ، ومطبخ العامة حيث يأكل الكتاب والغلمان والرجالة والبوابون ، وغلمان اصحاب الدواوين ، استعمل فيه كل يوم تسعون رأسا من الغنم ، وثلاثون جديا ومائتا قطعة دجاجة سمانا ، وفراريج مصدره ومائتا قطعة دراجا ومائتا قطعة فراخا ، وخبازون يخبزون ليل نهار وغيرهم يعملون الحلوى بدون انقطاع . (١) وكانت له في داره دار كبيرة للشرب ، فيها مزملات يطرح بها الثلج فيصبح الماء شديد البرودة ويسقى منه كل من يريد الشرب من الرجالة والفرسان والاعوان والخزان ومن يجرى مجرى هذه الطبقة من الاتباع والغلمان ، وبرسم خزانة الشراب خدم نظاف عليهم ثياب الديبقية وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين او جلاب وكوز ماء ومنديل من مناديل الشراب نظيف ، فلا يتركون احدا ممن حضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والحمال الا عرضوا عليه الشرب . (٢) وكان من رسوم داره ان يأخذ كل من يخرج منها عند الغروب شمعتين . (٣) وانفق غيره على مائدته وفاكهته ما يساوى الالف درهم . (٤) وجاء عن الوزير حامد بن العباس ان نصب في داره يوميا عدة موائد ولم يسمح لاحد من الجلة والعامة والحاشية وغيرهم بالخروج من داره اذا حضر الطعام ، حتى غلمان الناس جلسوا على موائده وربما نصب في داره في يوم واحد اربعون مائدة . (٥) وامر ان يجرى على كل من يجرى عليه الخبز واللحم ، لسماعه انهم يأخذون جريهم من اللحم لعيالهم ويأكلون اثناء النهار الباقلاء قتلا للجوع . (٦) اذ كان اللحم غاليا جدا والقصابون يذبحون يوم الجمعة اكثر من الايام الاخرى لهذا تكثر الرؤوس يوم السبت ، فيتسنى للعوام الذين لا مال لهم ان يشتروها بسعر ارخص . (٧)

---

(١) الصابي ، الوزراء ، ص ١٦٥ ، ابن مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ١ ، ص ١٢٠
(٢) الصابي ، الوزراء ، ص ١٦٥ ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٦٩
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٦٩
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٥٢
(٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٤
(٦) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٥
(٧) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٧٨

هذا مثل للغنى الذى تمتع به كثير من الناس، وقد يخاله القارئ خيالا . ولكن ايمكن ان يكون جميع الكتاب والمؤرخين يومئذ خياليين الى هذا الحد الذى يبينه ياقوت ! فيقول " كانت تركة الحسين علي بن احمد الراسبي ، العين اربعمائة الف وخمسة واربعون الفا وخمسماية وسبعة واربعون دينارا .. الورق ثلاثمائة الف وعشرون الفا وخمسمائة وسبعة وثلاثون درهما ... ووزن الاواني الذهبية ثلاثة واربعون الفا وستماية وخمسة وخمسون درهما ... ومن الند العمول سبعة الاف واربعمائة مثقال .. ومن العود المطراء اربعة الاف واربعمائة وعشرون مثقالا .. ومن العنبر خمسة الاف وعشرون مثقالا .. ومن نوافج المسك ثمانمائة وستون نافجة .. ومن المسك المنثور الف وستماية مثقال .. ومن المسك الفا الف وستة واربعون مثقالا .. ومن البرمكية الف وثلاثمائة وتسعة وتسعون مثقالا .. ومن الغالية ثلاثمائة وستة مثقالا .. ومن الثياب المنسوجة بالذهب ثمانية عشر ثوبا قيمة كل واحد ثلاثماية دينار .. ومن السروج ثلاثة عشر سرجا .. ومن الجواهر حجران ياقوت .. ومن الخيل والفحول والاناث مائة وخمسة وسبعون رأسا .. ومن الخدم السودان مائة واربعة عشر خادما .. ومن الغلمان البيض مائة وثمانين وعشرون غلاما .. ومن خدم الصقالبة والروم تسعة عشر خادما .. ومن الغلمان الاكابر اربعون غلاما بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم .. ومن اصناف الكسوة ما قيمته عشرون الف دينار .. ومن اصناف الفرش ما قيمته عشرة الاف دينار ومن الدواب المهارى والبغال مائة وثمانين وعشرون رأسا .. ومن الجمال والجمازات تسع وتسعون رأسا .. ومن الحمير النقالة الكبار تسعون رأسا .. ومن قباب الخيام الكبار مائة وعشرة وخمس وعشرون خيمة .. ومن الهوادج والسروج اربعة عشرة هودجا .. ومن الغضائر الصيني والزجاج المحكم الفاخر اربعة عشر صندوقا " (١) ووصل الغنى بالبعض ان يشترى من البطيخ الذى كان يحمل الى المأمون والواثق في قوالب الرصاص معبأة في الثلج كن خوارزم ، فكانت

(١) ياقوت ، البلدان ، جزء ٤ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠

تقوم الواحدة منه اذا سلمت ووصلت ، بسبعمائة درهم .(١)

بلغت ثروة البعض الذروة ، ولو انهم لم ينتسبوا للامارة ولا الوزارة بشئ ابدا فابن الجصاص الجوهري صودر بمدينة السلام في سنة ٣٠٢ هـ على خمسة الاف الف وخمسماية الف دينار .(٢) قال التنوخي : سمعت الامير ابا محمد جعفر بن ورقاء بن محمد بن ورقاء الشيباني يقول : اجتزت بابن الجصاص وكان قد جزع جزعا شديدا على اموالة المصادرة فاخذت اطمئنه واعدد بعض ما لديه لادخل السلوان والاطمئنان الى قلبه .. ، فقلت له : ليس ببغداد اليوم بعد ما خرج عنك ايسر منك من اصحاب الطيالس . فقال هات . فقلت : الهي دارك هذه التي كانت قبل مصادرتك ولك فيها من الفرش والاثاث ما فيه جمال لك ، وان لم يكن ذلك الكبر المفرط ؟ فقال بلي فقلت : وقد بقي لك عقار بالكرخ وقيمته خمسون الف دينار فقال : بلي قلت ودار الحور وقيمتها عشرة الاف دينار . فقال بلي . فقلت : وعقارك بباق الطاق وقيمته ثلاثون الف دينار . فقال بلي . وبستانك الفلاني وضيعتك الفلانية وقيمتها كذا . فقال بلي . فقلت : ومالك بالبصرة وقيمته مائة الف دينار فقال : بلي . فجعلت اعدد عليه من عقاراته وضياعه الى ان بلغت القيمة تسعماية الف دينار فقلت : واصدقني عما سلم لك من الجواهر والاثاث والقماش والطيب والجواري والعبيد والدواب وعن قيمة ذلك وقيمة دارك . فاخذ يصدقني ويقوم واحصي الى ان بلغت القيمة لذلك ثلثمائة الف دينار ؟ .(٣) ووجد لآخر غيره من تجار البصرة جوهر يقدر بعشرات الالوف من الدنانير .(٤)

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٣٥٤

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٨٣ ، ابن الجوزي الحمقى والمغفلين ص ٣٧

(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص ١٧

(٤) ابن الجوزي ، الاذكياء ، ص ١٤٣

النفقـــــــات .

اما الخلفاء فانفقوا على موائدهم فقط ، يوميا عشرات الالوف الدراهم .(١) ولقد كلف صحن سمك قدمه ابراهيم بن المهدى لاخيه الرشيد ١٠٠٠ درهم .(٢)

وقيل ، لم تكن النفقات في عصر من الاعصر ولا وقت من الاوقات مثلها في ايام المتوكل . يقال انه انفق على الهاروني والجوسق الجعفرى اكثر من مائة الف الف درهم ، هذا مع كثرة الموالي والجند والشاكريه ، ونظم العطاء لهم ، وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات ، مات وفي بيوت الاموال اربعة الاف الف دينار وسبعه الاف الف درهم .(٣)

جاء في الصابي في تفصيل خرج المياومة مما شرط فيه، ما قرره المعتضد بالله :

" ارزاق اصحاب النوبة من الرجالة ومن يرسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم من جملة ثلثين الف دينار يساوى في الشهر الف دينار ، ومن ذلك البيضان من الجنابيين والبصريين واصحاب المصاف بباب العامة ومن على ابواب القواد المفلحية والديالمة والطبرية والمغاربة ويفتتح الاعطاء في مجلسهم بنحو مائة رجل من البوابين يساوى سبع مائة دينار ، السودان ومن رسمهم ان ينوبوا في مصاف باب الخاصة وحوالي القصر ولهم وظيفة خبز يميزون بها لقلة رزقهم يساوى في اليوم ثلاثماية دينار ، ارزاق الغلمان وهم الستينية يساوى الف دينار

مماليك المعتضد الحجرية ، التسعينية مائة وخمسة وثلثين الف دينار في كل قسط يوم من تسعين يوما الف وخمسماية دينار ، السبعينية من جملة مال طعمهم وهو اثنان واربعون الف دينار بقسط كل يوم ستمائة دينار .

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٠
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٧ ص ٢٤٩ - ٢٥٠
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٧ ص ٢٧٦ - ٢٧٧

ارزاق الفرسان المثبتين وايام شهرهم مائة وعشرون يوما ، ومال طعمهم ستون الف دينار ، ولكل يوم خمسماية دينار .

ارزاق سبعة عشر صنفا من الرسوميين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء واصحاب الاخبار والمؤذنين والمنجمين والفنجانيين والفرانقيين والانصار والحرس والمكبوس (كذا) والشيعة والسند واصحاب الاعلام والبوقيين والمخرفين والمضحكين والطبالين ممن كان برسم النوبة ، فتنقل الى المشاهرة التي ايام كل شهر منها ثلاثون يوما من جملة ثلاثة الف وثلثمائة دينار بقسط كل يوم مائة وعشرة دنانير .

نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وانزال الحرم والحشم ومخابز السودان من جملة عشرة الاف دينار في الشهر يساوى ثلثمائة وثلثة وثلثين دينارا وثلث . من ذلك الخاصة ثمانين دينارا ... العامة والانزال مائتين وثلثة وخمسين دينارا وثلث .

ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزاين الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن الفرش وثمن الخيش والدبج والحصر والستائر والسرادق واجور الحمالين والاعوان للسرير وغير ذلك يتولى انفاق جميعه المرتزقون من جملة ثلثة الاف دينار في الشهر يساوى ليوم مائة دينار .

ارزاق السقائين بالقرب من القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور والحجر والخدم داخل وفي الرحاب والوضوء الخاص ومن يعمل بالرواية على البغال من الاصطبلات للحرم والبوابين في دار العامة من جملة مائة وعشرين دينارا في الشهر يساوى ليوم اربعة دنانير .

المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم واصحاب الارباع والمصالح والاعوان والسجانين واصحاب الطوف والماهريين ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميّزوا والحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمترفين، ومن هذه سبيله من الرجالة الموكلين بابواب المدينة وايام شهرهم مائة وعشرون يوما من جملة ستة الاف دينار في المشاهرة تساوى خمسين دينارا .

اثمان انزال الغلمان المماليك الستينية ممن كان يطلق للخدم الاستاذين كانوا عليهم والقواد المضموم بعضهم اليهم ليقيم كل متقدم الخبز واللحم لمن في ناحيته ويوكل عليه من يستجيد الاقامة لهم ويطالب بادرارها عليهم من جملة تسعة الاف دينار في الشهر تساوى ثلثمائة دينار .

ارزاق الحشم الذين شهرهم خمسون يوما من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الساغة والخياطين والقصارين والاساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنحاوين والوراقين والعطارين والمشهورين والنجارين والخراطين والاسفاطيين وغيرهم ومن في خزانة السلاح من الخزان والصناع وفي خزانة السروج من مثل ذلك ، ولكل خزانة طائفة صك مفرد يكتب من الديوان من جملة ثلثة الاف دينار في الشهر ليوم مائة دينار .

ارزاق الحرم من جملة ثلثة الاف دينار ليوم مائة دينار ، ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة اثنى عشر الف دينار في الشهر ليوم اربع مائة دينار .

ارزاق المطبخين في كل شهر ايامه خمسون يوما من جملة الف وخمسماية دينار في الشهر ليوم ثلثين دينارا .

ارزاق الفراشين والمجلسين وخزان الفرش وخزان الشمع واجرة الاعوان والحمالين من كل شهر ايامه خمسون يوما من جملة الف وخمسمائة دينار ثلثين دينارا .

ثمن الشمع والزيت من جملة مائتي دينار في الشهر ليوم ستة دنانير وثلثي دينار

ارزاق الجلساء واكابر الملهين ومن كان يجرى مجراهم في الجلوس اذا حضروا يام شهرهم خمسة واربعون يوما اسوة الخدم من جملة الفي دينار ليوم اربعة واربعين دينارا وثلث .

ارزاق جماعة من رؤساء المتطببين وتلامذتهم الملازمين مع ثلثين دينارا لثمن الادوية في خزانة تكون في القصر من جملة سبع مائة دينار ليوم ثلثة وعشرين دينارا وثلث .

ارزاق اصحاب الصيد من البازيارين والفهاديين والكلابزيين والصقارين والصيادين وثمن الطعم والعلاج للجوارح واصحاب الحراب والسباعين واصحاب الشباك واللبابيد والفحاليس ومن معهم من الاعوان والحمالين واصحاب المرور وغيرهم في كل شهر ايامه خمسة وثلثون يوما من جملة الفين وخمس مائة دينار في الشهر ومن القسط من خمسين دينارا لتجديد الاتها سبعين دينارا .

ارزاق الملاحين في الطيارات والشذاءات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر من جملة خمس مائة دينار في كل شهر ستة عشر دينارا وثلثي دينار .

جارى المؤذنين في المسجدين الجامعين والمكبرين والقوام والايمة والبوابين وثمن الزيت للمصابيح والحصر والبوارى والماء والخلوق وثمن الستائر في الصيف والحباب والخزف والعمارة في شهر رمضان من جملة مائة دينار في كل شهر .[1]

وكلفت سبحة من الجوهر الغالي النفيس اتخذتها زبدان القهرمانة ٣٠،٠٠٠ دينارا .[2] اما ختان اولاد المقتدر فحرى بنا ان نورد نتفا منه ليعطي للقارئ لمحة خاطفة عما نحن بصدد بيانه في هذه الوريقات ، في ختان خمسة من اولاد المقتدر نثر ٥٠٠٠ دينار عينا ، و ١٠٠،٠٠٠ درهم والنفقة للختان ٦٠٠،٠٠٠ دينارا . واهدى

(١) الصابي ، الوزراء ، صفحة ١١ ـ ١٢١
(٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٥٤

للوزير ابن الفرات بهذه المناسبة ثلاث موائد استدارة المائدة الكبيرة منها خمسون شهرا يحملها حمالون بدهون وريم ان تدخل من باب الدار التي ينزلها فضاق عنها حتى قلع ووسع الموضع وحمل اليه عشية هذا اليوم تختان فيهما ثوب وشي منسوج بالذهب ، وثوب اخضر وثلاثة اثواب بياضا وصينية ذهب فيها دنانير ولوز وجوز وفستق وبندق وما يجرى هذا المجرى من الاصناف وجميعه من ذهب وقدره خمسة الاف دينار . (١)

الدخـــــــــل .

ارتفعت الرواتب في زمن الخليفة المأمون ، فكان قاضي مصر عيسى بن المنكدر يتقاضى اربعة الاف درهم في الشهر ، وهو اول قاضي اجرى عليه ذلك . وكان يجرى على القاضي يوميا سبعة دنانير . (٢)

بلغ راتب الوزير في بغداد في القرن الرابع الهجرى سبعة الاف دينار شهريا ، وراتب قاضي القضاة خمسماية دينار . (٣) واخذ حامد بن العباس ٢٥٠٠ دينارا شهريا .

اثرى الناس حتى بلغ بالبعض اعالة كثير من العوائل ، دون ان يؤثر المصروف في ماليتهم الخاصة . ولما قبض على ابن الفرات بعد وزارته الاولى نظر فاذا هو يجرى على خمسة الاف من الناس اقل جارى احدهم خمسة دراهم في الشهر ونصف قفيز دقيق الى عشرة اقفزة ومائة دينار . (٤) اما ابو الحسن عبد العزيز بن ابراهيم المعروف بابن حاجب النعمان فكان قد سقط من على روشن داره فمات . فلما اراد الوزير ابن الفرات مساعدة

---

(١) الصابي ، الوزراء ، ص ٦٥
(٢) الكندي الولاة وكتاب القضاة ص ٤٣٥
(٣) بارتولد ، الحضارة الاسلامية ، ص ٤٤
(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٦٩

اهله ، وهو يعرف حال بعضهم الذين كان المتوفى يمدهم . اوفد من يسأل زوجته عنه فبعثت للوزير بقائمة تحمل حوالي ثلاثة الاف وكسر درهما شهريا ، كان يقبضها هؤلاء فاجراها لهم الوزير كاملة غير ناقصة .(١) وبلغ دخل ابن الحوارى شهريا اثنى عشر الف دينار ، هذا سوى ارتفاع ضياعه وسوى المرافق التي تصل اليه من الاعمال التي يتولاها وغير ماصادره به المقتدر .(٢) ودخل لعبيد الله بن يحي بن خاقان ١٠،٠٠٠ درهم شهريا .

وبلغ الثراء بالبعض الى مباهاة ومحاكاة المقتدر بالله ، حتى قلدوه في كثير من مجالسه ، روى ان كان لابن الدكيني رأس مال يقرب من خمسمائة الف دينار ، تفنن هذا في الصرف والتبذير ، وكان كلما بلغه امر بزج عن المقتدر آل على نفسه محاكاته ، وكان ينثر في اليوم على المغنيات خمسة الاف درهم والفي درهم ومائة دينار ، يهب منها في مجلس عشر خلع وخمس عشرة خلعة يخرجها من دكان ابيه من التخوت فيهبها ، وكان اذا اصبح مخمورا احضر الثياب الديبقي فيخرق بحضرته باليد عصائب الفصد ، وانفق في فصاد فصدته عشيقته ثلاثة الاف دينار .(٣)

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٤١ ،

(٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٨٨

(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٩٣ ـ ٩٤

الفصـــــل الثانـــــي

" البيـــــوت "

افرط الناس في قرون البذخ العباسية في تشييد الدور والقصور ، شغلوا فيها الصناع والمهره ، وحلّوها بكل نادر وثمين حتى اصبحت بهجة للناظرين .

مـــواد البنـــاء .

وكان اهم ما استعملوه من مواد البناء يومئذ ، الطين ، الجص ، جزوع الخشب ، الحديد ، البلاط ، القصب ، الخشب ، القرميد ، الآجر . (١) استعمل الآجر بالحجم الكبير وفرشت به دور بغداد . (٢) وكانت الدور تزين بالزجاج الملون وغير الملون ، ومصدر الجيد منه مدينة الشام ، وكان زجاج الشام مضرب المثل في الرقة والجودة والصفاء ، لذا عنوا به كثيرا ، قال بعض الحكماء " ارفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام الى ان تجد الفرصة فاما ان يضر به الحجر فتفظه واما ان تضربه بالحجر فترضه . " (٣) واستعملت الاقفال والرزات في الابواب وكذا المسامير . (٤)

شكلهـــــا .

وقد كشفت لنا حفائرسامراء عن طريقة بناء الدور عند اهل العراق في القرن الثالث الهجري ، ولا يخفى ان بغداد يومئذ كانت المثال الذى عنه يؤخذ واليه يتوجه ، ولو ان بعض المناطق الاخرى كان لها طابعها الخاص في البناء والتزيين ، كمدن فارس القديمة ، والشام ومصر ، ولكن دراستنا لطراز ابنية العراق مهم لانها كانت مبعث الوحي

(١) الجاحظ ، البخلاء ص ١٢٧ (٢) ياقوت ، البلدان ج ٥ ص ٣٢٧
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ص ٤٢٢ (٤) الجاحظ ، البخلاء ص ٣

لاهل العصر .

" فقد كانت الدور بسامراء تبنى على مثال واحد : يصل بينه وبين الشارع او الدرب دهليز مسقوف يفضي الى صحن واسع قائم الزوايا يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى وصورتها هكذا [ــــ وفي اركانها غرف صغيرة ويحيط بالصحن ايضا غرف متجاورات مريحة للسكنى وللمرافق المنزلية ايضا . ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجار تحت الارض ، وكثيرا ما يكون فيها آبار ، وتشمل احيانا على صحون ذات اساطين TARMAH'S وعلى سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية ، والدور كلها من طابق واحـــد ، واذا كانت الارض المحيطة بها غير مستوية اتخذ منها اصحاب الدور مسطحات مرتفعة بعمارة لهم في ذلك ، وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة ، وبها شبابيك تقفل بالواح من الزجاج المتنوع الالوان ، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمترا . "(١) (+)

مـــــرافقهـــا .

كانت السطوح ولا تزال من مرافق البيت المهمة في العراق ، ففي الصيف يتعذر النوم داخل البنايات لذا ينام الناس فوق السطوح المسورة .(٢) وجاء ذلك في ياقوت ايضا عند كلامه عن الحوزى في شعبان سنة ٥٠٥ هـ وهو يومئذ ناظر بنهر الملك ، صعد اليه قوم وهو نائم على السطح فوجؤه بالسكاكين .(٣) وذكر بعض المؤرخين ظهور حيوان يسمى الزبزب في عام ٣٩٤ هـ فزعموا انه يأكل الاطفال بالليل من على السطوح ،

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٧٢ ــ ١٧٣
(+) ان طريقة البناء هذه شبيهة بطريقة البناء في العراق قبل البت في تشييد الدور الحديثة ، ولا تزال هذه البيوت تغلب على مشيدات العراق اليوم .
(٢) القزويني ، آخبار البلاد ، ص ٢٣٠ .
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٤

وينهش ثدي المرأة ، فارتعب الناس رعبا ما فوقه من رعب ، واستغل اللصوص هذه الفرصة فكبسوا الدور وكثرت السرقات فاضطر السلطان اخيرا ان يأمر بصيد حيوان بشكل كلب الماء وعلق على الجسر ، وقيل هذا هو الزهزب آكل الاطفال ، فارتاح الناس واطمأنت افكارهم .(١)

وعندما يبرد الجو ينزل الناس من السطوح ويتدثرون باللحف . ويقول المقدسي "وبخراسان ينام ثلاثة اشهر فوق السطوح ."(٢)

اما الميزاب فيعد من ضروريات البناية ، ليتسرب منه ماء المطر .(٣) ثم الدرج ، الابواب ، العتب ، واتخذ بعضهم المطابخ في اعالي السطوح مع ما في ذلك من الاخطار بالانفس والاموال وتعرض الحرم ليلة الحريق لاهل الفساد ، هذا بالاضافة الى التنانير التي لم يكن البعض ينصبها الا على السطح ، حيث لا يوجد بينها وبين القصب والخشب الا الطين الخفيف وهذا لا يفي بتلافي اخطار الحريق .(٤) وكانت معظم بيوت العراق تحتوي على سراديب للسكنى في الصيف كما هي الحال اليوم .(*) يحكى ان ابراهيم الموصلي تشوق الى سرداب له ، كانت فيه بركة ماء تدخل من موضع اليه وتخرج الى بستان ، فقال : اشتهي ان اشرب يومي وابيت ليلتي في هذا السرداب ففعل ذلك .(٥) ولا تزال هذه السراديب موجودة في مدينة بعقوبه اليوم .

---

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٣٩ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ص ٢٨
(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٣٣٢
(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٣٨
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٢٧ - ١٢٨
(*) ولشد ما تعجبت مما جاء في متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٧٣ اذ يقول " ولا نجد فيما بين ايدينا من اخبار القرن الرابع بالعراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى في فصل الصيف . ولا تشير لذلك اية حكاية من الحكايات الكثيرة التي ترجع الى ذلك العصر " وكانما الكاتب يناقض نفسه بنفسه عندما يبين طراز بناء القرن الثالث في حفريات سامراء "وتشمل على سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية كما ان هناك قصصا واخبارا اخرى تدل على وجود واستعمال السراديب للغاية المستعملة من اجلها اليوم . ولا شك ان الاستاذ متز لم يقطن فترة الصيف في العراق ولم يعرف ما معنى الحر فيها ، واستحالة العيش بدون سراديبها لتوقي قيظها المهلك لا سيما في شهري تموز وآب ، حيث ضربت الامثلة المختلفة في شدة الحر " آب اللهاب يحرق السمار بالباب " ، " تموز يغلي الماء في الكوز " وترتفع درجة الحرارة الى درجة يذوب فيها القار المفروشة به الطرقات فيتعذر المشي .
(٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٥ ، ص ١٩٣

وللبيوت مستراحات حتى ان السراة منهم كان لهم في بيوتهم مستراحات خاصة لا يدخلها غيرهم ، فاذا اراد احدهم الدخول فتحه له الخادم الموسوم بالوضوء وقفله بعد خروجه . (١) وقال الجاحظ " ان الكنيف من مرافق البيت المهمة " (٢) كذلك البيوت الكبيرا تحتوى على اصطبلات لكل منها باب من حديد . (٣) والكانون في الغرف من الضروريات ليقيهم شدة البرد ، وقد قيلت فيه الاشعار يقول كشاجم :

كأنما الجمر والرماد وقد ... كاد يوازى من ناره النورا

ورد جني القطاف احمر قد ... ذرت عليه الاكف كافورا

وقال غيره : كأنما النار والرماد معا ... وضوءها في ظلامه يحجب

وجنة عذراء مسها خجل ... فاستترت تحت عنبر اشهب . (٤)

لعبت الحمامات دورا مهما في حياة الناس يومئذ اذ كانت النظافة من الاسس التي تتطلبها معيشتهم ، كما كان دخول الحمام احيانا من مكملات الضيافة ، حيث يطلب صاحب الدار الى ضيفه ان يدخل الحمام فيغسل ثم يعطر ، وتخلع عليه الخلع المختلفة عند خروجه . لذا اهتموا كثيرا في تزويق الحمامات وتنميقها . قال القزويني في سنجار " ما رأيت احسن من حماماتها ، بيوتها واسعة جدا وفرشها فصوص وكذلك تانيرها ، وتحت كل انبوبة حوض حجرية مثمنة في غاية الحسن وفي سقفها جامات ملونة بالاحمر والاصفر والاخضر والابيض على وضع النقوش ، فالقاعد في الحمام كأنه في البيت مدبج " . (٥) ولا تزال اشكال هذه الحمامات محفوظة وموجودة في بيوت بغداد القديمة . كذلك قال ابن جبير :

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٥
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٠٩
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٣١
(٤) الثعالبي ، اليتيمة ، ص ٢٦
(٥) القزويني ، اخبار البلاد ، ص ٢٦٣

والحمامات مطلية بالقار مستحطة به فيخيل للناظر انه رخام اسود صقيل لكثرة القار عندهم لان شأنه عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة ." (١) واكد الجاحظ وجود تلكم الحمامات في البيوت . (٢) وقد يتأكد القارئ من اهمية حمامات البيوت عندما يعلم بان عدد الحمامات العامة في محلة الشرقية من بغداد كانت حوالي الالفي حمام . (٣) واشتهرت بعضها شهرة كبيرة مثل حمام منجاب بالبصرة . (٤)

الايجـــــــار .

لم تكن حالة الجميع المالية بحيث تسمح لهم بشراء او بناء دور سكناهم ، لذا كانوا يلجأون للايجار . وهناك شروط خاصة بين المؤجر والمستأجر يجب ان يوافق عليها كل من البانيين لتتم الصفقة . وتشدد بعضهم في الايجار الى درجة كبيرة . جاء في البخلاء وصف لشروط الكندي في الايجار حيث يقول : " كان المستأجر يروح له الكراء ويقضي الحوائج ويفي له بالشروط ، وشروطه : ان يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وان لا يخرج كساحة ، وان يكون له نوى التمر وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته ، وكان في ذلك يتنزل عليهم ، فكانوا لطيبه ، وافراط بخله ، وحسن حديثه يتحملون ذلك ." (٥) وتشدد الى درجة ان طالب المستأجر بزيادة الاجرة اذا حل ضيف جديد في البيت ، قدم لبعضهم ابن عم ومعه ابنه ، واذا برقعة من الكندي يسأل ان كان مقام هذين الضيفين لليلة او لليلتين فيتحمل ، فلما عرف ان مقامهما يستغرق شهرا او نحوه ، كتب للمستأجر يقول : ان دارك بثلاثين درهما ، وانتم ستة لكل رأس خمسة فان زدت رجلين فلا بد من زيادة الخمستين فالدار عليك من يومك هذا

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٨٢
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٣١٩
(٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٨٢
(٤) ياقوت ، البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ و الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص
(٥) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٣٢٦

باربعين ." وتذرع لهذه الزيادة بكثير من التبرعات ، منها ان وجودهم يدعو الى سرعة امتلاء البالوعة والاقدام اذا كثرت كثرالمشي على السطوح المطينة وعلى ارض البيوت المجصصة والصعود على الدرج يدعو الى قلع الجص وقشر الجص ، وكسر العتب مع انثناء الاجذاع لكثرة الوطء وكثرة الدخول والخروج والفتح والاغلاق وجذب الاقفال يهشم الابواب ويقلع الرزات ، واذا كثر الصبيان ، نزعت مسامير الابواب ، ونزعت الرزات ، وهشم البلاط ، وخربت الحيطان بالاوتاد . وبكثرة العيال والزوار والندماء ، احتيج الى اتخاذ الحبيبه القاطرة ، والجرار الراشحة ، فيكون بذلك سببا لتآكل اسفل الحائط ، وتقويض الاساس ، وكثرة الاهل تعني زيادة الطبخ والوقود ، وقد يجر كثرة الحطب الى حرائق فيأتي على المتاع والغلة وربما امتدت السفة اللهب الى بيوت الجيران ". (١)

ان عدم اهتمام المؤجر بالدار وتخريبه اياها ، يؤدي الى سقوطها في اعين الموسرين واهل الثروة ومن اعين العوام والحشواة . (٢) هذا مع العلم ان غلات الدور من اقل الغلات التي تصيب الفرد المالك لها . (٣) ولو كسدت صناعة المؤجر وقلة ارباحه لا يسكت ابدا عن طلب التخفيف من اصل الثمن ، لا بل يلح على الحط منه . اما اذا اتته الارباح تترى ، فلا يفكر في زيادة قيراط واحد ، ولا يعجل فلسا واحدا قبل وقته . (٤)

ويستأجر بعضهم البيوت بغية الاختلاء بأمراة ليتلاعب بشرفها ، ومتى ما قضى حاجته منها ترك الدار وارجع المفتاح لصاحبها ، وربما اكتراه وبالدار حاجة الى بعض

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٢٧ ــ ١٢٨
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٧
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٨
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٣

الترميم ،فيأتي بالعامل ويشترى بعض ادوات الترميم ،ويطلب الى الجيران ان يعيروه شيئا من الانية والآلة ،كيما يدبر امره ،في اول يوم حلوله في الدار ،فاذا ما شغل العامل وغفل ،حمل كل ما يقدر عليه وترك الجيران يتسكعون . لا يهمه امرهم ان يكونوا فقراء ،اوارامل ، ام قد يستأجر بيتا قرب سجن فيفتح تحت الارض الاقبية والاقنية بغية تخليص من حكم عليهم القانون من دون ان يعمل ضجة او يشعر به احد .(١)

ان نواقص المستأجرين ليس من السهل السكوت عنها ،فكم يحاول المستأجر المماطلة في اداء الايجار من يوم الى آخر ،حتى اذا اجتمعت الاشهر عليه بكرائها فر وهرب وترك ارباب الدار ،وقد يكونوا جياعا او يتمامى باستغل حسن ظنهم فيه وتأمينهم اياه على مالهم عليه من الاموال . وعند تركه الدار ،يبقي فيها اوساخه واقذاره ولا يتخلص منها الا بنفقة كبيرة هذا بالاضافة الى السرقات التي يرتكبها من حمل السلم والبرادة والتخريبات التي تنجم عن استعماله الخاطئ للبيت كالدق في الهاون والمنجان في ارض الدار ،وان كانت الارض مفروشة بالاجر او القرميد دقوا عليها وهكذا يخربون الكثير من الدار ويتركونها دون ان يتحملوا تبعة اصلاح اى شئ منها .(٢)

وعند دفع الايجار كان يرى العجاب من هؤلاء المستأجرين ،يدفع احدهم دراهم مزيفة معطلة،وان ردها عليه صاحب الدار اعتذر وحلف بانها ليست له ولا يعرف عنها شيئا ، هذا بالاضافة الى افساده رسول رب الدار فلو كانت الجارية افسدها ،وان كان غلاما لا يسكت عن الفعل به .(٣)

---

(١) الجاحظ ،البخلاء ،ص ١٣٥
(٢) الجاحظ ،البخلاء ،ص ١٣٠ ـ ١٣١
(٣) الجاحظ ،البخلاء ،ص ١٣٣ ـ ١٣٤

ولو ان امره يقف عند هذا الحد ، لقبل به وتسامحوا معه ، ولكنه يأتي من الامور ما لا يمكن السكوت عنها . قد يبني في الارض المؤجرة ويدعي حق الشركة في البناية .(١) او قد يجني من الاعمال ويرتكب من الموبقات ما يدعو الى هدم الدار التي يسكنها ، كالقتل مثلا او جرح شريف ، فيأمر السلطان بهدم الدار .(٢) ويترك اصحابها يتضورون من الطوى وقد يكون بينهم المريض او الكسيح او العاجز .

والذين يتعرضون للجارات ، ويتعمدون الاشراف عليهن ، واصطياد طيور الجيران كثيرون ، يحتالون بشتى الحيل ويختلقون مختلف الاختلاقات الباطلة ، وهكذا ينازع اصحاب الملكية ملكهم ببنائهم محلا او قسما لمثل هذه الاغراض الدنيئة .(٣)

والجيران عامل مهم جدا في تأجير الدار ، حتى يتأكد من انهم اناس يغلب عليهم الستر واللطف وفي قول ينسب للرسول " الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق " .

كان الكندي يحتال على جيرانه ، وربما قال لاحدهم " ان في الدار امرأة بها حمل ، والوحم ربما اسقطت من ريح القدر الطيبه ، فاذا طبخوا فردوا شهوتها ولو بغرفة او لعقة ، فان النفس يردها اليسر ، فان لم تفعل ذلك بعد اعلامي اياك ، فكفارتك ان اسقطت ، غرة عبد او امة ، الزمت ذلك نفسك ام ابيت " . لذا كان يوافيه احيانا في بيته ، قصاع السكان ، والجيران ما يكفيه الايام . وكثيرا ما كان الكندي يقول لعياله : انتم احسن حالا من ارباب هذه الضياع ، انما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم الوان .(٤)

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٧
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٦
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٤
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٢٤

التهاني بالبيت الجـــديد .

والعادة الجارية ان تقدم التهاني والتبريكات اذا انتقل احد الى دار جديدة وتحمل اليه الهدايا احيانا .[١] (ولا زالت هذه العادة معروفة في بغداد حتى اليوم) والهدايا عادة تكون من الاشياء التي يمكن استعمالها في البيت ، اى ليست هدايا شخصية مما يحمل او يلبس . يقول ابو القاسم عمر بن ابراهيم الزعفراني في تهنئة الصاحب بدار جديدة :

سرّك الله بالبناء الجديد ... نلت حال الشكور لا المستزيد

هذه الدار جنة الخلد في الدنيـ ... ـا فصلها واختها بالخـــلود

قد تولى الاقيال خدمته فيـ ... ـها على رسمه كبعض العبيـد

قال للجص كن رصاصا ولـــلآ ... جر لما علاه كن من حـــديد

فتناهى البنيان وارتفع الايـ ... ـوان حتى اناف بالتشييـــد

وتبدت من فوقه شـــــرفات ... كنساء اشرفن في يوم عـــيد .[٢]

لم تكن البيوت متفرقة بعضها عن بعض بل كانت متقاربة كل التقارب ، وتوجد ابواب بين الاحياء تقفل ليلا في مختلف الحارات .[٣] (وهذا لا يزال معمولا به في بعض الاحياء القديمة جدا من بغداد) . واول من اوجد ذلك المنصور العباسي ومما جعله يقدم عليه ، هو الحرس والخوف من اللصوص .[٣] والحراس يقومون بحراسة الطرق ، والطوف طيلة الليل ، ومن تمام آلة الحارس كما يقول الجاحظ ، ان يكون زميتا قطويا ابيض اللحية اقنى اجنى وصاحب تكلم بالفارسية " .[٤] ولهم مقابل ذلك اجر معين .[٥]

---

(١) ابن الجوزي ، الحمقى والمغفلين ، ص ٤٩
(٢) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ١٣٩ - ١٤٠
(٣) بارتولد ، الحضارة الاسلامية ، ص ٣٢
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٢
(٥) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٢ ، ص ٣٠٣

وســـــائل الـــــراحة .

بامر المحتسب كانت الحارات والشوارع تنظف من قبل الكناسين ، ولهؤلاء عريف خاص يتفقد اعمالهم ويكون مسؤولا امام المحتسب .(١) كل ذلك ليؤمنوا على راحة وسلامة الناس .

لقد عرف الناس ان يهيئوا كثيرا من وسائل الراحة في بيوتهم في مختلف الفصول والمناسبات اذا اشتد الحر في الصيف ، ولم يكن لبعضهم من السعة استعمال الخيش ، لذا كانوا يثيرون الماء حتى يغرق المسحاة ، ثم يصب عليه جرارا كثيرة من ماء البئر ، فيبقى البيت باردا ما دام نديا ، واذا جف قبل انقضاء الصيف ، ولا زال الحر مرابطا اعيدت العملية ثانية .(٢)

اما الذين في متسع العيش فكانوا يستعملون الخيش في الصيف ، ويقيمون منه غرفا يسكنونها ، قال ابو العباس بن رستم : " دخلت مع ابان بن عبد الحميد على عنان جارية الناطفي وهي في خيش فقال لها ابان :

العيش في الصيف × فقالت مسرعة × اذ لا قتال ولا جيش .(٣)

وقال ابن الرومي :

ومقيلي في الصيف سخن بـــلا خيش مغطى يكاد منه يذوب ؟(٤)

وقال غيره : يا احرص الناس على مبصر يرق مستنجاه بالغيـــــــش

حتى متى تتركني في لظـــى حر حزيران بلا خيـــــــش .(٥)

وروى المقدسي انه رأى في دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يبللها الماء على الدوام بواسطة قنى حولها من فوق .(٦) ويظهر ان طريقة التبريد هذه كانت شائعة ببغداد ،

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٢
(٢) الجاحظ ، البخلاء ص ١٦١
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٢٠ ص ٧٦ تقدم
(٤) ابن الرومي ، الديوان ، ص ٥٣٣
(٥) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٥٣
(٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ص ٤٤٩

يحكى عن احد قواد القرن الرابع انه لم ير في فرقة من الجند اتت من بغداد اهلا للقيام بغزوة هامة لانهم في رأيه قد الفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان (+). واستعمل في هذه البيوت الصيفية مراوح واحدتها تشبه شراع السفينة تعلق في سقف البيت ويشد بها حبل يديرها ، وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ، فاذا اراد الرجل ان ينام وقت القيلولة جذبها احد الخدم بحبلها ، فتذهب بطول البيت وتجيء ويهب منها نسيم بارد طيب (١).

ومبثوثة في كل شرق ومغـــرب لها امهات بالعراق فواطـن
يحرك انفاس الرياح حـــراكها كأن نسيم الريح فيهن كامن (٢). (+)

وفي ليالي الصيف كما بينا سابقا كانوا ينامون على السطوح ويتخذون الكلل (الناموسية) لتقيهم شر البعوض (٣). والمقدسي يقول " يستعملها الناس في البصرة لكثرة الندى هناك " (٤). وهذا صحيح لان ندى البصرة مزعج وينفي الكرى عن الاجفان ان لم يكن الانسان متعودا على المناخ هناك .

وكما كوفح البعوض في الليالي كوفح النمل في الدار ايضا ، وذلك بان يعمد الى قحف او جبين خروف مطبوخ او عظمة كبيرة توضع بقرب بيت النمل فيجتمع اليه بالالاف ، فيؤخذ ويغطس في طست ماء ، فلا يزال يعاد ذلك في المواضع المختلفة التي اعرفت بالنمل حتى يقلع اصله من الدار (٥). ولتنظيف الدور استعملوا المكانس للكنس والجيدة منها كانت تحمل من مرو (٦). وفي تنظيف وغسل الجسم والملابس استعملوا الصابون (٧). وحمل

(+) ولا يستغني العراقي اليوم عن طريقة التبريد هذه . اذ تعمل مطارح الشوك الندى ويسمى (العاقول) وتعلق على الشبابيك وتبلل بالماء دائما من انابيب في اعلاها . ومنهم من يغلف الشوك بالخيش ليساعد على طراوته وعدم تعرضه للشمس فيجف ولا تعد به فائدة .

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٧٤ ، ج ٢
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ١٦١ ، (+) وهذه المراوح ليست بغريبة على العراقي ، لانها لا زالت مستعملة في كثير من اقسام العراق . وترى في بغداد في دكاكين الحلاقين بالاحياء القديمة المتأخرة .
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٩٧ ، (٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٢٥
(٥) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٤٢ ، (٦) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٣٩
(٧) ياقوت ، الارشاد ، ج ١ ، ص ٣٨

احيانا مع الهدايا .(١)

اما في الماء والسقي ،فلم تكن ابار البيوت لتفي بالمطلوب بل كان الغلمان يستقون الماء على ظهور البغال من دجلة .(٢) واضافتهم في كثير من الاحيان كانت بالشمع لذا كانوا يصرفون كميات هائلة منه ،مثلا رطل شمع لليلة واحدة ،(٣) واستعمل السراج ايضا في الانارة ،ويتألف من قارورة الزيت وفي وسطه فتيلة .(٤) ووجود الحمار في الدار كان امرا ضروريا جدا حيث يستقى عليه الماء وعليه يطحن ،وبهذا لا يمكن الطحان من الريح ،وتنقل عليه مختلف الحوائج حتى الحطب ،ولا يقل وجود الشاة اللبون في البيت عنه اهمية . لان جميع هذه الفوائد اذا جمعت في السنة كانت مالا كبيرا .(٥)

اثـــــاث البـــــيوت .

استعملوا في عصور البذخ مختلف انواع الادوات من فضة وذهب وبلور ،ونحاس وفخار ، نذكر بعض الضروري منها . فالكوز استعمل للشرب والوضوء .(٦) وصنع في تونس من الخزف كيزان للماء عرفت بالريحية ،شديدة البياض في نهاية الرقة ،فكاد تشف لم يعرف لها نظير في الاقطار .(٧) والمزملة لحفظ الماء باردا . والجرار الراشحة والحباب القاطرة (ولا يستغنى عنها اليوم في اى بيت من البيوت العراقية غني كان ام فقيرا) كذلك استعملوا الاجانة والقدور والمقلى للقلي والقصعة والهاون والمنجان ومجشة لجش الرز وغربيل ورحى وقرب النبيذ وقوارير وخوابي وزقاق .(٨) وصواني (عرفت بهذا الاسم نسبة

---

(١) التنوخي ،الفرج بعد الشدة ،ج ٢ ،ص ٤ ،الاصفهاني بالاغاني ،ج ٥ ،ص ٣٩١
(٢) الثعالبي ،اليتيمة ، ٣ ،ص ١٣٧
(٣) ابن منكوبه ،شراب الامم ،ج ٣ ،ص ٧٣
(٤) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ١٣ ،ص ٢٦ تقدم ،الجاحظ بالبخلاء ص ٣٥
(٥) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٦٦
(٦) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٣١ ـ ٣٢
(٧) ياقوت ،البلدان ،ج ٢ ،ص ٤٣٣
(٨) البخلاء ،الجاحظ ،ص ١٨٠ و ١٢٨ و ٧٠ و ٤١ و ١٥٣ و ١٨٠ و ٢٥٠ و ٢٠٦ و ٢٢٧ و ٢٦٠

للصحن الذى اتت منه اى الصين) . (١) واستعملت اطباق البلور والذهب والفضة وغالبا قدمت بها الهدايا . (٢)

اما الفرش فكان كثيرا متنوعا لا يمكن حصره وعده تحت انواعه واشكاله المختلفة ، فالبوارى (جمع بارية) والحصر فرشت بها الارض (٣) وكان لبسط ارمينيا شهرة وعدت في الفرش الفاخر مع زلالي قاليقال ومطارح ميسان وحصر بغداد وستور نصيبين ، وكان يحمل للسلطان من خراج ارمينيا كل عام حوالي ثلاثة عشر الف الف درهم ، ومن البسط المحفورة ثلاثون بساطا ومن الرقم خمسماية وثمانون قطعة . (٤) ويأتى عملت السجادات الطبرية والبسط الحسان . (٥) والزوالي (٦) . والزوالي الايرانية لم يدانها فرش ، ولا تزال الوحيدة من نوعها في العالم اجمع .

ان ملء الحجرات بالاثاث لم يلائم ذوق اهل العصر ، لا بد كانوا يتركون فراغا في الغرفة للستور والبسط ذات الالوان المتنوعة الزاهية وهي معلقة على الحيطان . وكانت التخوت الاثاث الوحيد في الغرف وفيها تحفظ الملابس . (٧) واستعمل بعض كبراء القرن الثالث والرابع خوانات مصنوعة من خشب الجزع ، وكذلك بعض ادوات المائدة . (٨) ثم استعملت الخوانات الموصولة القوائم ، واخذ حجم هذه الخوانات يزداد باستمرار حتى ان المقتدر عندما اهدى ابن الفرات ثلاث موائد ، استدارة الكبرى منها خمسون شبرا ضاق الباب عن دخولها فقلع ووسع الموضع لادخالها . (٩) اما دواوينهم وايواناتهم ففرشت بالفرش

---

(١) الثعالبي ، ثمار القلوب ص ٤٣٢
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ١٧٩
(٣) البخلاء ، الجاحظ ، ص ١٦٥ ، ابن مسكويه ، التجارب الامم ج ١ ، ص ٧٨
(٤) الثعالبي ثمار القلوب ص ٤٢٨
(٥) ياقوت ، البلدان ، ج ١ ، ص ٦٣
(٦) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٢٧
(٧) الصابي ، الوزراء ، ص ١٧٢ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٠
(٨) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٥٧ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ق ٢٦٩
(٩) الصابي ، الوزراء ، ص ٦٥

والمطارح واتخذت لها المتكأة من طنافس الحرير والاطلس والديباج وغيره . واتخذت الصناديق لحفظ مختلف الحاجيات على وجه التعيين . وفي الشتاء اتخذوا اسرة معمولة من القصب المقشر ، لان البراغيث تزلق عن ليط القصب لينه وملاسته . (١) وللمطبخ استعملوا ادوات الصفر (ولا يزال كثير من العراقيين يستعملها اليوم) .

صورة لبيوت اهل العصـــــر .

احدث المتوكل في ايامه بناء لم يكن يعرفه الناس من قبل ، وهو المعروف بالحيري والكمين والاروقة ، اتبع ذلك في القصور الكبيرة ، فصار يبنى لها مقدم او ثلاثة اجزاء اوسطها الباب الاكبر ، فالرواق مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنه وميسره . ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق واسع الصدر جدا والكمين والابواب الثلاثة على الرواق ، وكانت من الكبر والعظم بحيث يدخل منه الفارس برمحه ، فسمي هذا البناء بالحيري نسبة الى الحيرة . (٢) وكان قد اخذ عن الاصل الهليني . اذ جاء في التقرير المتقدم عن حفائر سامراء ان الباب الاوسط كان يزيد البابين الجانبيين في الارتفاع فهو منقول عن طريقة الهلينين (المتأثرين بالحضارة اليونانية المتأخرة) في بناء ابواب الشوارع واقواس النصر . (٣) وكان قصر التاج الذي بني في بغداد بعد ذلك باربعين سنة صورة مكبرة للطراز الحيري ، كان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل واحد منها على عشرة اساطين ، والاسطوانة خمسة اذرع . (٤) ونقل ابن طولون طريقة البناء هذه

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٦١
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ، اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٦٦
(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، م ٢ ، ص ١٢٦
(٤) ياقوت ، البلدان ، ج ١ ، ص ٨٠٩

الى مصـــر .[١] وانفق المعتضد بالله على قصره المعروف بالثريا اربعمائة الف دينار ، وكان طول هذا القصر ثلاثة فراسخ .[٢] وقال ابن المعتز يصف قصر الثريا :

حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معمورا وبورك من قصر .
وبنيان قصر قد علت شرفـاته كصف نساء قد تربص في الازر .[٣]

ويطول الكلام بنا عن قصور الخلفاء وما وجد فيها من كل غريب ونفيس ، سواء كان ذلك في طريقة البناء ام فيما حوته من فاخر الاثاث والرياش . لم يكن القصر بناية واحدة بل اشتمل على دور وبساتين ومسطحات مظللة بالاشجار وقباب واروقة فزادت البرك والانهار الجارية في فتنة وسحر مناظره ، وكم تفتقت السنة الشعراء فجاؤا بغرر القصائد . يقول البحتري في بركة المتوكل قصيدته :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها نعم ونسألها عن بعض اهليها
ومنها : يا من رأى البركة الحسناء رؤيتهـا والانسات اذا لاحت مغانيهـا
بحسبها انها في فضل رتبتهـــا تعد واحدة والبحر ثانيهـــا
تنصب فيها وفود الماء معجلـــة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلـــــة من السبائك تجرى في مجاريها
اذا النجوم تراءت في جوانبهـــا ليلا حسبت سماء ركبت فيهـــا .[٤]

ودخل ابو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري ، فقال له : كيف قولك في دارنا هذه ، فقال : ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وانت بنيت الدنيا في دارك .[٥]

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٥
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٦٨
(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٧٧
(٤) البحتري ، الديوان ، ج ١ ، ص ٢٦ — ٢٨
(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٧١

اما دار الشجرة ، فهي دار في الدار المعظمة الخليفية في بغداد من ابنية المقتدر بالله ، كانت فسيحة ذات بساتين انيقة، سميت بالشجرة لشجرة بنيت فيها من الذهب والفضة ، في وسط بركة كبيرة مدورة امام ايوانها ، وبين شجر بساتينها ، ولها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجواهر على شكل الثمار وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها صفرت باصوات وهدير عجيب ، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارسا ومثله عن يسار البركة ، وقد البسوا انواع الحرير المديج مقلدين بالسيوف ، وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن ان كل منهم يسير قاصدا صاحبه . (١) ويحكى عن الخليفة القاهر انه كان يجلس في البيت المعروف ببيت الرصاص وبين يديه نهر يجرى فيه الماء الى دجلة . (٢) ودار الخيل من دور الخلافة المعظمة ببغداد ، كانت دارا عظيمة الارجاء عادية البناء ، لها صحن كبير حوالي الف ذراع ، كان يوقف عليها في الاعياد ، وعند مجيء الرسل من الخارج خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضة كل فرس منها على يد شاكرى . (٣)

لم تقتصر هذه البيوت الكبيرة على الخلفاء فقط بل على الكبراء ايضا ، اذ كانت قصورهم مؤلفة من عدة دور ، كان معز الدولة قد بنى دارا صرف اليه عنايته فعظم المجالس وفخم البناء ، ووصل بها من الاصطبلات ما يسع الالوف ، وجعل على كل اصطبل بابا من حديد وانفق عليها اثنى عشر الف الف درهم سوى ما استعمل من معادن الجص والنورة والاسفيذاج فلما توفي جعلها ولده عز الدولة دار الموكب ، ولم يكن يحضرها الا عند البروز للعسكر ، ولما عمر بهاء الدولة داره في سوق الثلاثاء اراد ان يستعمل بعض الاجر المستعمل في الاصطبلات فدب الخراب فيها وقرر بهاء الدولة ان يقلع السقف الساج المذهب من بيت العائد

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٩
(٢) الصابي ، الوزراء ، ص ٤٢٠
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٧

وكانت قد انفقت عليه الاموال العظيمة ، فلم يتم له ذلك اذ بذل ثمنا لمن يحك ذهبه ثمانية الاف دينار، فلم يقبل الرجل فامتدت يد الجند الى آخر آجرة ثم نقضت وبيعت آلاتها .(١) ويحكى عن الوزير ابن الفرات انه انفق على الدار التي كان يسكنها في وزارته الثانية ثلاثماية الف دينار ، واشتهى في وزارته هذه ان يجمع حرمه وبنات اخوته واصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان من الدار الكبرى ، فامر باصلاحها وتنظيفها وانفاق ما يحتاج اليه في اعدادها ، فبلغت النفقة خمسين الف دينار .(٢) ويلي الابواب من داخل القصر ، البهو وهو مقدم الدار واعلاها بناء ، ويقف شامخا بشرفاته الجميلة .(٣) ودار دينار المنسوبة الى دينار بن عبدالله من موالي الرشيد ، وكان عظيما ايام المأمون ، تشمل هذه الدار على محلتين ببغداد يقال لاحداهما الكبرى وللاخرى دار دينار الصغرى ، وهي في الجانب الشرقي على دجلة . واياه عنى المؤيد الالوسي :

نهر المعلى لشاطئ دار دينـــار مجامع العيس اوطاني واوطاري
حيث الصبا ناعم والدار دانيـــة والدهر يأتي على وفقي وايثاري
والليل بين الدمى والغيد مختصر قصير ما بين روحاتي وابكاري
وقد تطاول حتى ما تخيل لـــي ان الزمان لياليه باسحـــاري .(٤)

وقال احدهم "كان لداري اربعة عشر بابا الى اربعة عشر سكة وشارعا وزقاقا نافذا ، ومنها عدة ابواب لا يعرف جيرانها انها تفضي الى داري واكثرها عليه الابواب الجديدة ".(٥)

وفرش هذه البيوت لم يقل هيبة وجمالا عن نوعية البناء ، فالسطوح مغطاة بخشب الساج ، الدرجات ملبسة بالابنوس والعاج ، كذلك الشرفات والطارمات . اما غرف الزوار

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٣١
(٢) الصابي ، الوزراء ، ص ١٧٩
(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٧٧
(٤) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٧
(٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٣٣

فمفروشة بالسجاد المغربي والحصر الكاشانية والبسط الطويلة صنع اندلوسية وفرناطة ، واغطية القطيفة اليونانية ، وديوانات تستر ، وعند الاكل كانوا يفرشون بسط الجلد الموشاة بخيوط الذهب من عمل المغرب .(١)

اما الطبقة الوسطى فلم تكن دورها بالعظمة التي رأيناها عند هؤلاء ، كان يتألف البيت من دار مجصصة ذات صحن واحد فيه بستان بمجلس واحد عامر ، او مجلسين متقابلين وخزائن ومستراح وصحن كبير ، وفيها غرف كبيرة مفروشة بفرش حسن ، وفي الدار ثلاثة او اربعة غلمان وخادم ووكيل يتسوق ، واكلهم ليس بالمسرف او المقصر به ، فهو طعام نظيف جهد ، ونبيذ تمر جهد ، ومشام ورياحين ، وقطع ند للتبخر ، ولو زار رب البيت ضيف وتاق لسماع شئ من الالحان ، ففي الدار عدة جوارى ، فتمد لهن ستارة ويغنين من ورائها ، وقد لا يقد رأس مال عائلة كهذه عن الاربعين الف دينار .(٢)

وكم سكن الفقراء المساكين بيوتا قديمة البناء تكاد تنهدم عليهم ، وليس باستطاعتهم تبديلها او تغييرها لان حالتهم المالية لا تسمح لهم بذلك . يحكى ان احدهم استأجر دارا وكان خشب السقف يتفرقع كثيرا فلما جاء رب الدار يطالبه بالاجرة ، سأله ان يصلح السقف . فاجاب رب الدار ، ان لا بأس عليه لانه يسبح لله فقال المستأجر : اخشى ان تدركه الرأفة فيسجد .(٣) في الحقيقة انها نادرة لطيفة تدل على روح الفكاهة عند الاثنين ، ولكنها تعطي صورة واضحة عن بعض ما تذوقه الفقراء يومئذ .

---

(١) Levy, Sociology of Islam P. 180 - 181 V-1

(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٦ ، التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٩١ - ٩٢

(٣) ابن الجوزى ، الاذكياء ، ص ١٤٢

الفصـــــل الثالـــــث

اللبـــــــاس

لا شك ان الثوب والنعمة لعبا دورا مهما في حياة اهل العصر ، وغيرا الكثير من طراز معيشتهم ، واخلاقهم واذواقهم ، واللباس اهم مظهر من مظاهر ذلك التغيير ، وتلك الثورة الاجتماعية في حياة العربي ، الذى ترك الصحراء ولم يكن يعرف حينئذ من الملبس سوى الجلباب الواسع يربطه بزنار، وعباءة، وكوفية يربطها بعقال ، واحيانا خفين بسيطين في ارجله . ان روحه القابلة للتكيف ونفسه الوثابة لكل جديد وغريب ، مما كان للروم وللفرس ، ساعداه على الاخذ السريع ، فلبس الجميل والغريب من صناعة ايران ومصر والشام وارمينية وغيرها من الاقطار .

انـــــواع الاقمشـــــة .

كان لصناعة فارس مركز خاص ، فاقت معظم صناعات البلدان الاخرى ، في النسيج وجمال الصنع ، وسمت العرب كل ثوب صفيق يحمل من خراسان ، المروى ، وكل ثوب رقيق يجلب منها الشاهجاني ، لان مرو عندهم ام خراسان ، ويقال لها مرو الشاهجان ، وقد بقي الى الان اسم الشاهجان على الثياب الرقيقة . ومما تختص به مرو من الثياب ايضا الملحم (١) . ومن نيسابور ثياب البيض الحفية والبيبان ، والعمائم الشهجانية الحفية ، والراختج والتاختج ،

---

(١) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٣١

والملاحم بالقز والمصمت والعتابي ، والسعيدي والطرائفي ، والمشطي والحلل وثياب الشعر والغزل .[١] والثياب النيسابورية الرقاق .[٢] ومن سرخس العصايب والمقانع المنقوشة بالذهب[٣] وفي تبريز تصنع الثياب العبائي والسقلاطون والخطائي والاطلس والنسج ما يحمل الى سائر البلاد شرقا وغربا .[٤] وقيم الثوب السقلاطوني بخمسة دنانير .[٥] ومن جرجان الابريسم ، وثياب الابريسم ما يحمل الى جميع الافاق .[٦] ولدبيقي شستر شهرة خاصة اذ بيعت الشقة منه بمائتي دينار .[٧] وفي تستر من اعمال خوزستان يحمل الديباج ويحمل الى جميع الافاق ، وكذلك الطرز للسلطان ، وبها عملت الستور المشهورة ، وبرامهرمز عملت ثياب الابريسم .[٨] وكان لبرود الرى منزلة كبرود اليمن ، ويقال لها العدنانيات ، تشبيها لها ببرود عدن من اليمن ، ومن طبرستان المناديل الرفيعة .[٩] قال الهرثمي :

هب البرد بالرى لم ينسج وفي سفط البز لم يدرج

رسولك ذاك الذى قال لي تجئ مع الفجر لم لا يجي

ومن خصائص الرى الثياب الحسنة والمقارض الرشيقة والامشاط الفائقة .[١٠]

ان صناعة النسيج المصرية التي جلبت الى سواحل سوريا في عهد الخلافة ظهر تأثيرها في ايران وتركستان واخذوا في نسجها كما كانت تنسج في مصر .[١١] فالدبيقي نسبة الى دبيق بلده كانت بين الفدما وتنيس من اعمال مصر .[١٢] بينما القزويني يقول :

---

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٣٢٣
(٢) النويري ، نهاية الارب ج ١ ، ص ٣٥
(٣) القزويني ، اخبار البلاد ، ص ٢٦١
(٤) ياقوت ، البلدان ج ٢ ، ص ٣٦٣
(٥) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٣ ، ص ٦٧
(٦) ياقوت ، البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥
(٧) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٩ ، الصابي ، الوزراء ، ص ٣٢٧
(٨) ابن حوقل ، صورة الارض ج ٢ ، ص ٢٥٦
(٩) القزويني ، اخبار البلاد ، ص ٢٢٠
(١٠) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٨ ، النويري ، نهاية الارب ج ١ ، ص ٣٤٩
(١١) بارتولد ، الحضارة الاسلامية ، ص ٣٨
(١٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٤

" الثياب الدبيقي من اسيوط في مصر " .(١) وفي دمياط وتنيس تعمل الحاكة الثياب الرفيعة ، قال القزويني اخبرني بعض وجوه التجار وثقاتهم انه بيع في سنة ٣٩٨ هـ حلتان دمياطيتان بثلاثة الاف دينار وهذا مما لم يسمع بمثله في بلد .(٢) كذلك يحمل من تنيس الثياب النفيسة الملونة والفرش الحسن والثياب والابوقلمون .(٣) ومن دمياط يحمل الفرش القلموني من كل لون ، المعلم والمطرز ، ومناشف الابدان والارجل كانت تتحف بها ملوك الارض .(٤) وهكذا لبسوا الحرير والقطن بالالوان المختلفة .(٥) والكتان كذلك .(٦)

شـــــكلها ووصفهـــــا .

كان للمعادن الكريمة مكان لائق في لباسهم وزينتهم . يحكى ان بعث المعتضد الى اسماعيل بن احمد بهدايا منها مائة بدلة ديباج منسوجة بالذهب مرصعة بالجوهر ، ومنطقة ذهب مرصعة بالجوهر ايضا .(٧)

اشتهرت اليمن ببرودها ، كذلك وشي اليمن ، وعصب اليمن ، ويضرب بها المثل في الحسن وتشبه بها الرياض والالفاظ كما قال البحتري :

جئناك نحمل الفاظا مدبجة كأنما وشيها من يمنة اليمن

ويقال في نفائس الملابس : برود اليمن وربط الشام واردية مصر واكسية الدامغان وتكك ارمينية وجوارب قزوين .(٨)

---

(١) القزويني ، اخبار البلاد ، ص ٩٩
(٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٦
(٣) القزويني ، اخبار البلاد ، ص ١١٨
(٤) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٦
(٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٨٠
(٦) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٨٤
(٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠١
(٨) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٤

وكان الخز بالبصرة ، وبزها وطرائفها مشهورة ، وهي فرضة البحر لذا تحمل منها الاتن والجواهر . وبالابلة عملت ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب ، والكوفة امتازت بعمائم الخز . اما مدينة السلام ففيها الطريف والغالي الجميل ، مما تشتهيه القلوب وتتطلبه الانفس من الوان ثياب القز وغيره من عمائم يكافكي رفيعه ومناديل القصرية والبوبية ويصنع بالنعمانية مناديل القصرية والبوبية ومن واسط الستور .(١)

تغير زي الناس مرات عديدة خلال القرون العباسية ، ففي سنة ١٥٣ هـ امر المنصور بلبس القلانس الطوال ، والدراريع مكتوب عليها بين كتفي الرجل "فسيكفيكهم الله" كما امرهم بتعليق السيوف في اوساطهم ، فدخل عليه ابو دلامة ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التي امر بها الخليفة ، فقال له : كيف اصبحت يا ابا دلامة ؟ قال : بشر . قال المنصور : كيف وبلك ؟ قال : ما ظنك برجل وجهه في نصفه ، وسيفه في استه ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فامر المنصور بتغيير الزي ، وقال ابو دلامة هذا لما امر المنصور بما امر به :

وكنا نرجي من امام زيادة ... فزاد الامام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس .(٢)

ولما اتصل اهل اوربا بالشرقيين ايام الحروب الصليبية نقلوا الى بلادهم هذه القلانس الطوال ومعها الخمر وجعلوها لباس النساء في الغرب .(٣)

---

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٢٨
(٢) متز ، الحضارة الاسلامية مج ٢ ، ص ١٨٧
(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٧

لبـــــاس الرجـــل .

تشبه المعتصم بملوك الاعاجم ، فلبس القلانس والشاشيات واقتدى الناس بفعله فلبسوها وائتموا بها ، فسميت المعتصميات .(١) والمتوكل اظهر لباس ثياب الملحم وفضلها على سائر الثياب ، فارتفع ثمن الملحم لاهتمام الناس بصناعته وبالغتهم بلبسه ، وبقيت تلك الثياب تسمى بالمتوكلية ، التي هي نهاية في جودة الصنع والحسن .(٢) واحدث المستعين لبس الاكمام الواسعة ، ولم يكن يعهد ذلك من قبل فجعل عرضها ثلاثة اشبار او نحو ذلك وصغر القلانس وكانت قبل ذلك طوالا كأقباع القضاة .(٣) لقد استعملوا الاكمام الواسعة وقامت لهم مقام الجيوب فكان الانسان يحفظ فيها ما يحتاج اليه مثل الدنانير .(٤) والمهندس يضع فيها ميله .(٥) والصيرفي يضع فيها رقاعه .(٦) والخياط يحمل فيها الجلم .(٧) والقاضي يضع فيها الكراسة التي يقرأ فيها خطبة يوم الجمعة .(٨) والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها .(٩) يقول المقدسي : " ومن رسومهم التجمل والتطيلس يكثرون التنقل وتسبطل العمائم ولبس الشروب ، واقل ما يقورون الطيالسة .(١٠)

قال الوشاء " كان زي اللباس المستحسن عند سروات الناس من الرجال الظرفاء وذوي المروة الادباء الغلائل الرقاق والقمص السفاق من جيد ضروب الكتان الناعمة النقية الالوان ، مثل الدبيقي والجنابي والمبطنات التاختج والخامات ودراريع الدرجرد والاسكندراني والملحم الخزي والخرساني ومبطنات القوهي الرطب وازر القصب الشرب والاردية المحشاة

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٠٢
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٧
(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ٤٠٢
(٤) ياقوت ، الارشاد ، ج ١ ، ص ٢٥٤
(٥) ياقوت ، الارشاد ، ج ٢ ، ص ٤٩
(٦) ياقوت ، الارشاد ، ج ١ ، ص ٣٩١
(٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٤٥
(٨) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٠
(٩) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٦٩
(١٠) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٢٨

المدنية والطيالسة الملحم النيسابورية والمصمتة الطرازية ، والوشي السعدية والخزوز الكوفية والمطارف الشوسية والاكسية الفارسية والطيالسة التوسية الزرق السلولية ".(١) كانت الشعراء تلبس الوشي والمقطعات والاردية السود وكل ثوب شهر . قيل :

بسـع بردك الاسود قبل البرد في مدة تأتيك حما صرد .(٢)

وقد يلبس الناس الخفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء ، اذا دخلوا على الخلفاء وعلى الامراء وعلى السادة والعظماء ، لان ذلك من باب التعظيم والاجلال ، وابعد من التبذل والاسترسال ، وفضلوا ان يفصلوا بين مواضع انسهم في منازلهم ومواضع واجباتهم الرسمية . وكان للخلفاء عمه ، وللفقهاء عمة ، وللبقالين عمة وللاعراب عمة ، وللصوص عمة ، وللابناء عمة ، وللروم والنصارى عمة ، ولاصحاب التشاجي عمة ، ولكل قوم كذلك زيه الخاص ، فللقضاة زى ولاصحاب القضاة زى ، وللشرط زى ، وللكتاب زى ، ولكتاب الجند زى ، ومن زيهم ان يركبوا الحمير وان كانت البغاليج لهم مبذولة .(٣)

يقول ابن حوقل عن زى اهل فارس " واما زيهم فكان السلطان زيه الاقبية وقد تلبس سلاطينهم الدراريع وان كانوا فرسا ومن لبس الدراريع منهم اوسع فروجها وعرض جريباناتها وجيوب دراريعهم كدراريع الكتاب والعمائم تحتها القلانس المرتفعة ويلبسون السيوف بحمائل وفي اوساطهم المناطق وخفافهم تصغر عن خفاف اهل خراسان وقد تغير زى سلطانهم في وقتنا هذا ، لان الغالب على اصحابه لباس الديلم ، وقضاتهم يلبسون الدنيات وما اشبهها من القلانس المستمرة عن الاذنين مع الطيالسة والقمص والجباب ولا يلبسون دراعة ولا خفا بكسرة ولا قلنسوة تغطي الاذنين ، وكتابهم يلبسون ملابس كتاب العراق ولا يستعملون القبى ولا الطيلسان ، وتناؤهم بين لباس الكتاب والتجار من الطيالسا

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٢٤
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٧٨
(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٧٧ - ٧٨

والاردية والاكسية القومسي والخز والعمائم والخفاف التي لا كسر فيها والقمص والجباب والمبطنات ويتفاضلون في جودة الملابس وحسن الزي ، وزيهم كزي اهل العراق .[١] وتزي اهل مصر ، الشيوخ واهل اللغة والفقه والعدالة منهم بالقلانس الطوال ، حتى انهم بالغوا فيها فامرهم ابن ابي الليث بتركها ومنعهم لبسها .[٢]

وكان لاصحاب السلطان ومن دخل الدار مراتب . فمنهم من يلبس المبطنه ، ومنهم من يلبس الدراعة ، ومنهم من يلبس القباء ، ومنهم من يلبس الباز يكند ويعلق الخنجر.[٣] ولبس الخطباء الاقبية والمناطق .[٤] ويقول الجاحظ ويلبسون كساء قومسيا خفيفا ومبطنة وجبة محشية ، وملاءه فزارية وملحفة وطيلسان وقلنسوة .[٥] ويحمله الرجل في ظهره هميان لحفظ المال فيه[٦] كما انهم كانوا يلبسون ممطرا او برنسا عند المطر .[٧] وكانوا يستعملون النشاء لتجميل الملابس .

لم يتسنى للعوام الفقراء ان يظهروا بما ذكرناه من انواع الملابس ، بل لبس الرجل رداء وجبة قصيرة وقميصا طويلا ، وفي رجليه جرموقان ويكون بلا سراويل .[٨] والعامي المسكين كان مجبرا ان يرقع ثيابه .[٩] ويخصف نعله ، ويقلب خرقة القلنسوة اذا اتسخت ، ويتخذ قميص الصوف جبة في الشتاء .[١٠] يقول ابن الرومي : "ولي الخف ذو الرقاع"[١١] بينما الذين كان مواليهم من سراة القوم تنعموا بالغالي والثمين من الثياب ، حتى ان بعضهم وكان ملاحا لسفينة لبس قباء الديباج وعمائم القصب .[١٢] ولبس التاجر الغني ،

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠
(٢) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٤٦٠
(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٧٨
(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٢٨
(٥) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٩٣ و ص ١٦٧
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٩٤
(٧) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٠٥
(٨) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٢١
(٩) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٦١
(١٠) الجاحظ البخلاء ، ص ١٦٦
(١١) ابن الرومي بالديوان ص ٥٣٤
(١٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ١٤١

والغني من الناس قميصين ورداء فوق السراويلات . (١) ثم حل الخفتان محل الملابس العربية ، والخفتان من جملة ملابس ادباء الشام . ولما ركب الخليفة المقتدر ركبته الاخيرة في قتال مؤنس كان عليه خفتان . (٢)

ولم يكن يحسن بالملوك لبس الملونات والمصبغات لانها من لباس الغلمان والنسوان ، يقول الثعالبي " ليس لهم غير الحفي النيسابوري والزيادي السمرقندي والملحم المروزي والمتالي الفارسي . (٣) ويقول الوشاء " ليس يستحسن لبس الثياب الشنعة الالوان المصبغة بالطيب والزعفران مثل الملحم الاصفر والدبيقي لان ذلك من لبس النساء ولبس القينات والاماء ، وقد يلبسون ذلك في الفصد والعلاجات ووقت الشراب والخلوات الغلائل الممسكة والقمص المعنبرة والاردية الملونة والازر المعصفرة وربما استعملوها لفرشهم ولبسوها في وقت قصفهم وتظرفوا بها في مجالسهم وتحفظوا بها في منازلهم والظهور فيما قبيح بالسوقة والظرفاء مستحسن عند اهل النعم وابناء الخلفاء وليس يجهز اهل الظرف والادب لبس الشئ من الثياب الدنسة من غسيل ولا غسيلا مع جديد ولا الكتان مع المروى ولا البلبياف مع القوهي ايضا ... واحسن الزى ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق ." (٤)

جاء في الطبرى "في سنة ٢٣٥ هـ امر المتوكل باخذ النصارى واهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير وبين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس ساليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذى عليه ، وان تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره والاخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر اربع اصابع ولونهما عسليا . ومن لبس منهم عمامة

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ،
(٢) نفس المصدر
(٣) الثعالبي ، خاص الخاص ص ٤٠
(٤) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٢٥

فكذلك يكون لونها اللون العسلي ومن خرج من نسائهم فبرزن فلا تبرز الا في ازار عسلي، وامر باخذ ماليكهم بلبس الزنانير ومنعهم لبس المناطق ".(١) وذكر اليعقوبي ان "امر المتوكل بلبس اهل الذمة الطيالسة العسلية وركوبهم البغال والحمير بركب الخشب والسروج التي فيها الاكر ولا يركبوا الخيل والبراذين ويصيروا على ابوابهم خشبا فيها صورة الشياطين ".(٢) وقال ابو يوسف "يجب ان يجعلوا في اوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم وبان تكون قلانسهم مضرية وان يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرانة من خشب وبان ويجعلوا شراك نعالهم مثنية ولا يحذوا على حذو المسلمين وتمنع نسائهم من ركوب الرحائل وتكون قلانسهم طوالا مضرية ".(٣)

وصف الثعالبي الحلة الكاملة للرجل فقال : " تتالف من جبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ".(٤) (وقد تكون جميع الحلة احيانا من الخز). وكانت السراويلات مما يكمد به لباس الرجل ، والسراويلات لباس غير عربي(٥) وكانت طوائف العمال الثلاثة الكبرى تتميز بلباسها ، فالكتاب لبسوا الدراريج .(٦) وهي ثياب مشقوقة من الصدر والعلماء يلبسون الطيلسان .(٧) والقواد يلبسون الاقبية الفارسية القصيرة وسرعان ما اصبح القباء اللباس الرسمي لرجال الدولة . حتى اصبح لا يدخل المقصورة يوم الجمعة الا من كان من الخواص المتميزين بالاقبية السود ، ولما حضر بعضهم مرة بدراعة رد حتى مضى ولبس القباء .(٨) وعدت الجوارب من متممات الخلعة كما بينا ، وضرب المثل بجوارب قزوين . وكم ضربت الامثال في الهجاء بنتن الجورب :

---

(١) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ١١ ، ص ١٣٨٩
(٢) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ٢١١
(٣) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٧٢ - ٧٣ Tritton, The Caliphs and their non Muslim Subjects p.117
(٤) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ١٧٢
(٥) الصابي ، الوزراء ، ص ١٧٦
(٦) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٩
(٧) المقدسي ، احسن التقاسيم ص ٢٤٩
(٨) متز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ١٩٠

غزا ابن عمير غزوة تركت له نتنا كريح الجورب المتمزق

وقال آخر: اثنى علي بما علمت فانني اثني عليك بمثل روح الجورب (١)

وقال ابن الرومي :

منتنة تضحي قلنسواتهـــــا انتن ارواحا من الجـــــورب . (٢)

ولبس الجوارب الرجال والنساء على السواء من الخز والمرعزى والقز . (٣) فبهذا الزى وبتلك الملابس عرف الرجل في عصور الزهو العباسيه .

لباس المـــــرأة

اما المرأة ، فقاقت الرجل بالمبتدع والمبتكر باللباس ، ولا غرو ان تكون السباقة في هذا الميدان ، فهي نفسها زينة وحلة ، فكم بالحرى لو حاولت التفنن في ابراز تلك الزينة وجلائها ؟ لا شك انها تأتي بالعجب العجاب لا سيما والمال متوفر لديها . تمتعت الكثيرات من الحرات والجواري بما لم تتمتع به امراة في اى عصر من العصور، انساقت اليهن الثروات ، ومل حجرهن بالجواهر والذهب ، ولعبن بالدر واللالي ، وبانت المرأة لاسيما البغدادية بملابسها الحريرية المحبوكة بخيوط الذهب والعنبر وبالاقمشة الصينية المنقوشة بشبه ازهار الربيع ، التي تحاكي الهواء والسراب خفة . (٤) بانت كاحدى حوريات الجنان لبريق ما عليها من الجوهر والذهب ورقيق الديباج ومختلف انواع الحرير . وكانت بنات الطبقة العالية دائما المثال الذى يحتذى به ، بما كن يستنطبنه من الجديد والغريب بالزى والمظهر . فعليه بنت المهدى ، كانت من احسن النساء واظرفهن . يقول الاصفهاني : قال علي ابن محمد النوفلي عن عمه " كان في جبينها فضل سعة حتى تسمح

---

(١) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٤
(٢) ابن الرومي ، الديوان ، ص ٤٢٦
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٦ ، ص ٨٥ ، الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٢٥
(٤) Levy, A Baghdad Chronicle P. 180

فاتخذت العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها ، فاحدثت والله شيئا ما رأيت فيما ابتدعته النساء واحدثته احسن منه ." (١) تفننت النسوة في تلك العصائب وكتبن فيما رقيق الاشعار المطرزة بخالص الذهب والجوهر ، كتبت احداهن :

ظلمتني في الحب يا ظالم والله فيما بيننا حاكم

واخرى : مالي رميت فلم تصبك سهامي ورميتني فاصبتني يا رامي . (٢)

كذلك لبس القلانس على رؤوسهن ، وحليتها بالوشي والجوهر وكتبن عليها الغزليات . كتبت على قلنسوة لها ديباج ، وهي جارية محمد بن المأمون :

ما يمل الحبيب طول التجني لبلائي به ولا الصد عني .

كل يوم يقول لي لكذبـ يتجنى ولا يرى ذاك مني

ربما جئته لاسلفه السعـ ر لبعض الذنوب قبل التجني . (٣)

وزبيده الصناع المدللة ، اتت بما لم تأت به امرأة قبلها في الاسلام . يقول المسعودي " زبيده ام جعفر اول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر واصطنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ ثوب وشي اتخذ لها خمسين الف دينار ، واول من اتخذ القبا من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج والوان الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق ، واول من اتخذ الخفاف المرصعة بالجوهر وشمى العنبر وتشبه الناس في افعال ام جعفر ." (٤) وجاء عن الوشاء " ومن زيهم لبس النعال الفريحية والشخان الكتباتيه والمشعرة اليمانية والحذو اللطاف والمختمة الخفاف ويشرك اسوده باحمر واصفرها باسود ويلبسون الخفاف الهاشمية والمكسورة الكتابية ، ومن الادم التخين والاسود الرزين . ويعيبون لبس الاحمر من الخفاف ولبس الدارشية الخفاف ." (٥) والبعض منهن طيبن نعالهن بشيء الطيب ، يقول بشار بن برد :

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ١٦٢
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٤٣٩
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٦٩
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٩٨
(٥) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٢٥

اذا وضعت في مجلس القوم نعلها تضوع مسكا ما اصابتوعنبرا .[١]

وعملت بعض النعال من ثياب دبيقية ، وسموها ثياب النعال ،عبارة عن صفاق تقطع على مقدار النعال المحذوة وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد ويجعل ذلك بين كل طبقتين من الثياب من ذلك الطيب ،ثم تقفل بطبقات كثيرة منه وتلف بعضها على بعض ثم يصبح حواليها بشئ من العنبر ويلزق حتى تصبح وكأنها قطعة واحدة ، فالطبقة الاولى تترك بيضاء مصقولة ويخرز حواليها بالابريسم ويجعل لها شرك من ابريسم كالشرك المضفوره من الجلود وتلبس .. وكانت نعال السيدة (ام المقتدر) من هذا النوع ،لم تكن تلبس النعل الا عشرة ايام او حواليها حتى يخلق ويتفتت وتذهب كميات الدنانير في ثمنه وثمن غيره وكانت الخدم تتسابق للحظوة به فيستخرجون ما به من عنبر ومسك .[٢]

يقول الوشاء في لبس مستظرفات النساء : " لبس الغلائل الدخانية والاردية الرشيدية والشروب المزعفرة والاردية الطبرية والقصب الملون والحرير المعين والمقانع النيسابورية وازر الملحم الخرسانية والجربانات المخانقية والكمام المفتوحة والسراويلات البيض المذيلة والمعاجر السود المسبلة ،ولا يلبس شيئا من الثياب البياض الكتان الا ما كانت ملونا في نفسه او مصبوغا من جنسه او مغيرا بلون من اجناس المسك والمصندل واجناس العنبر والمسنبل ليحول بالطيب عن تلك الحال . ولا يلبس ايضا من الثياب الاصفر والاسود والاخضر والمورد والاحمر الا ما كان جنسه الصفره والتزريق والخضرة والتوريد والحمرة مثل اللاذ والحرير والقز والديباج والوشي والخز ،لان لبس المورد والاحمر والسنبري الاخضر انما هو من لبس النساء النبطيات ولبس الاماء المتقينات والبياض عندهم من لبس المهجورات والازرق والحداد من لبس الارامل واحسن الزي عندهم ما ذكر ."[٣] قال الشاعر :

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٧٦
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٢٦

وخذى ملابس زينـــة ومصبغات فهـــي افخـــر

واذا دخلت تقنعـــي بالحمر ان الحسن احمـــر .(١)

ويشرك الرجال في لبس التكك الابريسم ، ولا يستعملن الديباج منها ، والظريفات ينقشن بالذهب على التكة اشعارا وغزليات . كان على تكة هاتف جارية العاجي مكتوبا :

ولي عاذل قد شف قلبي بعذله وواسن بنبل الحب يرمي مقاتلي

كفى حزنا والحمدلله انني تقطع قلبي بين واسن وعاذل .(٢)

ولبس ايضا التكك الخزية والمطرفة القطنية .(٣) وكانت بعض التكك الارمني لسراويلات الخز تساوى دينارا .(٤) واستعملن شرابات الابريسم المفتولة والزنانير العراض ، ولم يذهبن في الوانها الى البياض ولا ما كان منها كثير الالوان والتخطيط .(٥) ووضعن في اوساطهن حياصات الذهب المرصعة بانواع الجواهر .(٦) كتبت خاض المغنية على زنارها :

ما اتيه المعشوق في نفســـه وابين الذل على العاشق .(٧)

وكانت العادة عند الجميع تقريبا ان يكتبن على ذيول الاقمصة وطرز الاردية والاكمام قال الماوردى رأيت جارية عند محمد بن عمرو بن مسعده وكان عاشقا لها وهي على غاية الحسن والجمال وعليها قميص موشح ورداء معين ، كتب في وشاح القميص :

اغيب عنك بود لا يغـــيره نأى المحل ولا صرف من الزمن .

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدن .

وعلى طراز الرداء :

اقل الناس في الدنيا سرورا محب على قلبي له بالذى يقضـــي

فحتى متى روح الرضى لا ينالني وحتى متى ايام سخطك لا تمضي .(٨)

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٩٢
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٧٤
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٧
(٤) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص ١٢٥
(٥) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٧
(٦) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٤١٨
(٧) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٧٣
(٨) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٦٧

وكانت المرأة اذا خرجت من الدار تغطي نفسها بازار.(١) وتتقنع.(٢) والمرأة الغنية، جارية كانت ام حرة، يكون ازارها حريرا بطرزات من ذهب.(٣) ومتيم اول من عقد من النساء في طرف الازار زنارا وخيطا ابريسما ثم جعلته في رأسها ليثبت الازار ولا يتحرك.(٤) اما الفقيرات فلم يكن في وسعهن لبس ذلك، بل لبس البالي والمرقع:

اني وان كان ازاري خلقا ... ويرتكاني سملا قد اخلقا.(٥)

لم يكن زي النساء واحدا بل اختلف كل الاختلاف، فالحرائر بزي، والمملوكات بزي وذوات الرايات بزي (الاماء اللائي كن يحترفن البغاء).(٦)

تنوع الملابس حسب المناسبات.

اختلف الزي بحسب مناسبات خاصة، وشدد على المخالفين كما التشدد، فمثلا فرض على الخاصة ان تلبس السواد في الصلاة، لذلك كانت مقاصير الصلاة في مسجد جامع المنصور يقف على ابوابها البوابون بثياب سواد يمنعون دخول اي اليها الا ما كان من الخواص المتميزين بالاقبية السود.(٧) كما كان للتعازي او لسير في جنازة ملابس خاصة.(٨) ولبست المرأة في المآتم الصداره، وهي عباره عن ثوب رأسه كالمقنعة واسفله يغشي الصدر والمنكبين.(٩) كذلك في مجالس الشرب والمنادمة كانت لهم ثياب خاصة، كالملوّن والمشهر من اثواب الندام، وهذا جميل في وقته فقط، ومن العيب جدا ان يظهر به في مجلس آخر، لانه لا يتفق والذوق والمظهر المحتشم للانسان الظريف، ولان مثل هذه الملابس عادة تهدى من قبل رب البيت في مناسبات يبطل الجد بها، وتدور الكاس

---

(١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ١٧٥
(٢) الف ليلة وليلة، ج ١، ص ٣٠٣
(٣) الف ليلة وليلة، ج ١، ص ٤١٨
(٤) الاصفهاني، الاغاني، ج ٧، ص ٣٠٢
(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٤
(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٦٦
(٧) البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ٤٨
(٨) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٦٨
(٩) ياقوت، البلدان، ج ٥، ص ١٣٧

فتلعب بالالباب وينسى كل من الحاسي والمحتسي وقاره . واذا كان في مجلس السلطان، فيلطف العمامة في رأسه ويبقي الخف في رجله والغرض من ذلك ان لا تنحسر الرأس وتبدو القدم عارية لانه غير لائق بصاحب المجلس . (١) وقيلت الاشعار المختلفة في اردية الشرب والمنادمات :

ويحك اسكت فضحتني يا رأسي ... انت بالضد من رؤوس الناس

انت والله فارغ القحف الا ... من كنوز الخياط والافلاس

بسك اقطع ففي ضمات الرداء ال ... شرب الاميري عن ابي العباس

بيض الغزل فيه خط سـواد ... مثل خط الرئيس في الرطاس . (٢)

ويجب ان لا نستغرب اذا سمعنا بوجود محلات خاصة تؤجر الثياب موقتا لقاء اجرة معينة ،كما هي الحال اليوم في اوروبا واميركا . يحكى ان اشجع السلمي كان يحب الثياب كثيرا ،فيكتري الخلعة كل يوم بدرهمين ،فيلبسها اياما ثم يكتري غيرها فيفعل كفعلته بالاولى . (٣)

---

(١) ابن كشاجم ،النديم ،ص ٣٢

(٢) الثعالبي ،اليتيمة ج ٣ ،ص ٥٢

(٣) الاصفهاني ،الاغاني ج ١٧ ،ص ٣٤ تقدم

الفصـــــل الـــــرابع

الطعـــــام

لم يمتد العهد طويلا بالعربي ابن الصحراء الذى عرف التمر ، ومزيج الدقيق المحمص مع اللبن والماء طعاما له ، والذى اشمأز من الرز يوم رآه لاول مرة فتخيله نوع من السموم . نعم لم تمر مدة طويلة على وجوده في البيئة الجديدة حتى تذوق واستطعم طبيخ من ساكنهم وشاركهم ارضهم ، اما في العراق فكان تأثير الطبيخ الفارسي ظاهرا جليا سواء كان ذلك في التفنن في نوعية الطعام او في اعمدة الغذاء المعروفة ، وحتى في آداب الطعام المتبعة على الموائد المحترمة وبين الظرفاء المهذبين . اما اليوم وقد امتد العهد ومرت الازمنة الطوال بيننا وبين الذين عاشوا في تلك القرون البعيدة . وبالرغم مما مر بالعراق من اقوام ، ومنهم من بقي فيه لمدة طويلة كالاتراك مثلا ، لا يزال تأثير الطبيخ الفارسي يحتل المركز الاول في الموائد العراقية .

الخضـــــروات .

عرفوا وطبخوا معظم الخضروات المعروفة لدينا اليوم ، كالباذنجان والقنبيط[1] والجزر والباقلاء[2] واللوبيا[3] والكماة[4] والفجل والكشوث والهليون والكرات والكرنب وغيرها .

---

(١) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٤٣
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٢٣
(٣) الجاحظ ، الحيوان مج ٣ ، ص ١٩
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٥٦

الفـــــــواكه .

اما الفواكه فالكمثرى ، الموز [١] الخلال (التمر قبل نضوجه) [٢] التفاح ، وتفاح الشام يضرب به المثل في الجودة والنكهة وكذلك اترج العراق . قال الصنوبرى :

ارى الشـــام جاد بتفاحـــه لنا والعـــراق باترجـــه

وقال آخر: تفاحـــــــة شاميـــة من كف ظبي غـــــزل

ما خلقت مذ خلقـــــــت لغير تلك القبـــــل

كأنما حمرتهـــــــــا حمرة خد خجـــــل [٣]

ومشمش اصفهان فاق الرطب بطعمه . [٤] وقصب السكر الذى اشتهرت به الاهواز ، وكان من مفاخرها ، وبه متاجرها والمثل مضروب بسكر الاهواز . قال المتنبي فيه :

ان قضضم الجمر والحديد الاعادى دونه قضم سكر الاهـــواز . [٥]

والرطب الازاد والتين الوزيرى (+) والعنب الرزاقي . [٦] وعمل من عنب هراة القشمش ، وكذا الزبيب المعروف بالطائفي ، وكانا يحملان منها الى الاواني والاقاصي (ويتخذ من القشمش الشراب والدبس ويعد من طرائف البلاد) . وانشد المأمون لنفسه في وصف القشمش : وقشمش كخـــــــرز منظم لم يثقـــــب

يحلى به الكاس لـــــا بينهما من نســـــب

يحظى به الشارب في النا دى ومن لم يشرب

كأنه اوعيـــــــــة يحملن ذوب العـــــنب

او لؤلؤ قد عـــــل له لاه بماء الذهـــــب

خصت به هـــــراة فاخـــ تصت باعلى الـــــرتب . [٧]

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٥٠
(٢) الجاحظ ، البخلاء ص ١٥٦
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ والثعالبي ، خاص الخاص ص ٤٤
(٤) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ٤١
(٥) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٦
(+) التين الوزيرى ، نسبة الى منطقة الوزيرية في سامراء حيث كانت بساتينها مشهورة به وينادى عليه
(٦) الثعالبي ، خاص الخاص هذا الوزير ياتين . ماء الوزيرية ياتين .

والخوخ والاجاص ، والعناب والنبق والرمان . (١) والسفرجل والبطيخ والخيار والقثاء .

اعمـــــدة الغـــــذاء .

امتاز الطبيخ يومئذ باعمدته التي ميزته عن غيره . كان قوام القدر في العصر العباسي اللحم ، الخل ، الزعفران ، التوابل ، الجوز السكر وماء الورد ، هذا مما جاء في وصفات الطبخات والاطعمة في الكتب المختلفة . كانوا يحبون التوابل كثيرا في الطعام . يقول وكيع بن الجراح : التمتين على المائدة خير من زيادة لونين ، وكمال المائدة كثرة الخبز والسميذ الابيض احلى من الاصفر . (٢)

كـــــتب الطبيـــــخ .

ويظهر مما جاء في الفهرست ان الطعام اصبح عاملا رئيسيا في حياة القوم ، حتى الفت فيه اهم شخصيات العصر العباسي كتبا مختلفة ، مثل كتاب الطبيخ للحارث بن بسخنر ، كتاب الطبيخ لابراهيم بن المهدي ، كتاب الطبيخ لابن ماسويه ، كتاب الطبيخ لابراهيم بن العباس الصولي ، كتاب الطبيخ لعلي بن يحي المنجم ، كتاب الطبيخ للمنجدة ، كتاب الطبيخ لاحمد ابن الطيب ، كتاب الطبيخ لجحظه ، كتاب السكباج له ايضا ، كتاب اطعمة المرضى للرازي وله كتاب الطبيخ ايضا . (٣) كتاب المؤرخ ابن مسكويه اذ انه وضع كتابا في تركيب الباجات من الاطعمة " احكمه غاية الاحكام واتى فيه من اصول علم الطبيخ بكل غريب حسن " (٤) ومن سوء الحظ ان معظم هذه الكتب ضاع . ولكني رأيت مرة كتابا بعنوان فن الطبيخ عند العباسيين لداود الجلبي ، طبعه الموصل ، يذكر فيه الوانا من الاكلات العباسية ، من طبخ اللحم والباجات والهريسات ، والحلويات .

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ١ ، ص ١٣١
(٢) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٧٦
(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٤٠
(٤) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٠٠

الطبخـــات المعـــروفة يومئـــذ .

ساحاول ان اذكر بعض الاكلات التي استطعت جمعها من الكتب التي وقعت بين يدى . فالهريسة من الاكلات المشهورة ،كانوا ينادون عليها في الطريق . روى الشافعي صاحب علي بن عيسى فقال : علق مرة بلجام مركوبي غلام هراس بيده غضارة هريسة ينادى عليها وشالها الى انفي وقال : جمع اللوز والغنم . (١) قيل في هريسة :

الذ ما ياكله الانســـان اذا اتى من صيفه نيـــان
وكانت الجديان والخرفان هريسة يصنعها النسوان
لهن طيب الكف والاتقان يجمعن فيها الطير والحجـــلان
وتلتقي في قدرها الادهان واللحم والآية والشحمـــــان
ويعده اوزة الســـمان والحنطه البيضـــاء والجلبان
ويعده الارز واللبـــان جودها لطحـــنه الطحـــان
ويعده الملح وخولنجـــان كأنها ريم وترسيـــــان
تخجل من رؤيتها الالوان اذا بدت يحطها الغلمـــان (٢)

والشهد من مآكلهم المفضلة ،وسمي لقمة الدرداء ،تنفح الشيخ الذى قد ذهب فمه ، والصبي الذى لم ينبت فمه ،وقد قال الرسول " سيد الطعام الشهد ،ومثل عائشة في النساء مثل الشهد في الطعام . (٣) وسمي اللحم المطبوخ بالخل والثوم والتوابل "السكباج" وكان بعضهم يختار هذه الطبخة في كثير من الاحيان لانها ابقى على الايام وابعد من الفساد . (٤) ويقال للسكباج سيد المرق وشيخ الاطعمة وزين الموائد ،ويقال اذا طبخت

---

(١) التنوخي ،نشوار المحاضرة ،ص ٥٥
(٢) المسعودى ،مروج الذهب ج ٨ ،ص ٤٠٢
(٣) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٢١٦
(٤) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٤٠ ـ ٤١

اللحم بالخل فقد القيت عن معدتك ثلث المؤنة .[١] وقال الرسول " اذا طبختم لحما فزيدوا في الماء ، فان لم يصب احدكم لحما اصاب مرقا ".[٢] طبخوا الدجاج ، واحسن الدجاج ما جلب من كسكر (وكسكر احدى كور السواد من ريف دجلة والفرات ، دجاجها موصوف بالجودة والسمن ومذكور في اطايب الاطعمة ، ونسب الى كسكر الجداء والسمك والصحناء . قال الشاعر يصف اطعمة لمن يدعوه :

لنا سمك يكسره مسير وعند غلامنا حب مبزر

وفروجان وقد رعيا زمانا لباب البر في ابيات كسكر .[٣])

طبخوا الدجاج محشيا بالرز والزعفران والجوز والقشمش ومرشوش بماء الورد ، كذلك الحمام البيتي .[٤] وشووا السمك كبابا على النار .(*) وعادة يكون من نوع الشبوط بينما السمك البغي يطبخ مع الخل .[٥] اما الرز فتفننوا في طبخه مع الزعفران والسكر احيانا .[٦] يصف التوحيدي رزا مطبوخا فيقول " صحفة ارز مطبوخ ، فيها نهر من سمن ، على حافاتها كثبان من السكر المنخول ".[٧] وفي الاهواز عملوا منه خبزا ولم يقدم الا سخنا .[٨] وقال ابو طالب المأموني في بعض الاكلات :

والى كم يكون بالخل ادمي وقليل من البقول يسير

هات ايس الكباب ايس القلايا ايس رخص الشواء ايس الفطير

انا لا اترك الباذنجان والبط يخ والتين او يكون النشور .[٩]

وطبخوا الجزر المسلوق بالخل والزيت . وضرب المثل بزيت الشام في الجودة والنظافة وقيل له الزيت الركابي ، لانه حمل على الابل من الشام .[١٠] والكمأة المطبوخة بالزيت والفلفل[١١]

---

(١) الابشيهي ، المستطرف ، ج ١ ، ص ٢١١
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣٩
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٦
(٤) نفس المصدر .
(٥) وهذا هو الاكلة العراقية المشهورة بالسمك المسكوف
(٥) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٩
(٦) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٠٣
(٧) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٧٧
(٨) ياقوت ، البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٢
(٩) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٤
(١٠) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٢
(١١) البخلاء ، ص ١٥٦

ومضيرة بفراخ مسمنة ، ودجاج هندية ودهن الجوز والخردل . (١) وقيل في المضيرة :

زمن كانت المضائر فيه ... بلحوم الجداء والحملان

وصدور الدجاج بالخل والمرى ونثر الشذاب والانجزان

وسمان من الفراريج تغلي ... بعصير الاعناب والرمان

وشواء الوزة اللذيذة والقا ... رص بين الحليب والالبان

ونقي السويق بالسكر المنخ ... ول في الثلج في الزجاج اليماني

وقلال تحط من بكرات ... مرويات غلائل العطشان . (٢)

ثم القلية (لحم بدون ماء مع اليه) يستوى وينضج بدهن اليه نفسها ، واستعملوا في الطبيخ ماء الليمون . (٣)

الحلوى وانواعها .

اما الحلوى فعلى احسن واتم ما وصله ذوقهم في الطعام . دخل العنبر والكافور وماء الورد والزعفران في صنعها . وصنعت جاماتها بمهارة فائقة جدا سواء كان من حيث الطعم او من حيث الشكل والمنظر . فمن ذلك اللوزينج ويسمى قاضي الحلاوة ، وحشوه يضرب به المثل . (٤) وكان يعمل احيانا بالفستق . (٥) قال ابن الرومي في اللوزينج :

لا يخطئني منك لوزينج ... اذا بدا اعجب او عجبا

يدور بالنفخة في جامه ... دورا ترى الدهن له لولبا

مستكف الحشو ولكنه ... ارق قشرا من نسيم الصبا

كانما قدت جلابيبه ... من اعين القطر الذى حببا

ذيق لها اللوز فلا مرة ... مرت على الذائق الا ابى

وانتقد السكر نقاده ... وشاوروا في نقده المذهبا . (٦)

---

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ص ٦٣ (٢) التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ص ٣ ص ٧٤
(٣) التنوخي : الفرج بعد الشدة ٢ ص ٨٣ (٤) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٤٨٨
(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ص ٦٩ (٦) ابن الرومي : الديوان ص ٣٢٤ ، ٣٢٦

وهناك اصابع زينب ، ضرب من الحلوى يعمل في بغداد ويشبه اصابع النساء المنقوشة . وفيه يقول ابو طالب المأموني :

احب من الحلواء ما كان مشبها ... بنان عروس في حبير مصعب

فما حملت كف الفتى مستطعما ... الذ واشهى من اصابع زينب .(١)

وكان ابن المطرز شاعر العصر في بغداد عند صديق ، فاحضر له اصابع زينب فاهوى الى واحدة منها ليأخذها فقبض الصديق على يده وغمزها غمزة آلمته فقال :

يا مسكرى بمدامة ... ومن الحلاوة مانعي

حاولت اصبع زينب ... فكسرت خمر اصابع .(٢)

والقطايف التي انشد فيها كشاجم اشعارا .(٣) والجوزابة حيث يقول فيها محمود بن الحسين : جوزابة من ارز فائق ... مصفرة في اللون كالعاشق

عجيبة مشرقة لونها ... في كف طاه محكم حاذق

نسيجة كالتبر في حمرة ... وردية من صنعة الخالق

بسكر الاهواز مصنوعة ... قطعها احلى من الرائق

غريقة في الدهن رجراجة ... تزور بالنفخ من الرانق .(٤)

والفراني ، جمع فرني ، هي خبزة عليظة مشكلة تشوى ثم تروى لبنا وسمنا وسكرا وهي القطايف وسميت قطايف بشبهها بالقطايف من الثياب .(٥) والبهطة كلمة سندية وهو الارز يطبخ باللبن والسمن .(٦) قال عضد الدولة في بهطة :

بهطة تعجز عن وصفها ... يا مدعي الاوصاف بالزور

كأنها في الجام مجلوة ... لالئ في ماء كافور .(٧)

---

(١) الابشيهي ، المستطرف ج ١ ، ص ٢١٢ ، ثمار القلوب ص ٢٥٦
(٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٢٥٦
(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ، ص ٢٩١
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ج ٨ ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥
(٥) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٩٩
(٦) نفس المصدر
(٧) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ١٩٦

والخشكنان من دقيق الشعير ، وحشوه الجوز والسكر . (١) والزلابية (٢) وقال ابو طالب المأموني في خبيصه :

خبيصة في الجام قد قدمت ... مدفونة في اللوز والسكر

ياكل من ياكلها جمة ... بكفه فيها ولم يشعر (٣)

وهناك اكلة اخرى من التمر والسمن والسلاء . (٤) وكذلك عصيدة التمر مشهورة . (٥) والفالوذج (٦) ولا شك ان اسحق بن ابراهيم الموصلي ابدع في وصف سمبوسك بحيث يستطيع القارئ ان يطبخه من الوصف :

يا سائلي عن اطيب الطعام ... سألت عنه ابصر الانام

اعمد الى اللحم اللطيف الاحمر ... فذقه بالشحم غير مكثر

واطرح عليه بصلا مدورا ... وكرنبا طرحا جنيا اخضرا

وزق السذاب بعده موفرة ... ودار صيني وكف كزبرا

وبعده شئ من القرنفل ... وزنجبيل صالح وفلفل

وكف كمون وشئ من مرى ... وملء كفيك بملح تدمر

فدقه يا سيدى شديدا ... ثم اوقد النار له وقودا

واجعله في القدر وصب الماء ... من فوقه واجعل له غطاء

حتى اذا الماء فنى وقلا ... ونشفته النار عنك كلا

فلفه ان شئت في رقاق ... ثم احكم الاطراف بالالزاق

او شئت خذ جزاء من العجين ... معتدل التفريك مستكين

فابسطه بالسويق مستديرا ... ثم اطفرن اطرافه تظفيرا

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٩٤
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ج ٢ ، ص ٤٢
(٣) الثعالبي ، احسن ما سمعت ص ١٠٠
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٤١
(٥) التنوخي ونشوار المحاضرة ص ٦٢
(٦) الجاحظ ، البخلاء ص ٢٨١

وصب في الطابق زيتا طيبا ثم اقليه بالزيت قليا عجبا

وضعه في جام له لطيف ووسطه من خردل مريف

وكله اكلا طيبا بخردل فهو الذ الماكل المعجل .(١)

كان الماء يصفى ويبرد ويزمل ليكون طيب الشرب .(٢) وكانوا ياكلون الجوارش لهضم الطعام . واستعملوا لنار الطبيخ ،يابس العرفج (والعرفج شجر سريع الاحتراق) .(٣) والمترفون جنبوا مائدتهم الطعام الذى اعيد عليه التسخين مرتين ،وكانوا يسمون القدر المسخنة " بنت نارين " . ويقول المترفون " جنبوا مائدتي بنت نارين " . وقالوا كل طعام اعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد .(٤) وانشد ابو طالب المأموني لنفسه قصيدة في وصف مائدة تجمع اطايب الطعام :

لم يرض طاهيها بنقص ولا شقق في شئ ولا موه

لابنه نارين اوانا ولا مصنوعة بالرفع ما سوه .(٥)

آداب الطعام والموائد ، وما يتداول من الكلام حين الاكل .

كانت صور الدعوات والولائم الى المجالس تتلائم والذوق في ذلك العصر ،ففي اوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير ابو الحسن علي بن الفرات يدعو الى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم . وكان منهم اربعة نصارى ،" فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ،ويقدم الى كل واحد منهم طبقا فيه اصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شئ ،ثم يجعل في الوسط طبقا كبيرا يشتمل على جميع الاصناف ،وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج الى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ، ومعه طست زجاج يرمي فيه التفل ،والاباريق فغسلوا ايديهم واحضرت المائدة مغشاة بديباج فوق مكبة

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٨ ،ص ٣١٨ - ٣١٩
(٢) الجاحظ البخلاء ،ص ٥٩ - ٦٠
(٣) الجاحظ البيان والتبيين ج ٢ ،ص ٢٦٦
(٤) الابشيهي ،المستطرف ،ج ١ ،ص ٢١١ ،الثعالبي ثمار القلوب ،ص ٢١٨
(٥) الثعالبي ،ثمار القلوب ص ٢١٩

خيازر ، ومن تحتها صفرة ادم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل الخمر ، ... فاذا وضعت رفعت المكبة والاغشية ، واخذ القوم في الاكل ، وابوالحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم ، فلا يزال على ذلك والالوان توضع وترفع اكثر من ساعتين ، ثم ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون ايديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على ايديهم المناديل الديبقية ورطليات ماء الورد لمسح ايديهم وصبه على وجوههم (١) وكان الطعام يوضع لونا بعد لون ، كما جاء في مختلف الكتب ، وعادة غسل الايدى قبل الطعام كانت عادة شائعة ويكون الغسل من وعاء واحد ويبدأ رب البيت لئلا يحتشم احد (٢) . ويقول لجلسائه من شاء منكم فليغسل (٣) . وعلى المضيف ان يخدم اضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه ، وان يتفقد دابة ضيفه قال الشاعر :

مطيه الضيف عندى تلو صاحبها لا اكرم الضيف حتى يكرم الفرسا (٤) .

وعليه ان يراعي خواطر اضيافه كيفما امكن ، ولا يغضب بحضورهم ، او ينغص عيشهم بوجهه العبوس ولا ينهر او يشتم احدا ، بل يحاول خلق السرور والانشراح قدر الامكان . وعليه كذلك ان يأمر غلمانه بحفظ نعال اضيافه وتفقد غلمانهم وقت الطعام ، والاليق بالكريم ان يمنع حجابه من الوقوف بالباب عند حضور الطعام ، لان في ذلك شناعة عليه (٥) .

وليس من اداب الطعام ان يذهب مدعو الى وليمة ومعه شخص اخر او ان سئل باخذ احد خلفه فيبدله بآلاخر ، وان دعي الى الطعام يقول لا اكل حتى يجلس معي رب البيت (٦) . قال بكر بن عبدالله المزني : احمق الناس بلطمة من اذا دعي الى طعام ذهب بآخر معه ، واحمقهم بلطمتين من اذا قيل له : اجلس هاهنا قال : بل هاهنا ، واحمق الناس بثلاث لطمات من اذا قيل له : كل قال : ما بال صاحب البيت لا يأكل معنا . ويقول ابن عبد (٧)

---

(١) الصابي ، الوزراء ، ص ٢٤٠
(٢) ابن كشاجم ، النديم ، ص ٢٨ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ص ٢٧
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٨٨
(٤) الثعالبي ، احسن ما سمعت ، ص ١٠٤
(٥) الابشيهي ، المستطرف ، ج ١ ، ص ٢١٦ ــ ٢١٨
(٦) ابن الجوزى ، الظراف والمتماجنين ، ص ٣٨
(٧) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٣ ــ ٤

ربه . احد الناس بثلاث لطمات من دعي الى طعام فقال لصاحب المنزل ادع ربة البيت تأكل معنا .(١) وعلى الضيف موافقة المضيف في امور منها ، اكل الطعام وعدم الاعتذار بالشبع . كذلك عليه ان لا يسأل رب البيت عن شئ سوى القبلة وموضع قضاء الحاجة وان لا يتطلع الى ناحية الحريم ، وان لا يخالفه اذا اجلسه في مكان واكرمه به وان لا يمتنع عن غسل يديه ، وان لا يمنع صاحب المنزل من الامر والنهي في بيته ، قال الشاعر :

لا ينبغي للضيف ان يعترض ان كان ذا حزم وطبع لطيف

فالامر للانسان في بيتـــــه ان شاء ان ينصف او ان يحيف .

وغير لائق بالمضيف ان يأخذ ولده الصغير معه ويعلمه ان يبكي عند الانصراف من الطعام فيعطى على اسم ولده الطفل .(٢)

اول ما يبدأ بالطعام على الموائد النقل فانهم يحضرونه ولا يكثرون من اكله ولا يأتون على كله ، وانما يعبثون به ويأخذون الشئ القليل منه مع التصنع ويتجنبون الهندبا والاكشوث لبردهما والفجل والحرف لنتنهما والكرات والبصل لرائحتهما والقداح والحندقوقا لخشنهما ولانهما ايضا يخضران الاسنان والعمور ويحدثان الرائحة والتغيير . والظرفاء لا يذوقون من قدر وقع فيها الثوم او البصل ، ولا يلفظون اسم الطرخون لشناعة اللفظة ، بل يكنون عنه ويضاف للتصنع وسماه البعض بقلة الجياع وآخرون كافور الفؤاد .(٣) واكثر ما تنقلوا بملوح البندق والفستق .

يقول ابن حمدون النديم "من اكل مع الملوك والامراء والسادة فلتكن اظفاره مقلومة وطرف كمه نظيفا ولقمته صغيرة وليأكل ما بين يديه ولا يرسم الملح والخل" . وذكر البديع الهمداني من اكل على موائد الرؤساء فلا تساندن يده على الخوان ولا يدعين ارض الجيران ولا يأخذ

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٨٧
(٢) الابشيهي ، المستطرف ، ج ١ ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١

وجوه الرغفان ولا يفقأن اعين الالوان . وقال ابن سوادة الرازي : اياك والسبق الى بيضة البقلة والاستئثار بكلية الحمل وخاصرة الجدي ومخ العظم وعين الرأس ولا تكونن اول آكل وآخر تارك ولا تتجشأ على المائدة .(١) ومن شروط الطعام تصغير اللقمة ، وعدم الشره والنهم .(٢) ويقول الجاحظ " عابوا الحسو في الاكل ، وتقززوا من التعرق ، ويهرجوا صاحب التمشيش . وعلى المؤاكل ان لا يستأثر بالمخ ، ولا ينتهز بيضة البقيلة ، ولا يلتمس كبد الدجاجة ، ولا يبادر الى دماغ رأس السلافة ، ولا يختطف كلية الجدي ، ولا يزدرد قانصة الكركي ، ولا ينتزع شاكلة الحمل ، ولا يقتطع سرة الشصر ، ولا يحرض لعيون الرؤوس ، ولا يستولي على رؤوس الدجاج ... ولا يتناول الا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره ولا يتشهى الغرائب ، ولا يمتحن الاخوان بالامور الشينة ولا يهتك استار الناس بان يتشهى ما عسى الا يكون موجودا .. ومنهم من يكتسح كل شيء اذا اتوا على جنب شواء ، لا يرحم ذا سن لضعفه ، ولا يرق على حدث لحدة شهوته ولا ينظر للعيال ولا يبالي كيف دارت بهم الحال .. وقد يقدم الطباخ احيانا لون طريف او غريب والعادة في مثل ذلك ان يكون لطيفا صغير الحجم ، وربما عجل عليه فقدمه حارا ، فمنهم من يقدم عليه مزدردا بينما الآخرون ينتظرون برودة وهكذا عندما يشترك هؤلاء الاخرون يكون الاولون قد اتوا على اخره وهذا ليس من الادب ولا اللياقة ..(٣) ويقول ايضا " ولا ينبغي للفرد ان يكون مكحلا ولا مقببا ولا مكوكبا ولا شكامرا ولا حذامرا ولا تغامدا ثم فسره فقال : اما المكحل فالذي يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج ، والمقبب فالذي يركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة ، والمكوكب الذي يبصق في الطشت وينخم فيها حتى يصير بصاقه كأنه الكواكب في الطشت ، والحذامر الذي يأتي وقت الغداء والعشاء فيقول ما تاكلون فيقولون من بغضه سما فيدخل يده ويقول في حرم العيش بعدكم ، والشكامد الذي يتبع اللقمة باخرى قبل ان يسيغها

(١) الثعالبي ، خاص الخاص ص ٤٥
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٩
(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٠٥ - ١٠٦

فيختنق كأنه ديك قد ابتلع فأره ، والتغامز الذى يضع الطعام بين يدى غيره". والمتشاوق[1] الذى يستحكم جوعه قبل الانتهاء من الطعام ، فنظره دائما ناحية الباب يظن ان كل ما دخل هو الطعام ، والعداد الذى يعد الزبادى على اصابعه ويشير اليها ويشغل نفسه والجراق الذى يجعل اللقمة في جانب الزبدية ويجرف بها الى الجانب الاخر لنفسه والرشاف الذى يجعل اللقمة في فمه فيرتشفها فيسمع لها صوت ، والنقاب الذى يجعل اللقمة في فمه وينفض يده في الزبدية ، والقراض الذى يقرض اللقمة باطراف اسنانه حتى يهذبها ويضعها في الطعام بعد ذلك ، والبهات الذى يبهت في وجوه الاكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين ايديهم ، واللثاث الذى يلت اللقمة باطراف اصابعه قبل وضعها في الطعام ، والعوام يميل ذراعيه يمنى ويسرى لاخذ الزبادى ، والقسام الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيه ، والمخلل الذى يخلل اسنانه باظفاره ، والمزهد الذى يحمل معه الطعام ، والمرتع الذى يرتع اللقمة في الامراق ، فلا يبلع الاولى حتى تلين الثانية ، والمرشش الذى يفتح الدجاج بغير خبرة فيرش على مواكليه ، والمفتش الذى يفتش على اللحم باصابعه ، والمنشف الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها ، والملهب الذى يملأ الطعام لبابا ، والصباغ الذى ينقل الطعام من الزبدية الى زبدية ليبرده والنفاخ الذى ينفخ في الطعام ، والحامي الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه من موآكليه ، والمجنح الذى يزاحم موآكليه بجناحيه حتى يفسح له والشطرنجي الذى يرفع زبديه ويضع اخرى في محلها ، والمهندس الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه ها هنا حتى يأتي قدامه ما يحب ، والمتمنى الذى يقول ليتني لم يكن معي من يأكل ، والفضولي الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان قد بقي عندك في القدور شيئا فاطعم الناس فان فيهم من لم يأكل . وان لا يرفض اكلا يقدمه رب البيت . والنشال[2] الذى يتناول من القدر ،

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٨٧
(٢) الأبشيهي ، المستطرف ، ج ١ ، ص ٢٢٠

ويأكل قبل القوم ، النشاب الذى يأخذ حرف جردقة ويغمسه في رأس القدر فيأخذ الدسم دون اصحابه ، اللكام الذى يلحق اللقمة بالاخرى قبل بلع الاولى ، المصاص الذى يمص جوف قصبة العظم ويستخرج المخ منه ، المقور الذى يقور الجرادق ويستأثر بالاوساط دون اصحابه ، المغربل الذى يدير وعاء البلع اداره الغربال ليأخذ الابازير دون الاخرين ، المحلقم الذى يتكلم واللقمة في حلقومه ، اللطاع الذى يلطع اصابعه ثم يعيدها في صحن القوم ، القطاع الذى يعض من اللقمة ثم يغمسها ثانية ، النهاش الذى ينهش اللحم ، المداد الذى يمد قطعة اللحم حتى تنقطع وربما انتضح منها على ثياب الغير .(١)

ومن عادة اهل فارس اقامة المطابخ وتحسين الموائد بكثرة الطعام واحضار الحلاوة والفواكه قبل الموائد .(٢) وكانوا يتأنقون كثيرا في طريقة اكلهم ، كان ابو الفرج الاصفهاني اذا اراد اكل شئ بملعقة كالارز واللبن وامثاله وقف من جانبه الايمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا فيأخذ منه ملعقة يأكل منها لونا ثم يدفعها الى غلام آخر من الجانب الايسر ، ثم يأخذ اخرى فيفعل بها فعل الاولى حتى ينال الكفاية ، كل ذلك لئلا يعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية .(٣)

وفي الطعام الاولى " الحث والتأنيس والبسط والطلاقة ولين اللفظ وقلة التحديق واسجاء الطرف مع اللطف والدماثة من غير دلالة على تكلف في ذلك فاضح ولا امساك عنه ، فادح ".(٤) ومن عادة اهل فارس ايضا على الموائد ان يتركوا المجاهرة بالفواحش ويبالغوا في تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم ، والمنافسة فيما بينهم في هذا الباب والادب الظاهر والعلم الشائع فيهم .(٥) والكلام من صاحب المنزل والمائدة احسن كما قال بعضهم :

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١١٨ - ١٢٠
(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٢٩٠
(٣) ياقوت ، الارشاد ، ج ٥ ، ص ١٥٣
(٤) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٣ ، ص ٢
(٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٢٩٠

كيف احتيالي لبسط الضيف من خجـــل عند الطعام فقد ضاقت به حيلي

اخاف ترداد قول لي فاحشمـــــــه والصمت ينزله مني على البخـــل

وقول الانسان الحمد لله في وسط الطعام غير مستحسن ، لانه يدفع الضيوف الى النهوض قبل الشبع وقيل :

وحمد الله يحسن كل وقت ولكن ليس في وقت الطعـــام

لانك تحتشم الاضياف عنه وتأمرهم باسراع القيـــــام

وتؤذنهم وما شبعوا ، بشبع وذلك ليس من خلق الكرام . (١)

لان الضيوف قد يكفون عن الاكل باعتبار ان رب البيت حمدالله تعالى على هذه النعمة التي شبع منها .

اما غسل الايدي بعد الطعام فكان للنظافة الحقيقية ورب البيت يغسل بعد الجميع ، فيقدمهم ويتأخر . (٢) ويبدأ الدور عن يساره حتى ينتهي اليه فيكون آخر من يغسل (٣) ولاهل خراسان عادة اخرى اذا فرغوا من الطعام ، اذ يبدأ الغسل عن يمين الباب حرا كان الجالس ام عبدا . (٤) ولكن في مجالس الخاصة كان من العيب وقلة الهيبة ان يغسل في حضرة الخليفة او الامير او الوزير ، بل يجب ان يغسل في غرفة اخرى بحيث لا يرون وهذه العادة كانت شائعة في العراق . (٥) ومن العيب ان يبزق الشخص في الطشت او ان يتخلل بعد غسل اليد . (٦) كذلك ان لا ينفض يده بعد فروغه من الغسل في الطشت لان ذلك يعني النضح على اصحابه . (٧)

والعادة عندما يحين وقت ازالة الطعام يتقدم خادم بمعالم مشرقة وملابس نظيفة حاملا عيدان خلخلة الاسنان ، وفي مجالس الخاصة تكون غالبا من العيدان المأمونية المعطرة . (٨)

---

(١) ابن كشاجم ، النديم ، ص ٢٨ ، الثعالبي ، احسن ما سمعت ، ص ١٠٣
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٨٨
(٣) ادب النديم ، ص ٢٨
(٤) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٩٧
(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ١٠٤ ، البيهقي ، المحاسن والمساوي ص ٤٧
(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ، الثعالبي ، خاص الخاص ص ٤٥
(٧) ، الجاحظ ، البخلاء ، ص ١١٩
(٨)

الباب الثالث

بعض العادات والمراسيم الاجتماعية

الفصل الاول ..... الاساطير والخرافات والمعتقدات .

الفصل الثاني ..... الاخلاق العامة " ميزات الرجل المهذب الظريف "

١) الغزل - ٢) المراسلة - ٣) الهدايا - ٤) اللباس - ٥) الطيب -
٦) الطعام والشراب .

الفصل الثالث ..... بعض العادات الاجتماعية والمعاملات .

الفصل الرابع ..... مجالس السمر واللهو واللعب .

ا) مجالس الشراب

١) فرش الارض بالرياحين - ٢) زي الشراب - ٣) الخمرة - ٤) اسماء الخمرة -
٥) الاديرة دور للهو .

ب) الغناء

١) الخلفاء والغناء - ٢) الخلفاء يشجعون الغناء - ٣) الناس والغناء -
٤) آلات الطرب والموسيقى -

ج) الرقص .

د) السمار والقصاص .

هـ) التغزل بالغلمان

١) نظام الخصيان - ٢) اخلاقهم - ٣) الغلاميات - ٤) حب الغلمان .

و) وسائل اللهو واللعب .

١) الشطرنج - ٢) النـــرد - ٣) العـــيد - ٤) الكره والصولجان وغيرهـــــــــا .

الفصـــــل الخـــامس ..... الاعياد ومواسمهـــا

١) اعيـــاد النصارى - ٢) اعياد الاسلام - ٣) اعيـــاد الفرس - ٤) اعيـــاد اليهـــود .

الباب الثالث

بعض العادات الاجتماعية

الفصل الاول .

الاساطير والخرافات والمعتقدات .

منذ القديم والشرق مغطى بسحابة كثيفة ، تتراقص خلفها اشباح وارواح وخيالات ، نسجتها مخيلة الانسان القديم ، وتداولتها الاجيال تلو الاجيال ، فالسحر لعب دورا هاما في حياة البابلي ، اذ لم يكن يقدم على امر دون استشارة كهنته وآلهة معابده ، وكلما امتد العهد به اضاف الى معلوماته وزاد ، فاخذ عن الهند والفرس ، الاقوام التي احتك بها فتركت تلك المآخذ في نفسه وحياته وتصراته .

مرت القرون وتداخلت الاعوام بعضها ببعض ، ولم يؤثر الزمن في المعتقدات والخرافات ، لا بل زادها تعقيدا في تعقيد لذا لم يكن غريبا ان يستشير ابو جعفر المنصور المنجمين في بناء بغداد .

الشرق كلمة توحي همسات خافتة ، معابد واسعة بدهاليز مظلمه ، كهنة ومفسرون ، منجمون وقراء البخت ، سحر وخرافات ومعتقدات ، كل ذلك يتبادر لذهن الاجنبي عندما يذكر كلمة الشرق orient وكشرقية لا اعجب او استغرب الفكرة لان كثيراً من هذه العقائد والافكار ما زال مستوليا على عقولنا ، فلا زلت ترى في بغداد بيت الملّة والناس متقاطرون كلٌ ينتظر دوره للمثول بين يدي الملّه ، فمن مريض املّه الشفاء بمنقوع ورقة يكتب

فيها دعاء ،الى زوجة مهجوره تود رجوع زوجها الى اخرى تطلب ان ترزق طفلا . وغير الملة كثير ممن اتخذ هذه المهنة المربحة المكسبة ،كالنظر في مرآة وقدح ماء او ضرب تخت الرمل او اللعب بالحجر كبصارات النور ،وهناك من يدور في الطرقات مناديا "فوّال" ،فتاح فال عداد نجم " يتميزون بعمائمهم الخضراء والقباء الرث والعباءة المهلهلة على اكتافهم وفي ارجلهم حذاء اكل الدهر عليه وشرب . لهجتهم اعجمية واضحة ،كثيرا ما يؤثرون على العوام المساكين بتدجيلهم ووصفاتهم السخيفة كالنوم مع ميت في قبر ،او ارضاء الجن بكميات من الاموال .

هذه عقلية اناس يعيشون في قرن الذرة ،فلا عجب بعقلية من سبقهم بقرون عشرة ، حيث اعتقدوا بتأثير النجوم وزجر الطير وتقديم النذور وغيرها من الخرافات المضحكة المتعلقة بالجن وتأثيرهم على حياة الانسان ، زعموا ان التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس، لقوله تعالى " وشاركهم في الاموال والاولاد ." باعتبار ان الجنيات يتعرضن لرجال الانس فيطلبن منهم العشق والمضاجعة ،وكذلك رجال الجن لنساء الآدميين . (١) وزعم ابن هيثم انه رأى في الكوفة فتى من ولد عبدالله بن هلال الحميري ،صديق ابليس وختنه ،وانهم كانوا لا يشكون ان ابليس جده من قبل امهاته . (٢) وجاء بقوله تعالى " لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان يقول الجاحظ ويزعمون لوكان الجان لا يفتض الادميات ،ولم يكن ذلك قط ،وليس ذلك في تركيبه ،لما قال الله تعالى هذا القول " (٣) وهكذا يحاول الجاحظ ان يبين كثير من خرفاتهم ومعتقداتهم (*) . كذلك ينسبون الصرع الى دخول الجن الانسان ،ويستشهد الجاحظ بالاية "الذين ياكلون الربى لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس." (٤) (*)

---

(١) الجاحظ، الحيوان ج ١ ، ص ١٨٨
(٢) الجاحظ ، الحيوان ج ١ ، ص ١٩٠
(٣) الجاحظ ، الحيوان ج ١ ، ص ١٨٨
(*) وهذه المعتقدات لا تزال سارية في بغداد ،فالمرأة النفساء تحرص في اليوم السابع من ولادتها خوفا من ان تخنقها القرينة او تخنق طفلها ، والقرينة هي عشيقة الزوج من الجن
(٤) الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١٨٨
(*) وفي العراق لا يزال الكثيرون من الذين لوضع اطفالهم وزنوهم بعدل من النحاس والاحذية القديمة ،او انهم ياخذونهم الى بيت الخلاء كانهم يهينون الجني بهذه العملية المزرية فيترك الطفل ويفر هاربا .

هذه معتقدات اليوم فلا غرابة بمعتقدات القوم في القرن الرابع الهجري . وسأتي في هذا الفصل على نبذا مختصرة تبين قليلا مما كان يدور بين العامة من معتقدات وخرافات قال التنوخي ،قال ابو الحسين : بينما كنت وصحبي نقصد بيت قاضي القضاة ابي الحسين في علته التي مات فيها لنعوده اذ بثلاث اعراب ،رفع احدهم رأسه وقد سمع غرابا ينعب على حائط دار ابي الحسين قاضي القضاة فقال لصاحبيه ، ان هذا الغراب ليخبرني بموت صاحب الدار . فقال له الآخر : اجل انه ليموت بعد ثلاثة ايام . فقال الاخر : نعم وبدفن في داره ،ومن الصدف ان تحقق ما قاله هؤلاء الثلاثة بالفعل . فقصدهم ابو الحسين ليستفسر سر معرفتهم فقال احدهم : اعرف نعيبا للغراب بعينه لا ينعبه في موضع الا مات ساكنه ،وسئل الثاني كيف قلت انه يموت بعد ثلاثة ايام ،قال : كان ينعب ثلاثة متتابعات ثم يسكت ثم ينعب ،قلنا للثالث : وكيف قلت انه يدفن في داره ؟ قال : رأيت الغراب يحفر الحائط بمنقاره ورجليه ويحثو على نفسه التراب/فعلت انه في داره . (١)

اما الفأل وزجر الطير والنجوم فاستخدموها في كثير من امورهم ،قال ابو الحسين بن عياش اخبرني من اثق به ان اسماعيل بن بلبل لما قصده صاعد لزم داره ،وكان له حمل قد قرب وضعه ،فقال : اطلبوا لي منجما ياخذ مولده . فاحضر اعرابيا ليس في الدنيا احذق منه ، فلما دخل قال له اسماعيل : اتدري لاي شيء طلبناك ؟ قال نعم ، قال ما هو ؟ فادار عينيه في الدار فقال : لتسألني عن حمل . وكان اسماعيل قد اوصى بان لايعرف . فتعجب من ذلك وقال له : فاي شيء هو اذكر ام انثى ؟ فادار عينيه في الدار وقال : ذكر . . . فبينما نحن كذلك اذ طار زنبور على رأس اسماعيل وغلام يذب عنه ،فضرب الزنبور فقتله فقام الاعرابي وقال : قتلت والله المزنر ووليت مكانه ولي حق البشارة . وبينما هم كذلك اذ وقعت الصيحة بخبر الولادة ،وقالوا ان المولود ذكر . فسر اسماعيل سرورا شديدا لاصابة العائف

---

(١) التنوخي ،نشوار المحاضرة ص ٢٦٥

في زجره وترجيه الوزارة وهلاك صاعد ، ووهب للاعرابي شيئا وصرفه . فما مضى على هذا الا دون شهر حتى استدعي الموفق اسماعيل وقلده الوزارة وسلم اليه صاعدا . ولما سئل الاعرابي عن سر معرفته تلك الامور قال : تلمحت الدار فوقعت عيني على برادة عليها كيزان معلقة في اعلاها فقلت حمل ، ورأيت عصفورا ذكرا فوق البرادة فقلت ذكرا ، ثم طار عليه زنبور وهو مخصر والنصارى متخصرون بالزنانير والزنبور عدو اراد ان يلسعه ، وصاعد نصراني الاصل وهو عدوك فزجرت ان الزنبور عدوك وان الغلام لما قتله انه سيقتلك . (١) وهكذا صدقوا مثل هذه الحكايات الخرافية واعتبروها حقيقة واقعية عليهم الايمان والعمل بها . ولم يقفوا عند هذا الحد ولكنهم قرنوا الحوادث والاخبار بالحشرات والحيوانات . كانت العامة تكافح الذباب الكبير الشديد الطنين الجهير الصوت والذي يسمى امير الذباب احتالوا على طرده وصرفه والخلاص منه فلما سقط اليهم انه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم ، صاروا اذا دخل المنزل واوسعهم شرا ، لم يهجه احد منهم . (٢) (*) وكما زعم اصحاب التجربة انه كثيرا ما يروع الرجل اذا ذبح الديك الابيض الافرق ، انه لا يزال يعقب في اهله وماله . (٣)

وزعمت النساء ان الخفاش اذ عض الصبي لا ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي . (٤) (*) ويظهر من القصة التالية ان الافلاس كان قد عرف طريقه الى جيوب الكثيرين ، فاخذوا يعللون النفس ويمنونها ويصوغون لذلك القصص والاحاديث ، قد تكون من باب التسلية لا ادري اذا سقط الى المفاليس ان الخفاش تجلب الرزق ، ودونها دليل على رزق حاضر : من صلة او جائزة او ربح او هدية ، او حظ فصارت الخفاش ان دخلت في قمصهم ونفذت الى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلا ولا كثيرا . واكثر ما عندهم اليوم الدفع لها ببعض الرزق

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤
(٢) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ٣٤٢
(*) وهذا معروف عندنا اليوم ، ولكن ليس من الذباب بل من العصافير ، فاذا سقسق جماعة من العصافير وتقاتلوا فيما بينهم صاح اصحاب الدار خير ، خير ، اهلا وسهلا بالغائب الزائر
(٣) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٥٩
(٤) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٣٤
(*) فما انسى غرضي وانا طفلة بما قاله لي الخدم وما سمعته من السن العجائز ، ان الخفاش اذا ضرب وجهي يلصق به ، ولا يقام الا بوضع دينار ذهبي عليه .

ويظن بعضهم انه اذا دفعها فعادت ، ثم دفعها فعادت ، ان ذلك كلما كان اكثر ، كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها اجزل واكفى .(١) اما اليوم فالخنفسا غير مرغوب فيها وتسمى مخدة العقرب ، وعندهم متى ظهرت لا بد وان تظهر عقرب بحذائها . وفي سنة ٣٠٤ هـ في فصل الصيف فزعت العامة وخافت من حيوان سموه "الزبزب" ذكروا انهم يرونه في الليل على سطوحهم ، وانه يأكل الاطفال وربما قطع يد الانسان اذا كان نائما او ثدي المرأة فيأكله وكانوا يتحارسون طول الليل ولا ينامون ، ويضربون الطسوت والصواني والهواوين ليفزعوه ، فارتجت بغداد لذلك ، حتى اخذ السلطان حيوانا غريبا ابلق كأنه من كلاب الماء وقال " هو الزبزب " فصلب على نقنق عند الجسر الاعلى وبقي مصلوبا الى ان مات وسكن الناس . وكانت هذه الحادثة ما يطلبه اللصوص ، فكثرت الكبسات والسطوات على البيوت .(٢) ولا يزال الزبزب ما يرعب به الاطفال في العراق باعتبار انه يخرج من المقابر .(+)

اما النذور والضحايا فكثيرة قديمة وحديثة ، للاولياء والانبياء ، فتقدم الى الجوامع والبيع والاديرة . وبعض هذه الاديرة كانت غنية تماما بما يصلها من النذور ، يقول ياقوت عن دير برصوما ، " هو الدير الذي ينادر له بطلب نذره في نواحي الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم " . ويقول ايضا حدثني العفيف مرجا الواسطي التاجر قال : اجتزت به

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ، م ٣ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١

(٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٣٩ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، م ٨ ، ص ٢٨

(+) حدث في صيف سنة ١٩٤١ ان قامت اشاعة في بغداد بوجود حشرة اسمها الهبهابة شبيهة بالعقرب تطير في الليل ، ومتى عضت شخصا تكون نهاية حياته . فاخذ الناس ينصحو بعضهم البعض لاستعمال الناموسيات ولم يكن للناس حديث يومئذ سوى الهبهابة وضحاياها وفي النتيجة كشف السر عن هذه الاشاعة واذا ببعض الصيدليات تحاول تنفيذ ما كان لديها من الناموسيات ، فاخترعوا وروجوا هذه الاشاعة .

قاصدا الى بلاد الروم فلما قربت منه اخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له وان الذين ينذرون له قل ما يخالف مطلوبه وان برصوما الذي فيه احد الحواريين ، فالقى الله على لساني ان قلت ان هذا القماش الذي معي مشترى بخمسة الاف درهم فان بعته بسبعة الاف درهم فلبرصوما من خالص مالي خمسون درهما ، فدخلت ملطيه وبعته بسبعة الاف درهم سواء فعجبت فلما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهما ؛ وتبلغ نذوره سنويا عشرة الاف درهم .(١)

ولقد اعتقدوا بالاحلام وبذلوا الكثير في تفسيرها .(٢)

وكم نسبوا الخوارق الطبيعية الى مسببات سخيفة كقولهم بالخسوف ان القمر يلعنه الحوت ، وحتى اليوم في جميع انحاء العراق عندما يقع الخسوف يسمع اصوات دق الهاونين والرصاص والصريخ والعويل والمناداة والغناء والشتم وغيره لارهاب الحوت وتخليص القمر منها . وعند ابتداء السنة الهجرية كذلك يحسبون نجمها ، ودورتها والحيوان الذي تدور عليه العام كله ، وان دارت على الحية مثلا فهناك الطامة الكبرى فتبكي النساء وتصرخ وتولول باعتبار ان ابناءها سيموتون بين ايديها والى غيره من السخافات التي لا اساس لها .

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢٦

(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ١٧٧

الفصل الثاني .

الاخلاق العامة

ميزات الرجل المهذب (الظريف) .

لكل عصر ، ولكل عهد ، اصول وقواعد تطبى الزمن ومعاصريه بطابعها الخاص ، ليعملوا بها ، ولا يحيدون عنها ، لان الخروج عنها يعني الابتعاد عن قواعد الادب والتصرف المعقول الذي يليق بالكبار والمهذبين والساسة ، والنزول الى مستوى السفلة والعامة الذين لا يفقهون من هذه الامور شيئا . لذا فهم ليسوا اهلا بحضور مجالس الكبار والخاصة العامرة بالظرفاء ممن اتقنوا قواعد التصرف في الظرف والحديث والهدايا والملبس والطعام وغيره من العادات والعلاقات الاجتماعية المتداولة في المجتمع . فالمهذب يجب ان يكون مرنا في تصرفاته مع الآخرين لانه قد يجالس الوضيع وقد ينادم الخليفة او الامير . فلكل مجلس مقام وهيئة . يقول ابن النديم : "لا يوجد من اصحاب الملوك وجلسائهم اولى باستجماع محاسن الاخلاق وافاضل الاداب وطرائف الملح وغرائب النتف من النديم حتى انه يوجد فيه اشياء متضادة ، ففيه شرف الملوك وتواضع العبيد مع عفاف النساك . مجون الفتاك ، مع وقار الشيوخ مزاح الاحداث "(١) . وقال سهل ابن هارون "ينبغي للنديم ان يكون كأنما خلق من قلب الملك يتصرف بشهواته ويتقلب بارادته ، لايمل المعاشرة ، ولا يسأم السامرة ، اذا انتشى يحفظ واذا صحا ييقظ ، ويكون كأنما لسره ناشرا لبره ."(٢)

ولا يكون الظريف ظريفا حتى تجتمع فيه خصال اربع : الفصاحة ، البلاغة ، العفة والنزاهة .(٣) ولا يكون النديم اهلا لاسمه حتى يكون له جمال ومروءة ، اما جماله فنظافة ثوبه

---

(١) ابن كشاجم ، النديم ، ص ٧
(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٤٩
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ١ ، ص ٣١

وطيب رائحته وفصاحة لسانه ، واما مروءته فكثرة حيائه في انبساط الى جميل وقار مجلسه مع طلاقة وجهه في غير سخف ، ولا تكمل مروءته حتى يسلو عن اللذات .(١)

والحديث اهم ما يتصف به النديم ، فحديثه يجب ان يأخذ بمجامع قلوب مستمعيه ، حتى قيل مرة لشيخ: ما بقي من لذاتك ؟ قال : استماع الملح . قال ابن الرومي :

وسئمت كل مآربي ... فكان اطيبها خبيث

الا الحديث فانه ... مثل اسمه ابدا حديث

يجب ان يكون النديم الظريف ملما بآداب الحديث ، كأن يستمع الى محدثه ويقبل عليه بالوجه والنظر والوعي ولا يشغل طرفه عنه ، ولا يسابقه الى حديث يبدأ به لمعرفته بذلك الحديث ، بل يريه من الارتياح له والتعجب منه ما يوهم المتكلم ان لم يسبقه الى كلامه احد غيره ، ومن اداب الكلام ان لا يقتضب اقتضابا ، او القفز من فقره الى اخرى ، بل ان يستنبط استنباطا معقولا ويتدرج بالحديث بما يشاكله او يتماشى معه ، حسب قولهم وللحديث شجون .(٢)

وندیم حلو الحديث يجاريك ... بما تشتهيه في ميدانك

المعي كان قلبك فيه ... اضلاعه او كلامك بلسانك .(٣)

كذلك ان لا يبدأ موضوعا ثم يقطعه على اساس ان التحدث به محظور في مثل هذا المكان ، اذ الاحسن ان يتروى قبل العرض ، واذا عرض فليكمل مهما كان الامر . ولا يجوز له السكوت ، ولا يكثر التبسم والقهقهة .(٤) فالعبث والمزح له من المنادم موقع خاص حتى ان قائل سأل المأمون ان يأذن له في المداعبة فاجابه : وهل العيش الا فيها !(٥) وعلى الظريف ان لا يكثر من المزح لان قد يخرجه ذلك من طور الوقار ، وقد يزل الانسان ويفسد قلوب الاخوان والاصحاب والخلان . قال الشاعر :

---

(١) ابن كشاجم ، النديم ، ص ١٢
(٢) ابن كشاجم ، النديم ، ص ٢٣ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٢٢
(٣) ابن كشاجم ، النديم ص ٧ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٥٠
(٤) ابن كشاجم ، النديم ص ٢٥
(٥) ابن كشاجم ، النديم ص ١٢

ما زح اخاك اذا اردت مزاحا وتوق منه في المزاح جماحا

فلربما مزح الصديق بمزحـــة كانت لباب عداوة مفتاحـا (١)

وكان محظورا عليهم استعمال بعض الكلمات الخاصة او التفوه بها وان لا ينطقها ظريف او متظرفة من النساء ، مثلا ، لا تقول متظرفة لاخرى هذه وردتك ولوزتك ونبقتك وجوزتك ورمانتك وتينتك ، لانه عندهم من العيوب التي تشمئز منها النفس وينفرعنها القلب ، ولا تقول واحدة لاخرى ارفعي رجلك ولا ذيلك ولا اقعدى عليه ولا شيلي ولا انتحي ولا اعملي ولا قد عملت ، ويتجنبون ذلك وما اشبه من الكلام مما كثر استعماله في خطاب العوام ، ولا يتلفظون به . (٢) وقال بعضهم في النديم الذى يأتي يعقبون الحديث وحلوه :

ارى للكاس حقا لا اراه لغير الكأس الا للنديـــــم

هو القطب الذى دارت عليه رحى اللذات في الزمن القديم . (٣)

وقال العطوى في الندام :

الراح والندمان احسن منظرا من كل ملتف الحدائق رائق

فاذا اجمعت صفاءها وصفاؤه فاقذف بكل ملمة من شاهق . (٤)

ومن تكامل ظرف الظريف ظهور بزته وظهور طيب رائحته ونظافة بدنه وان لا يتسخ له ثوب ولا يطول له ظفر ، ولا يكثر له شعر ولا يفوح لابطه رائحة ، ولا يسيل له انف . (٥) " ومن زى الظرفاء والادباء وارباب الديانة استعمال السواك ، والتسوك هو انبل النظافة واحسن الطهارة واكمل المروءة ، وهو من السنة . قيل ان الرسول قال : "طهروا افواهكم فانها مسالك التسبيح ، " وعن ابي بكر الصديق " السواك مطهرة للفم مرضاة للرب " والسواك استعمال ظريف ، يبيض الاسنان ويصفي الاذهان ويطيب النكهة ويطفئ المرة وينشف البلغم ويشد اللثة ويقوى العمر ويجلو البصر ويشهي الطعام ، وقد استعملوا مع المساويك الاراك والسكر وعرق السوس وعود المحلب وعروق الاذجز وعقد العاقرقرحا ، وكلما اضربوا في الاخذ

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ص ١٢ - ١٣
(٢) التيفاشي ، نهاية الارب ج ٤ ، ص ٥٠ - ١٥٠
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩
(٤) ابن كشاجم ، النديم ص ٧
(٥) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣١ - ١٣٢

من هذه المادة كلما ازداد ظرفهم . وللمساويك اوقات خاصة لا يتجاوز عن غير ساعاتها ، فيجوز استعمالها بالغدوات والعشيات واوقات الظهيرة وقبل الغداء وبعد الصلاة وعلى الريق وفي ايام الصوم . ولا يجوز السواك عندهم في الخلاء والحمام وقارعة الطريق ، وان لا يراه احد لان ذلك من فعل العوام وليس من فعل الادباء وذوى المروة والظرفاء .(١)

واتخذ اهل الظرف للمساويك طسوتا لطافا واباريق الشبه الخفاق وكراسي الابنوس المصدفة والخيزران المشبكة والاقحاف المخروطة ، والمسواكرانات المدهونة والسنونات المعمولة ووقتوا له الاوقات المعلومة التي جعلوها كفرائض وسنن لا يحيدون عنها ولا يخطأون في ضبط اوقاتها ، ولا يستعملون رأس السواك لمدة طويلة لان هذا دليل البخل ، بل يتخذون لها لفائف الخز وعصائب القز لتصان من الدنس وتوقى من الغبار والنجس . وتهادى اهل الظرف المساويك ، وسأبين ذلك في باب الهدايا .(٢)

وعلى الظريف ان لا يأخذ شعره في دكان حجام ولا يدخل بغير مئزر الى الحمام . وينبغي له ان يدخل الحمام على خلوة ولا يعلق ثوبه على وتد ولا يدلي رجله في البئر التي ينصب اليها الماء فان ذلك مما يفعله الادنياء ، ولا يدلك يديه بخرقة فان ذلك مما يستعمله السخفاء ولا يتمرغ على حرارة ارض الحمام فهو فعل سفلة العوام بل ينبغي له ان يدخله متزرا ويقعد فيه معتزلا ، ولا يقعد مستوفزا على رجله ، فان ذلك طعن على عقله ، ولا يميل مضطجعا بل ينتصب متربعا ، حتى اذا نضب العرق من بدنه وسال على جسمه نشفه بمنديل ثم دعا لرأسه بالغسول والاشنان المنخول .(٣)

الصـــــداقة .

يقول الموشى في اخلاق الظرفاء " والظرفاء يتحلون بالشيم السنية والاخلاق الرضيه وانهم لا يداخلون احدا في حديثه ولا يتطلعون على قار في كتابه ولا يقطعون على

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ــ ١٤٢
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٤٧

متكلم كلامه ولا يستمعون على مسر سره ولا يسئلون عما ورى عنهم علمه ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه ، يتسرعون الى الامور الجليلة ويتبطئون عند الاشياء الرذيله ثم هم لا ينتجعون ولا يتبصقون ولا يتثاءبون ولا يتجشئون ولا يتمطون ، لان كل ذلك عيب عند الظرفاء ، وهم لا يمدون ارجلهم ولا يحكون اجسادهم ولا يمسون آنافهم ، خاصة اذا كان احدهم بين يدى خليله او حبيبه او من يحتشمه ، ولا يدخل احدهم الخلاء من حيث يراه احد ولا يبول بين يدى احد ، وليس من زيهم الاقعاء في الجلسة ولا السرعة في المشية ولا الالتفات في طريق قصدوه ، ولا ينفضون الغبار عن ارجلهم في المواضع المكنوسة ولا يستريحون في الاماكن المرشوشة ولا يجلسون في مجلس فينتقلون له ولا يشربون ماء الاحباب ولا الماء في دكاكين الشراب ولا ماء المساجد والسبيل وذلك مشنى عند ذوى العقول ، ولا يدخلون دكان هراس ولا دكان رواس ولا يجتازون مراق ولا يأكلون شيئا مما يتخذ في الاسواق ولا ياكلون على قارعة الطريق ولا في مجمع ولا في سوق وهناك حديث مروى عن الرسول " ان الاكل في السوق دناءة "(١)

الغـــــــزل .

ويحس بالظريف ان يكون عاشقا ، قيل لبعض البصريين ان ابنك قد عشق فقال : لا بأس عليه انه اذا عشق نظف وظرف ولطف . وانشد بعض الادباء :

وما الناس الا العاشقون ذوو الهوى وما خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال آخر : وما تلفت الا من العشق مهجتي وهل طاب عيش لامرئ غير عاشق .(٢)

وليس بعاشق عندهم ولا يثبت اسمه في سجل الهوى ولا يلحق بالظرفاء ان لم يذق طعم الشحول والذهول والضنى والعناء والارق والقلق والسهر والفكر والذل والخضوع والانكسار والخشوع والبكاء وقلة السلوان وكثرة الانين والتوجع والحنين . انشد بعضهم :

---

(١) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ١٤٦ - ١٤٧
(٢) الوشاء ، الموشى ج ١ ، ص ٣١

علامة من كان الهوى في فؤاده اذا ما لقى احبابه يتحيرا
ويصفر لون الوجه بعد احمراره فان حركوه للكلام تشورا .(١)

وعلى الظريف ان لا يخلف المواعيد لانه غير لائق به . ويكون كتوما للسر .(٢)
ومن شروطهم حفظ العهود وانجاز الوعود والوفاء ، (٣)لان قلة الوفاء وكثرة الخيانة والغدر ليس من سنة الظرف ولا من اخلاق الظرفاء ومتى ظفر احدهم بحبيبه واصاب الغفلة منه فهذا فساد الحب ودمار العشق وبطلان الهوى وتكدير الود الخالص .(٤)

يقول الوشى ، ومن مذاهب الظرفاء " الميل الى مغازلة النساء ومداعبة الفينات وحب النساء عندهم من حسن الاختيار وهو اشبه بمذاهب ذوى الاخطار ، وليس هوى الغلمان عندهم بمحمود ولا هو في سيرهم موجود وانما آثروا هوى النساء على الغلمان ومدحوهن بكل لسان ، بملیح براعتهن وملاحتهن وبديع دلهن وهواهن للقلوب انكى والعشق بهن الهق وهن للرجال اوفق . قال بعض الشعراء :

احب النساء وذكر النساء ويعجب قلبي لذيذ الغناء
وهل لذة العيش الا النساء وحسن الغناء وشرب الطلاء "(٥)

وقد يجوز ان يكون ظريفا بغير عشق ، كما كان عاشقا بغير فسق ، حيث يجمع الصفات الاخرى التي يتمثل فيها الظرف .(٦) ومن العيب جدا ان يتخلق الرجل باخلاق النساء .(٧)

المـــــــراسلة .

يجب ان يكون الظرفاء ملمين في طرق المراسلة بين الاصدقاء والاحبة . فمن امثلة ما يكتب :

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ١ ، ص ٥٣
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ١ ، ص ٣٤ ـ ٣٥
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٤٩
(٤) الوشاء ، الموشى ، ج ١ ، ص ٣١
(٥) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٠٤
(٦) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١١١
(٧) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٧

عليك سلام الله ما هبت الصبا وما قرقر القمرى في ورق السدر

سلام سقيم مدنف القلب مقسرح مشوم عليل مشعل القلب بالجمر

وقال اخر : عليك سلام الله ما لاح كوكب بافق لسارى واستوسق البدر

سلام غريب شفه الوجد والهوى وبل حشاه الهم والذكر والعسر . (١)

وفي المعاتبات وتفريغ سرائر القلوب ، استعملوا الحرير الصيني وملبح الملحم النيسابورى وصفيق الدبيقي الحفي ونقي التاختج والقوهي . وكتبوا عليه بالمسك والذهب والزعفران ، كما انهم اتخذوا طرائف المناديل الرقاق وجياد الزنانير الدقاق وطيبوها بالمسك والذرائر وعنونوها بمتظرفات الامثال والنوادر ، وختموها بالغالية ، وطبعوها بالالفاظ الملتهبة لوعة وغراما وضمنوها طريف المعاتبات والمطالبات والمداعبات . منها :

اما والذى لو شاء لم يخلق الهوى لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي

يذكرنيك الشوق حتى كأنني اناجيك من قرب وان لم تكن قربي . (٢)

وفي العنوانات بانت مهارتهم وفنونهم في الغزل :

الى ستي ومالكتي وروحي من الجسد الطريح بغير روح

وقال اخر: مني اليك فاني هائم دنف حليف السقام براني الشوق والاسف

النفس ذاهبة والعقل مختلس والقلب محتبس والروح مختطف . (٣)

الهـــــدايا .

تظرف هؤلاء العشاق في هداياهم ، فاهدوا اشياء وتطيروا من اخرى ، فالتفاح عند اهل الظرف والعشاق لا يعدله شئ من التمر ولا النور ولا الزهر ، فهو المهدى لاشجانهم ، والمسكن لاحزانهم ، وفيه يكتمون اسرارهم ، ويتخذونه بمنزلة الحبيب والانيس والصاحب

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٦٠

(٢) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٥٠

(٣) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٦١

والجليس ، وليس بين هداياهم ما يعدله او يشبهه لشبهه بالخدود الموردة ، والوجنات المضرجة قال :

تفاحة اهديت طرفا معضضة ... وقد جرى ماء ثغرى في ضواحيها

بيضاء في حمرة علت بخالية ... كانها جنيت من خد مهديها

قد اتحفتني بها في النوم جارية ... روحي من السوء والاسقام تفديها

لو كنت ميتا ونادتني بنغمتها ... لخلت للصوت من لحدى اليها . (١)

وكاد محمد ابن اميه يجن بتفاحة مثلجة منقوشة مطيبة حسنة اهدتها اليه خداع الجارية التي كان يهواها . (٢)

اما الخوخ فقد اطنبوا في وصفه ومدحه وشبهوه بالوجنات الملاح لانه يشاركها في البياض والسمره والادمه والصفره والتورد والحمرة والزغب واللين ، " وهو اطيب ملثم واعذب مقبل واذكى مشم وهو عند طائفة من اهل الهوى اجل مرتبة من التفاح لولا ما خالطه من النوى الذى يشمئز منه الظرفاء " (٣) وفي الورد جن المحبون واشتهوا رائحته وشبهوه بالخدود والخمر ، ومثلوه بجميع الاشياء الملاح كفعلهم بالتفاح ، وتقريبا هما عندهم بمرتبة واحدة . قال العباس بن الاحنف :

ابغض الناس والخلاف جميعا ... لمكان الخلاف واليأس منها

واحب التفاح والورد حتى ... لو وزنتيه بالجبال وزنتها

انهما ريقها ونكهة فيها ... فهما ينبئان بالطيب عنها . (٤)

وقال آخر: تمتع من الورد القليل بقاؤه ... فانك لم يفجعك الا فناؤه

وودعه بالتقبيل والشم والبكا ... وداع حبيب بعد حول لقاؤه . (٥)

وهدية الورد مألوفة ومعروفة عند الظرفاء والمحبين دائما . (٦)

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١١ ، ص ٣٣
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٦
(٤) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٧
(٥) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٧
(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣٧٨

وهناك اشياء ارتأوا اهدائها عن طريق التفول لا عن طريق الظرف كالكرمان والشاهلوج والنبق والبنفسج والمسك . قيل في الرمان :

اهدت اليه بطرفها رمانا تنبيه ان وصالها قد انى
قال الفتى لما رآه تفولا وصل يكون متمما احيانا
لم يعم تشعشي بوصالها لقد التفول صادقا قد كانا

وفي النبق : ايا احسننا خلقا ومن فات الورى سبقا
تفاءلت بان تبقى فاهديت لنا النبقا
فابقاك الاله النا س ما سرك ان تبقى
واشفى الله شانيك وحاش لك ان تشقى . (١)

وتهادى اهل الظرف ايضا المساويك واقاموها مقام التذكرة والوداع ، والوديعة ، والقبلة و كما فعلوا في اللبان الممضوغ والتفاح المعضوض . قال العباس بن الاحنف :

طال ليلي بجانب الميدان مع جوارى المهدى والخيزران
ارسلت باللبان قد مضغته بين تفاحتين في ريحان
وبمسواكها الذى اختاره اللـ ـه لفيما من طيب الاغصان
فكأني وجدت ريحا من الفر دوس فاحت من ريح ذاك اللبان . (٢)

وقيل في المسك : الطيب يهدى وتستهدى طرائفه واشرف الناس يهدى اشرف الطيب
والمسك اشبه شيء بالشباب فهب شبه الشباب لبعض العصبه الشيب . (٣)

واحسن محمد بن عبدالله بن طاهر حيث قال :

واذا سألتك بعض ريقك قلت لي اخشى عقوبة مالك الاملاك
ايجوز عندك ان يكون متيم بسواك عندك دون عود اراك
ماذا عليك جعلت قبلك في الثرى من ان اكون خليفة المسواك . (٤)

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ٤٢
(٣) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ١١٠
(٤) الوشاء ، الموشى ج ٢ ص ١٤٥

وتطير بعض الظرفاء من هدية الخاتم وزعموا انه يدعو للقطيعة والهجر.(١)

وانشدوا : ولما وهبتم خاتما فرددته لمعرفتي ان الخواتم تقطع

فاهدى سواكا من فاك فانه يسكن نارا في جوى القلب تلذع .(٢)

وايضا : اني مزحت ولم اعلم بخاتمه فكان منه ابتداء الهجر والغضب

قد كنت ما قال اهل الظرف انكره وكان قولهم عندى من اللعب

ان الخواتيم فيها قطع وصلكم فقلت هذا لعمرى غاية الكذب

حتى ابتليت فكان الحق قولهم اخذ الخواتيم فيه اكثر العطب

بينما انكر غيرهم ذلك وقالوا في الخواتيم التذكرة والوديعة :

يقول اناس في الخواتيم انها تقطع اسباب الهوى واقول

بان خواتيم الملاح وصولة وخاتم من تهوى الملاح وصول .(٣)

وبالرغم مما ذكرناه عن الورد وتمنيه، تطير منه اخرون وسموه الغدار لقلة لبثه وسرعة ذبوله ،قيل ان قينة اهدت الى صديق لها آس فسر به وانشد :

والآس يبقى وان طال الزمان به والورد يفنى ولا يبقى على الزمن .

ولما اهدت اليه وردا تطير منه :

انت ورد وبقاء الـــــورد شـــــهر لا شـــــهور

يذهب الورد ويفنى والى الاس نصـــــير

فكتب اليه بعض اخوانه :

سر بالآس الذى اهدت له ثم لما اهدت الورد جزع

ذلك ان الآس باق دائم ولان الورد حينا ينقطع .(٤)

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ص ١٣٨
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٤٢
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٢٨
(٤) الوشاء ، الموشى ، ص ١٢٨

كذلك تطيروا من اهداء بعض الاشياء لشناعة اسمائها ،كالاترج والسفرجل والشقائق والسوسن والتمام واطباق الخلاف ،والغرب والبان . فالاترج لمخالفة باطنه ظاهره ، فهو حسن الظاهر حامض الباطن طيب الرائحة مختلف الطعم .لذلك قيل فيه :

اهدى له احبابه اترجـــة فبكى واشفق من عيافة زاجر

خاف التلون اذ اتته لانها لونان باطنها خلاف الظاهر

فرق المتيم من حموضة لبها واللون زينها لعين الناظر

اما السفرجل فلان فيه اسم السفر . وقيل :

متحفي بالسفرجل لا لا اريد السفرجلا

اسمه لو عرفتـــه سفرجل فاعتلى

وقيل في الشقائق :

لا يحب الشقائقا كل من كان عاشقا

ان نصف اسمه شقا . اذا فهت ناطقا

وفي السوسن : سوسنة اعطيتنيها دما كنت باعطائكما محسنة

شطر اسمها سوء فان جئت بالاخـــــر منها فهو سوء سنة

وانت ان هاجرتني ساعة قلت اتت من قبل السوسنه

والياسمين لمبدأ اسمه :

ابصرته في المنام ناولني من كفه الياسمين والغربا

فكان ياس في الياسمين وفي الغرب اغراب يا شؤم ما وهبا

والنمام لشناعة اسمه :

حييتها بتحية في مجلس بقضيب نمام من الريحان

فتطيرت منه وقالت اقصه لا تقربن مضيع الكتمان

وتطير قسم من الآسي وزعموا انه اياس ، وتفأل به آخرون وزعموا انه مواساة واياس . قال الشاعر

ما احسن الآسي في عيني واطيبه لولا اتصال حروف الآسي باليأس

ما ضر من كان اهدى الآسي منيته لو قال ريحانة يعني به الآس .

لولا الذي اتقي من طيرتي بهما ما فارقا ابدا تاجا على رأسي .

كذلك تطيروا من الخلاف للخلف والغرب للاغتراب والبان للتباين .(١)

وكره الظرفاء وتطير الادباء من هدية التكة والخاتم ، ولما كانا من الاشياء المحببة اتفق ان يشتريا بثمن بخس كالدرهم الصغير او قطعة البخور وبذا تزول عنهما صفة الهدية . وهناك قصص تدل على تهادي الخواتيم(٢)

اهدوا في مناسبات عديدة كالمرض والفصد ، والاعياد لا سيما النوروز والمهرجان قال اسحق بن ابراهيم الموصلي عندما شربت زرقاء جارية ابن رامين دواء ، اهدى لها ابن السقف الف دراجة على جمل تراثي .(٣) "واهدت قطر الندى للمعتضد في يوم نوروز في سنة ٢٨٢ هـ هدية فيها عشرون صينية ذهب في ١٠ هشام عنبر وزنها اربعة وثمانون رطلا وعشرون صينية فضة في عشرة منها مشام صندل زينتها نيف وثلاثون رطلا وخمس خلع وشي قيمتها خمسة الاف دينار ."(٤) ويحكى ان دخل سلم الخاسر على الفضل بن يحي يوم نوروز والهدايا بين يديه ، فقال فيه شعر يمدحه ، وكان ابراهيم الموصلي وابنه اسحق حاضرين فقال الفضل لهم " اقتسموا جميع ما اهدى الي اليوم "(٥) ويقدم الابشيهي مثلا آخر على نوعيه الهدايا في ذلك الوقت . يقول " واهدى يعقوب بن الليث الصفار الى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشرة بازات منها باز ابلق لم ير مثله ومائة مهر وعشرون صندوقا على عشرة بغال فيهم طرائف الصين وغرائبه ومسجد فضة بدرابزين يصلي فيه خمسة عشر انسانا ومائة رطل من مسك ومائة رطل عود هندي واربعة الاف الف درهم ".(٦)

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٢ - ١٣٤ (٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٣ ، ص ١٢٩ تقدم (٤) الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ، ص ٦٧
(٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٢١ ، ص ٨٢ تقدم (٦) الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ، ص ٦٧

وارتأوا ان تكون الهدايا من الكبير للصغير كبيرة وعظيمة ، وبالعكس اذا كانت من الصغير الى الكبير .(١)

اللبـــــــاس .

كان لهم زى خاص في الخواتم والفصوص . يقول الموشى "التختم بالعقيق الاحمر والفيروزج الاخضر والفضة المحرقة والياقوت الاسمانجوني والبهاذى الخراساني والنعرانية الحمر والياقوتية الصفر واليمانية السود الحسنة القدود على الخواتيم المهرانيه والمضروبة المتوكلية ولا يتختمون بالذهب وليس من زى ذوى الادب وانما هو من لبس النساء ولبس الصبيان والاماء ."(٢) جاء في وصف امراة ، ان في اذنيها حلقا وفي معاصمها اساور وفي اصابعها خواتم بفصوص .(٣) بينما يقول ابن الجوزى ، ان كان لخلف بن عمرو العكبرى ثلاثون خاتما وثلاثون عكازا ، يلبس كل يوم من الشهر خاتما ويحمل عكازا ، فاذا انتهى الشهر بداء ثانية .(٤)

ومن عادة الظرفاء ما كتبوه على الفصوص وفي ذيول الاقمصة والاعلام وطرز الاردية والكمام والقلانس والكراذن والعصائب والتكك والوقايات ، وعلى المناديل والوسائد والمخاد والمقاعد والمناصر والحلل والاسرة والمتكئ والرفارف ووجوه المستنظرات وفي المجالس والايوانات وصدور البيوت والقباب وعلى الستور والابواب والنعال السندية والخفاف الزنانية وعلى الجباه والطرر وعلى الخدود بالغالية والعنبر . وسأنقل بعض ما قيل في كل ذلك . كتب على الخاتم.

احب من يهواني برغم من نهاني (٥) وآخر :

امسيت عبدا لك لا اجحد انا مقر والهوى يشهد .

ونقش اهل الهوى على خواتيمهم : من كثرت لحظاته دامت حسراته ، من تداوى بدائه لم يصل الى شفائه ، متى قدم هواه دام اساه ، العقل عند الهوى اسير والشوق عليهما امير ، اذا كثر الجفاء قل الوفاء ، اذا صح الظفر وقعت الغير ، اذا صحت القلوب اغتفرت الذنوب ، كل من سلا الا استقله الهوى ، من منع من النظر اقتصر على الاثر من منع من الوصال قنع بالخيال .(٦)

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٢ (٢) الوشاء الموشى ، ج ٢ ص ١٢٥
(٣) الف ليلة وليلة ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٥ (٤) ابن الجوزى ، الظراف والمتماجنين ص ١٣
(٥) مصارع العشاق ، ص ٢٦٢ ، الوشاء الموشى ج ٢ ص ١٦٣ (٦) الوشاء الموشى ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤

وكتبت عربب على قميص ملحم موشح بالذهب :

واني لاهواه مسيئا ومحسنا واقضي عليك قلبي له بالذي يقضي .

فحتى متى روح الرضى لا ينالني وحتى متى اياس سخطك لا تمضي .

وعلى طراز كمه :

اذا صد عن اهوى واسلمني القرى فرقة من اهوى احر من الجمر .(١)

وكتبت اخرى على كرزنتها : عذبه بالهجر مولاه وزاده شوقا واضناه

فدمعه يجرى على خده ولم تنم للوجد عيناه

قد كتب الحب على قلبه مت كمدا يرحمك الله .(٢)

ونقشت علل على عصابتها : ما ضر من صيرني حبه قرين احزان ووسواس

لو انه فر عن كربتي باسطرفي شر قرطاسي .(٣)

وعلى زنار اخرى : اليس عجيبا ان بيتا يضمني وإياك لا نخلو ولا نتكلم (٤)

وكتبت عازم على ثكه حرير كانت تتعصب بها :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا .(٥)

وعلى منديل ممسك لبعض الظراف : انا مبعوث اليكم انس مولاتي لديك

صنعتني بيديها فامسحي بي شفتيك .(٦)

وكان على بعل جارية سعيد الفارسي :

لا تأنفن من الخضوع لمن تحب ودارة

اخضع له فلطالما ملكت حل ازاره .(٧)

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٦٨
(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٧١ — ١٧٢
(٣) مصارع العشاق ، ص ٢٦٨
(٤) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٧٣
(٥) مصارع العشاق ، ص ٢٦٨
(٦) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٧٥
(٧) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٨١

وكتبت عريب على قميص ملحم موشح بالذهب :

واني لاهواه مسيئا ومحسنا واقضي عليك قلبي له بالذي يقضي ·

فحتى متى روح الرضى لا ينالني وحتى متى اياه سخطك لا تمضي ·

وعلى طراز كمه :

اذا صد عن اهوى واسلمني الفرى فرقة من اهوى احر من الجمر ·(١)

وكتبت اخرى على كرزنتها : عذبه بالهجر مولاه وزاده شوقا واضناه

فدمعه يجرى على خده ولم تنم للوجد عيناه

قد كتب الحب على قلبه مت كمدا يرحمك الله ·(٢)

ونقشت علل على عصابتها : ما ضر من صيرني حبه قرين احزان ووسواس

لو انه فرج عن كربتي باسطرفي شر قرطاسي ·(٣)

وعلى زنار اخرى : اليس عجيبا ان بيتا يضمني واياك لا نخلو ولا نتكلم(٤)

وكتبت عازم على تكه حرير كانت تتعصب بها :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا ·(٥)

وعلى منديل ممسك لبعض الظراف : انا مبعوث اليكم انس مولاتي لديك

صنعتني بيديها فامسحي بي شفتيك ·(٦)

وكان على نعل جاريه سعيد الفارسي :

لا تأنفن من الخضوع لمن تحب وداره

اخضع له فلطالما ملكت حل ازاره ·(٧)

---

(١) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٦٨
(٢) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٧١ — ١٧٢
(٣) مصارع العشاق ، ص ٢٦٨
(٤) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٧٣
(٥) مصارع العشاق ، ص ٢٦٨
(٦) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٧٥
(٧) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٨١

قال المارديّ رأيت على راحة قائد جارية لبعض جوارد المأمون اليمنى بالحناء :

فديتك قد جهلت على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا

وكتبت الماهانية على كف جاريتها شماريخ بالحناء :

ابى الحب الا ان اكون معذبا ونيرانه في الصدر الا تلهبا

فواكبدا حتى متى انا واقف بباب الهوى القى الهوان وانصبا .(١)

قال المازني كان على جبين جارية شريط مكتوب بالعالية :

صرمتني ثم لا كلمتني ابدا ان كنت خنتك في حال من الحال

ولا همت ولا نفسي تحدثني قلبي بذاك ولا يجرى على بال .

اما انواع الاقمشة والملابس التي اتخذوها ذكرته مفصلا في باب الملابس (راجع صفحة ١٤٨ ـ ١٥٨) .

ولم يقتصر ظرفهم في الكتابة على الملبوس فقط ولكنه تخطاه الى المجالس وما كان فيها من ادوات واوان وآلات فكتبوا على الوطأة واواني الذهب والفضة والسكاكين وقضبان الخيزران المدهونة والمخاد الصينية والمراوح والمذاب والعيدان والضارب والطبول والمعازف والنيايات والاقلام والدنانير ، والدراهم وفي تفليج الاترج والتفاح والقناني والاقداح .(٢)

وجد على قنينة بين يدى ابي دلف العجلي :

وقهوة كوكبها يزهـــر يفوق منها المسك والعنبـــر

يسقيكما من كفه احـور فانها من خده تعصـــر

وعلى قدح : اشرب وسق الحبيب يا ساقي وسقني فضل كأسه الباقي

وسقني فضل ما تخلف في الكـــاس بعمد بغير اشفاق .

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣

(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٦٢

وكتب على طاس : لا تحسبني ان طول الدهر غيرني بل زادني كلفا يا املح الناس
لم يجر ذكرك في لهو ولا طرب الا مزجت بدمعي عنده كاسي
كم عاذل قد لحاني فيك قلت له شلت يمينك هل بالحب من باس (١)

وكتب شاعر ظريف على صينية له صيني :

حث الندامى بعاجل النخبي وحث كأس الندمان يا باغي
ان لم تدرها والكأس مترعة حتى تميت الهموم لم تطب

وعلى مروحة لاحد الادباء : ان روح الحياة في حركات المراوح

كم بنان لطيفة من ظباء سوانح
حركتها فنفست عن خدود رواشح . (٢)

وعلى كله حرير اسمانجوني بالذهب :

سهرت وعانقتها ليلة على مثلها يحسد الحاسد
كأنا جميعا وثوب الدجا علينا لمبصرنا واحد

وكتب بعض الظرفاء على سرير له ابنوس بعاج :

ان طيف الخيال ارق عيني ما لعيني وما لطيف الخيال
جمع الله بين كل محب قد جفاه الحبيب بعد الوصال . (٣)

وعلى مخدة لظريف : يا راقد الليل ممن شفه السقم وهده قلق الاحزان والالم
جد بالوصال لمن امسيت تملكه يا احسن الناس من قرن الى قدم

وكتب بعضهم على البساط :قوم بذلت لهم صفو الوداد فما جازوا عليه ولا كافوا ولا رحموا
هم علموني البكاء لا ذقت فقدهم يا ليتهم علموني كيف ابتسم . (٤)

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ (٢) الوشاء بالموشى ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩
(٣) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ (٤) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧

ومن تكامل ظرف الظريف طيب رائحته ونقاء بدنه ونظافته ، ولا يتسخ ثوب ولا ينفتق له ذيل ولا يرى في سراويله ثقب . (١)

الطيب .

كان الطيب امرا مهما جدا بالنسبة للظرفاء ومن واجبات رب الدار نحو ضيوفه ان يأمر جواريه او غلمانه بتطييب الضيوف . (٢) وكان لهم انواع خاصة من الطيب لا يحيدون عنها ولا ينتسبون الى الظرفاء الا في استعمالها . جاء في الموشى " ومن زيهم في التعطر والطيب بالمسك المسحول بماء الورد المحلول واستعمال العود المعنبر بماء القرنفل المخمر والند السلطاني والعنبر البحراني والعبير والزرائر المفتوحة في العبائر وسوى ذلك من الطيب لا يقربونه والكافور لعلة برده لا يستعملونه الا من حرارة ظاهرة او من علة غالبة او موضوعا على الجمر مخلوطا بحبير المسك وزعفران الشعر وهو بهذه الصفة اطيب البخور ، وليس البرمكية وما اشبهها عليهم بمحظور ، وان الجيد من البرمكيه من البخور الذكيه وانما يكره استعمالها المتظرفون ، اذ هي مما يستعملونه المتقللون . " (٣) وتطيبوا كذلك بماء الورد او ورد جورى من احدى كور فارس وبه يضرب المثل ويسمى ايضا الماورد ، قيل فيه :

اطيب ريحا من نسيم الصبا جاءت بريا الورد من جور . (٤)

وكان يحمل من فارس الى الخلفاء كل عام مع خراجها منه سبعة وعشرون الف الف قارورة . ويضرب في اقاصي المشرق والمغرب ، اكثروا من ذكره ، وفي وصف قواريره :

مهندمات كالعذارى الحور منهدمات القصر كالبلور

كل فتاة نشأت بجور تختال في دراجها القصير

حاسرة عن ارج العبير مثل نسيم الزهر المعطور

اشهى من الوصل الى المهجور (٥)

---

(١) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٤٨ (٢) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ج ٢ ، ص
(٣) الوشاء ، الموشى ج ٢ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ (٤) الثعالبي ، لطائف المعارف ص ٢٤٨
(٥) الثعالبي ثمار القلوب ص ٤٢٧ القزويني ، اخبار البلاد ص ١٢١

واسمه متقدم مع بنفسج الكوفة ومنثور بغداد وزعفران قم ونيلوفر الشيروان ونارنج الصميره واترج طبرستان ونرجس جرجان .[١] وكان له موقع جميل في النفوس .[٢] وطيب دهن البنفسج مشهور وطيب الرائحة .[٣]

اما الغالية واحسنها المتساوي فيها العنبر والمسك .[٤] ولم يستعمل الرجال الكثير من الغالية ، ومن استعملوها وضعوها في اصول الشعر بحيث تنم ولا يرى لها اثر .[٥] وتخلقوا ايضا بالزعفران لا سيما في بعض المواسم والاعياد . وكان عود الهند ومسك التبت وعنبر الشحر مضرب المثل . قال ابن المطران :

بلاد مجموعها ثلاث الهند والترك والجزيره

وفي كتاب العطر ، خير العود الهندي المثلي وكلما كان اصلب فهو اجود ، وامتحان جودته اذا كانت فيه رطوبة بأن يوضع عليه نقش الخاتم فينطبع ، واذا كان يابسا فالنار تلتهمه ، ومن خصائص ثبات رائحته في الثوب اسبوعا واكثر ، والثوب لا يقمل ما دامت فيه رائحة منه .[٦]

واستعمل الرجل الخضاب لستر ما ابيض من شعره ، وللتمويه على القيان والجواري . قال يحيى بن عبد الملك بن هذيل :

لما رأت شعرى تغير لونه ورأته محتجبا وراء حجاب

قالت خضبت فقلت شيبي انما لبس الحداد على ذهاب شبابي .[٧]

وقال ابن الرومي : اشارت بالخضاب الى الخضاب كناظرة الى شئ عجاب

وكن غرائرا الا بشيب يخيله المخيد بالشباب .[٨]

وكان للزعفران مكان خاص يتطيب به الخلفاء والطراف واسما خصصت المرأة به لكثرة استعمالها له ، والا فهو عطر الرجال ، حيث ينسب لجعفر الصادق انه قال " يكره من الطيب اربعة اشياء للمحرم : المسك ، العنبر ، والزعفران (والورس ؟) "

---

(١) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٢٧
(٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٨٤
(٣) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ص ١٢٦
(٤) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ص ١٢
(٥) الثعالبي ، التمثيل ، ج ٢ ، ص ١١١
(٦) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٦٩
(٧) الثعالبي ، ثمار القلوب ص ٤٢٣
(٨) ابن الروس ، الديوان ، ص ٣٥٣

استعمل الزعفران في الهدايا واصطحب بالاسفار وتهاداه الوزراء واصحاب الثراء وكان يطحن كما يطحن الدقيق ،واستعمل في تركيب ماء الخلوق وهو نوع من الطيب مائع اعظم اجزائه الزعفران تتطيب به النساء وكذا الرجال .

اما طريقة تطيبهم فهي ان يضع المتطيب الطيب في شاربه وسبلته .(١) وبعضهم يتبخر بالبخور الطيب الرائحة ،او يدعو بدهن ،فيمسح به صدره وبطنه وداخلة ازاره ثم يتبخر ليكون اعلق للبخور .(٢) وكان الآس والدهن طيب فقراء ذلك الزمن .(٣) ومن ادوات الزينة عندهم المشط والمرايا وقد بسطنا نوعها ومصادرها في الكلام عن زينة المرأة . وكان السواك والاراك من مطيبات الفم استعمل لينفيا ما قد يعلق في الفم من روائح .

الطعـــــــام .

شدد الظرفاء في الطعام وفي اداب الطعام ،ولم يعد منهم من لم يسر حسب قوانينهم . جاء في الموشى : " اول ما استعملوه تصغير اللقم وتجالل عن الشره والنهم واكل الاوساط الرقاق والبز ماورد الدقاق وليس يأكلون العصبه والعضله ولا العرق والكلوة ولا الكرش والقبه ولا الطحال الرئه ولا يأكلون القديد ولا يأكلون الثريد ولا ما في القدر من المرق ولا يتبعون مواضع الدسم ولا يملؤن أيديهم بالنهم ولا يجللون الملح وهو عندهم من اكبر القبح ولا يكوكبون في الخل ولا يمعنون في اكل البقل ،ولا يأكلون الطلع لشبه رائحته برائحة الماء الدافق ولا يمشمشون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ وانما مشاشهم ما لان وصغر ولا ما غلظ وكبر ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهور الاصابع ويطرحونه ناحية من الخوان ولا يزهمون ما بين ايديهم من الرغفان ولا يتعدون مواضعهم ولا يلطعون اصابعهم ولا يملئون باللقم افواههم ولا يدسمون بكبرها شفاههم ولا يقطرون

---

(١) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٩٢ (٢) الجاحظ ،ص ٩٤ ،البخلاء .
(٣) الجاحظ ،البخلاء ،ص ١٩٤)

على اكفهم ولا يعجلون في مضغهم ولا يأكلون بجانبي الشدقين ولا يزاوجون بين الاثنين ولا يجاوزون ما بين ايديهم شيء من الفتات ولا يأكلون شيئا من الكوبيج والصحناة ولا الربيثاء والسيكا ولا شيء من الكوامخ والمالح واكل ذلك عندهم من الفضائح الا ان القينات المتظرفات والنساء القصريات ربما تظرفن باكل المالح والمملوح في منازل متعشقيهن وبيوت مراهيطهن فيذهبن مذهب طرح المؤونات وخفة النفقات ولا يأكلون الجراد والاربيان لعلة شبههما بالاشياء القبيحة من الحيوان ولا يأكلون في النهار اكثر من اكلة ويكثرون القيام في مجالسهم ولا يكثرون من الضحك والكلام عند حضور المائدة والطعام ولا يتخللون على المائدة قبل ان تفرغ ولا يتحفزون لمجيئها قبل ان توضع واذا غسلوا ايديهم لم يطلبوا الغسل قبل طلب ايتائها من الوسخ والكدر ولم يقصدوا التقصير الذي يبقى منه رائحة الغمر وكذلك ايضا اذا تمندلوا فعلوا كفعلهم اذا غسلوا.(١) اكتفي بذكر هذا عن ادابهم في الطعام لاني ذكرت كلما يخص اداب المائدة مفصلا في فصل الطعام صفحة ١٦٧ الى ١٧٣ .

اما في الشراب فلم يشربوا منه الاسود بل احسن انواعه مثل الشمس والذهبي والمعسل والمطبوخ والطلاء والمعدل ، ولا يقربون ما لائمه الخثر ولا الكدر وشرابهم دائما الصافي من الشراب وارتفعوا عن المسحورى والدواشاب ، اذ بنظرهم هو من شراب العامة والرعاع وشرب السوقه والاتباع .

اكثر تقلهم في الشراب مطبوخ البندق ومقشر الفستق والعود الهندي والطين الخرساني والملح الصنعاني والسفرجل البلخي والتفاح الشامي ويتخذون احسن انواع الانية من الثمين والجيد النقي ، وغير ممكن ان يتنقلوا على شرابهم بالاشياء الرذيلة مثل الباقلاء والبلوط والبسر المقلو والقريثاء والضبيراء والشاهبلوط والخرنوب الشامي وما اشبه ذلك .(٢)

والملاح من اهل هذه الطبقة يقولون : ان من لم ينشر عشرة اصوات ويحكم من غرائب الطبيخ عشرة الوان لم يكن عندهم ظريفا كاملا ولا نديما جامعا . قال احدهم :

---

(١) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٢٩ — ١٣٠

(٢) الوشاء ، الموشى ، ج ٢ ، ص ١٣٢

تعالوا الى الخل الذى لم ينل بكم ... يطول على ريب الزمان ويشمخ

فقد حصلت عندى لكم فتعجلوا ... ثلاث دجاجات سمان وافرخ

وراح ريحان ومسك وعنبر ... تبخر احيانا به وتضمخ

وسمعة كالبدر تشدو بصارخ ... تهادى القلوب نحوه حين يصرخ

وها انا طباخكم وابن ربها ... رأيت ظريف القوم يشدو ويطبخ

سوى انه لا يقطع اللحم كفه ... ولا هو ان لم توقد النار ينفخ

واني لاستخزى لاهل مودتي ... وازهى على اهل المعالي وابزخ . (١)

---

(١) ابن كشاجم ، النديم ، ص ١٢

الفصل الثالث .

بعض العادات والمعاملات والمراسيم الاجتماعية

اختلفت وبانت العادات في ذلك المجتمع الذى ضم انواعا مختلفة من الاقوام والاديان والجنسيات ،فمن فارسي الى تركي ،الى مغولي ،الى رومي ،الى حبشي ،والى جزء صميم . كان لكل من هؤلاء عاداته ومراسيمه اجتماعيا ودينيا ،لذا لم يكن من السهولة بمكان ان يرعي كل ذلك جانبا ويتخلق بصفات العربي الذى اتى من وراء كثبان الرمال . اثروا في المجتمع ،وتأثروا به ،لذا كان يرى عادات اهل ما وراء النهر في المغرب الاقصى والعكس بالعكس .

بالرغم مما ذكرنا من تباين ،كانت بغداد المركز الذى به يقتدى وعنه يؤخذ ، حتى ضربت الامثال بها وقيلت الاشعارفي ظرف اهلها والحنين شوقا اليها ،اذا اجبرت الظروف زائرها او ساكنها على تركها . ووجد على بعض الاميال بطريق مكة مكتوبا :

ايا بغداد يا اسفي عليـــك متى يقضي الرجوع لنا اليـــك
فنحنا سالمين بكل خيـــــر وينعم عيننا في جانبيـــــك .(١)

ومما يلاحظ في بغداد يومئذ او بالعراق عامة ،انتشار اللغه الفارسية وتغلغلها بين الناس وحلولها محل كثير من الكلمات العربية . مثلا اهل البصرة اذا التقت اربعة طرق يسمونها مربعة ويسميها اهل الكوفة الجمار سو ،والجمارسو بالفارسية ،ويسمون السوق او السويقه وانرار ،ويسمون القثاء خيارا ،والمجزوم وبذى .(٢) وغيره كثيرا جدا مما لا يمكن حصره .

اما في معاملاتهم الرسمية ،في البيع والشراء والمقايضة في الاموال والدراهم ، فكانت لهم مراسيم خاصة . كانوا قد اتخذوا الخواتم المكتوبة والمنقوشة للتوقيع .(٣) وهذا

(١) ياقوت، البلدان ،ج ٢ ،ص ٢٣٥ (٢) الجاحظ ،البيان والتبيين ،ج ١ ،ص ٣٣
(٣) الجاحظ ،البخلاء ،ص ١٤٤

ما يسمى المهر .(١) والمداينة قامت على اساس الصكوك ، حيث تكتب ورقة على المدين بكمية الاموال الباقية في ذمته .(٢) وقد يمكن ان لا يتمكن الدائن من تسديد ما عليه من الاموال احيانا ، فيؤجل الدفع لقاء ورقة خطية مكتوبة بخط المدين نفسه .(٣) ولم تكن لديهم يومئذ مصارف ، كي يودعوا فيها اموالهم ودراهمهم لذا اودعوها في الجوانس والصخور وبطن الارض ، كما جاء في معظم الكتب .(٤) (+)

وجرت العادة في بيوت الناس ، لا سيما الكبار منهم ، ان يعمدوا الى جميع ما استعملوه من خز وصوف وفرش وكوانين وآلة الشتاء فيبيعونه في النداء ، واذا جاء الصيف عمدوا ثانية الى ما عندهم من دبيقي وقصب وحصير ومزملات وآلة الصيف ، فيفعل به مثل فعلهم في ادوات الشتاء . وهكذا في كل شتاء وصيف يجددون الانية وما يحتاجون اليه .(٥) وفي مثل هذه البيوت يظهر البذخ في كل مظهر من مظاهر الحياة . اذ يكون لكل ناحية من نواحي الحياة عندهم قانون وقواعد . . فدائما لهم نوع من الخدم الذى ربي في بيت الخاصة وتعلم خدمة الظرفاء ، فلو قام السيد مثلا في داره لبعض اموره ، وكان بينه وبين النعل مسافة خمسة خطوات تقدم الخادم واخذها بيديه وادناها من سيده ، ومن وضع منهم النعل اليسرى امام الرجل اليمنى فلا ينبغي له ان يدخل دار ملك ولا اديب ومن الخدمة التامة انه اذا رأى سيده متكئا يحتاج الى مخدة ، ان لا ينتظر امره بل يبادر اليها راسا ، ويتعهد الدواة قبل ان يؤمر بصب الماء فيها وينفض عنها الغبار قبل ان يقدمها لمولاه ، وان رأى قرطاسا على طيه ، قطع رأسه ووضعه بين يديه على كسره .(٦) وهكذا . . . .

يقول الجاحظ في بعض الذين اثروا : اذا ايسر الرجل ابتلى به اربعة : مولاه القديم ينتفي منه ، وامرأته يتسرى عليها مولاه يهدمها ويبني غيرها ، ودابته يستبدل بها .(٧)

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٤٤ (٢) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٢٦
(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص ١٦٤ (٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٤٤
(+) ولا شك ان ما يراه الناس من قصور ، وجرار مملوءة بالذهب والفضة عند تهديمهم البيوت القديمة ليست خزائن الجن كما يدعون ، بل هي ما خباه السلف من اموال وترك منسيا غير معروف به .
(٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٦٠ (٦) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ ، ص ٢٦٣
(٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ، ص ١١٩

وعندما يتلاقى الاصحاب يسلمون بالمصافحة بالايدى .[1] اما عادات واخلاق البخلاء في الضيافة ،فمما لا يمكن عده وحصره ،فهذا المروزى احدى شخصيات الجاحظ البارزة يقول للزائر اذا اتاه وللجليس اذا طال جلوسه : تغديت اليوم ؟ فان قال نعم ! قال : لولا انك تغديت لغديتك بغداء طيب ،وان قال : لا ! قال : لو كنت تغذيت لسقيتك خمسة اقداح ! فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .[2]

والعادة في الزيارة ان يطيب الزوار في منازل اصحابهم ،وهذا بعض واجبات رب البيت في تكريم الضيوف . وكذلك اكرام مطية الضيف من الامور الواجبة .(*)

ولما كانت المجالس في القرن الرابع تضم جنسا واحدا اما رجالا او نساء ،لذا فسدت الاخلاق وقل الذوق ،لذا لم يعد الرجال يخجلون من التلفظ بالكلمات البذيئة والكلام الذى ينبو عن الادب ،حتى تعود اهل العصر ذلك ولم يعد السامع يشمئز من تلك الالفاظ ،وانشدت بعض الاشعار البذيئة في مجالس الكبار واعجبت السامعين وصفقوا لها[3]

كانوا اذا مات لهم شخص ،اجتمعت عجائز الحي في مأتمه واقمن المناحة عليه ويكين الآخرين .[4] يحكى انه لما توفي ابوعيسى اخو المأمون بكاه المأمون كثيرا ،وطلب الى عريب المغنية ان تنوح عليه فناحت ورد عليها الجواري فبكى بما لم يبك به احد غيره .[5] ويظهر ان النوح كان ضروريا ووصل ثمن الجارية النواحة ثلاثين الف درهم معزية .[6] والنساء اذا قمن في المناحات تدثرن بالمآلي وضربن الصدور بالنعال .[7] قال الشاعر :

قام بناتي بالنعال حواسرا والصقن وقع السبت تحت القلائد .[8]

ولم تقم النساء وحدها بالمناحات واللطم على الميت ،بل اشترك الرجال احيانا مع النساء .

---

(١) الوشاء ،الموشى ج ١ ،ص ٢٤ (٢) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٣١
(*) الجاحظ ،البخلاء ،ص ٩٥ ،الثعالبي ،احسن ما سمعت ،ص ١٠٤ . انظر ص ١٦٨
(٣) ياقوت ،البلدان ،ج ٦ ،ص ٤١٢ ،التوحيدى ،الامتاع والمؤانسة ،ج ٢ ،ص ٥١
(٤) الجاحظ ،البخلاء ،ص ١٨٢ (٥) الاصفهاني ،الاغاني ج ٩ ،ص ٩٣ تقدم
(٦) التوحيدى ،الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨١ (٧) الجاحظ ،البيان والتبيين ج ٣ ،ص ٧٤
(٨) الجاحظ ،البيان والتبيين ج ٣ ،ص ٧٤

قال بن عمار : حدثت عن محمد بن عمر الغزي قال لي ابن مناذر " ويحك لست ارى نساء ثقيف ينحن على عبد المجيد نياحة استواء . قلت : فما تحب ؟ قال : تخرج معي حتى اطارحك . فطارحني القصيدة التي يقول فيها :

ان عبد المجيد يوم تولـــى هد ركنا ما كان بالمهدود

هدّ عبد المجيد ركني وقد كنـــت بركن انوء منه شـــديد .

قال : فلما كانت الليلة التي يناح بها على عبد المجيد خرجنا الى دارهم ، وقد صعد النساء على السطح ينحن عليه ، فسكتن سكتة لهن ، فاندفعنا انا وهو ننوح عليه ، فلما سمعننا اقبلن يلطمن ويصحن حتى كدنا ينقلبن من السطح الى اسفل ، من شدة تشرفهن علينا واعجابهن بما سمعنه ... ولما قال ابن مناذر :

لاقيمن مأتما كتجوم الليل زهرا يلطمن حر الخدود

موجعات يبكين للكبد الحرا عليه وللفؤاد العميـد .

قالت ام عبد المجيد : والله لابرن قسمه ، فأقامت مع اخوات عبد المجيد وجواريه ماتما عليه ، وقامت تصيح عليه، واى وبه واى وى ، فيقال انها اول من فعل ذلك وقاله في الاسلام . (١)

ويقول ابن الاخوة " يتفقد المحتسب الجنائز والمقابر فاذا سمع نائحة او نادبة لعنها وعزرها لان النوح حرام ، قال رسول الله صلعم " النائحة ومن حولها في النار ... "

وقال ليس للنساء في اتباع الجنائز من اجر ، اما البكاء فجائز من غير ندب ولا نياحة ولا شق جيب ولا ضرب خد وكل ذلك حرام ." واذا خرجن في جنازة امر الا يختلطن بالرجا (٢)

ورسمهم في فلسطين ان يمشوا خلف الجنائز ، ويخرجون الى المقابر لختم القرآن ثلاثة ايام اذا مات ميت ما . (٣) وفي خراسان "يأخذون الميت عند الدفن من قبل القبلة ،

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٧ ، ص ١٤ تقدم
(٢) ابن الاخوة ، كتاب الحسبة ، ص ٥١
(٣) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٣

صاحب الراى منهم والحديث الا الشيعه فانهم يسلونه ."[1] وكان يوضع على جنائز النساء قبابا عاليه وحشة .[2] وفي شيراز ياخذون الميت سلا ويمشي الرجال امام الجنازة والنسوان خلفها ،وفي خوزستان يمشون من الجهتين ، ويقيمون الزمر والطبل في الماتم وفي المقابر .[+] ويجلسون للتعزية في المساجد ثلاثة ايام ويكثرون فيه لبس الشمشكات والنعال .[3]

اما في الاعراس ،فاعتادت بعض النسوة ان يذهبن احيانا متنقبات ، هذا ان لم يكن مدعوات ،والمراة بطبيعتها تحب الاستطلاع فتحاول ان ترى ما يجرى في المجلس بالرغم من انها ليست من اهله .[+] (انظر الزواج ،ص ٦ ــ ٩)

ومن المناسبات التي اهتموا بها كثيرا ولعاروها جل انتباههم الختان . اذكانت تنفق فيه الاموال وتجزل الاعطيات " ففي قصة ختان اولاد المقتدر ما فيه الكفاية "[4] وعادة تقام مآدب طعام فاخرة تسع الاعذار .[5]

قال ابو بكر الصنوبري :

ارى طهرا سيثمر بعد عرســـا كما قد يثمر الطرب المدامة

وما قلم بمحض عنـــك الا اذا ما القيت عنه القـلامة .[6]

ومن اهل بخارى وبعد ما كان لهم من الامور والعادات يقول ابن حوقل :

" داخل الحائط وخارجه اسواق متصلة معلومة في اوقات من الشهر والمواعيد تجرى فيها للتسرى والبيع في المواشي والثياب والرقيق وسائر الامتعة من الصفر والنحاس والاواني واسباب القنية ."[7]

احتفل بعضهم بعيد ميلاده ،جلس عضد الدولة وقد تحولت سنة شمسية من يوم مولده على عادة له في ذلك وكانت عادته انه اذا علم ان قد بقى بينه وبين دخول السنة

---

(١) المقدسي ،احسن التقاسيم ، ص ٣٢٧ (٢) المقدسي ،احسن التقاسيم ، ص ١٢٩
(٣) ولا زالت العادة معهودة في العراق ،فلومات لاحدهم عزيز شاب او شابة خرجوا بصواني الحنا والياس والرياحين والشموع والطبل والزمر والنساء يهللن بين اونة واخرى .
(٤) الصابي ، الوزراء ، ص ٦٥ (٥) البخلاء ، الجاحظ ، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣
(٦) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ١١٠ (٧) ابن حوقل ، صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٤٩٠
(٨) والعادة لا تزال مالوفة بين العراقيات الحيوان ج ٥ ص ١٥٠

الجديدة ساعة او اقل او اكثر ، ان يأكل ويتبخر ويخرج في حال التحويل الى مجلس عظيم قد عبي فيه آلات الذهب والفضة ليس فيه غيرهما ، وفيها انواع الفاكهة والرياحين ، ويجلس في دست عظيم القيمة ويجيء المنجم ويقبل الارض بين يديه ويهنئه بتحويل السنة وقد حضر المغنون واخذوا مواضعهم وجلسوا وحضر الندماء واخذوا مواقفهم قياما ولم يكن احد منهم يجلس بحضرته ، فيجعل بين يديه ويشرب منه . وقبل ان يشرب يوقع بمال الصدقات ، ثم يجيء المغنون من اهل المجلس والشعراء فيمدحونه .(١)

ومن مستنبطات القرن الرابع التنافر الشديد الذى ظهر بين السنة والشيعة ، وكان البويهيون المشجع الاكبر لذلك ، حتى تقاتل الناس وسالت دمائهم من جراء العصبية والكره الذى تولد عند فئة ضد الاخرى . يقول مسكويه في سنة ٣٥٢ هـ " الزم معز الدولة الناس بغلق الاسواق ومنع المراسين والطباخين من الطبيخ ونصبوا القباب في الاسواق وعلقوا عليها المسوح ، واخرجوا نساء منشورات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المآتم على الحسين عليه السلام . وهذا اول يوم نيح عليه ببغداد ."(٢) والكندى يقول : كانت سنتهم انهم في يوم عاشوراء ان يمنع النساء والناس من المرور في الشوارع وكانت سنتهم انهم في يوم عاشوراء يخرجون النساء وغيرهن للنوح والبكاء على الحسين وينشدون المراثي في الشوارع ، وتمد العامة ايديهم الى امتعة الباعة ."(٣) كذلك جرت العادة عندهم في الكرخ وباب الطاق بنصب القباب وتعليق الثياب واظهار الزينة في يوم الغدير واشعال النار في ليلته ، ونحر جمل في صبيحته وفتح الاسواق بالليل كما يفعل في ليالي الاعياد .(٤)

وفي اليوم الثامن من الغدير كانت السنة تتخذه عيدا وتعمل كعمل الشيعة في الغدير محتجة بان حصل فيه النبي وابو بكر في الغاره وجعلوا بازاء عاشوراء يوما بعده بثمانية ايام زيارة مصعب بن الزبير والبكاء لمقتله تنديدا بعمل الشيعة على قبر الحسين .(٥)

---

(١) ياقوت ، الارشاد ، ج ٦ ، ص ٢٥٨ (٢) ابن مسكويه تجارب الامم ، ج ٢ ص ٢٠٠ ،
(٣) الكندى ، الولاة وكتاب القضاة ص ٦٠٠ ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ٤٠٧
(٤) الوزراء ، الصابي ص ٣٧١ و ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ٤٠٧
(٥) الصابي ، الوزراء ، ص ٣٧١

فكر الناس بحابر السبيل لا سيما وبغداد يومئذ كبيره ومسافاتها شاسعة ، والصيف فيها حره قتال يخني السائر ويهلكه ، والشئ الوحيد الذى يطلبه لينعش روحه الماء ، لذا وضعت حباب الماء في الشوارع والطرقات بين الاجناد ، على كل فرسخ ، وربما حمل اليها الماء من بعد . (١) ولا يزال ذلك يرى في طرقات بغداد ايام الصيف . قال ذوالنون بمصر : لما حملت الى بغداد رمى بي على باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجل مئزر بمنديل مصرى ، معتم بمنديل دبيقي ، بيده كيزان الماء خزف رقاق وزجاج مخروط . فسألت ان كان ساقي السلطان قيل بل هو ساقي العامة ، فاومأت اليه فسقاني ، فشممت من الكوز رائحة المسك ، وقلت لمن معي ان يعطيه دينارا ولكنه ابى اخذه وقال لا اخذ منه شيئا فقلت : كمد الظرف في هذا . (٢)

ومن عاداتهم ان يقيموا الولائم في الاعراس . (٣) والنقيعة طعام الاملاك ، (٤) والاعذار طعام الختان والخرس الطعام الذى يعمل للنفساء ، وفي الخرسة يقول مساور الوراق :

اذا اسديه ولدت غلامـــا فيسرها بلوغ في الغلام

تخرسها نساء بني دبيـــر بأخبث ما يجد له من طعام .

والوكيرة طعام البناء ، كان الرجل يطعم من يبني له ، واذا فرغ من بنائه ، تبرك باطعام اصحابه ، ودعائهم . قال احدهم :

خير طعام شهد العشيـــره العرس والاعذار والوكيـــره . (٥)

---

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٤١٦

(٢) البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٥٠ ، ابن الجوزى ، الظراف والمتماجنين ، ص ٣١

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣٨١ ، البخلاء ، ص ٣٣٥

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر ، البخلاء ، الجاحظ ، ص ٣٣٥

الفصـــــل الـــــرابع .

مجـــالس السمر واللهو واللعـــب .

ا) مجالس الشـــراب .

مجالس هي ام بسمات تتراقص على شفاه قارئ الف ليلة وليلة ، ام سحر انغام تعالت في كثيف سحائب الند والعنبر ، ام جوارى وقيان حكين البدر ليلة تمامه وزهو الربيع بجلال بهائه . غلمان حور شقت الجيوب لاجلهم وريق ماء الحياء في سبيل نظرة اليهم ، او قبلة خاطفة من خدهم . مجالس فرشت بالقز والديباج والاطلس الفاخر ، كم دينار فيها نثر ، وكم صرة اهديت لقاء صوت او نغم واريق الشراب اراقة الماء ، هذا رغم ان القرآن منعه ، ولكن المعروف عن الرسول انه استعمل عصير العنب والتمر . وهكذا تلاقت ثلاثة عناصر وتجانست في البلاط العباسي وفي مجالس بغداد يومئذ . خمر العراق ، غناء المدينة والجوارى الحسناوات .(١)

فرش الارض بالرياحين .

جرت العادة ان تفرش ارض المجلس بالرياحين والنيلوفر وترمى فوق الحصر والبسط رميا دون مشام او اطباق .(٢) وكانت الازهار من ضروريات المجالس ، صرف عليها بسخاء . قيل ان ابو محمد المهلبي في وزارته اشترى في ثلاثة ايام متتابعة وردا بالف دينار .(٣) وشرب ابو القاسم البريدى بالبصرة على ورد بعشرين الف درهم في يوم واحد ، على رخصه

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٤٤ و Abbot, Two Queens of Baghdad P. 8
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ١٤٧ ، Grunebaum , Med. Islam P. 285
(٣) نفس المصدر

هناك ،والمراعاة المتبعة من السلطان لما يشتهيه ، وطرح فيه عشرين الف درهم خفافا وزنها عشرة الاف درهم ،وشيئا كثيرا من الند المثاقيل اللطاف وقطع الكافور والتماثيل وبعد ان انفض المجلس امر الفراشين بانتهاب الورد مع ما فيه من الدراهم والطيب وقيل ان ذلك المجلس قام عليه بثلاثة الاف دينار من ما قدمه للمغنيات وثمن الطيب وما انفق على المائدة والشراب والثلج . (١) ويحكى ابو جعفر بن حمدون وهو شاهد عيان فيقول " كنا نشرب مع الراضي بالله يوما في مجلس محمى بالفاكهة الحسنة الفاخرة ففرش بالجلوس فقال : افرشوا لنا المجلس الفلاني واطرحوا فيه ريحانا ونيلوفرا فقط طرحا فوق الحصر بلا اطباق ولا تعبية ولا منام كما تفعل العامة ... فلما رأى المجلس قال للشرابيه : غيّروا لون هذا الريحان بشئ من الكافور يسحق ويطرح فوقه فليس هو مليح هكذا . قال : فاقبلوا يجيئون بصواني الذهب فيها الكافور الرياحي المسحوق ارطالا ويطرح فوق الريحان . الى ان صار الريحان كالمغطى ببياض الكافور . وكأنه ثوب اخضر قد ندف عليه قطن رقيق او روضة سقط عليها ضرائب الثلج .. قال : فقدرت ما استعمل من الكافور كان اكثر من الف مثقال ... فلما قام امر بنهبه ،فاخذ غلماني منه مثاقيل كثيرة . " (٢)

اتخذ الورد بانواعه المختلفة وقيل فيه بديع الاشعار والمقطعات . قيل في الآس والنسرين : فقد حف لنا المجلس بالنسرين والآس . (٣)

وقال الشمشاطي : اشرب على زهر البنفسج قبل تأنيب الحسود

فكأنما اوراقه اقار قرص في الخدود . (٤)

---

(١) التنوخي ،نشوار المحاضرة ،ص ١٤٧

(٢) التنوخي ،نشوار المحاضرة ص ١٤٤ ـ ١٤٥

(٣) ابو نواس،الديوان ،ص ٣١

(٤) الثعالبي ،اليتيمة ،ج ٢ ،ص ٨٩

زى الشـــــراب ·

كان الخلفاء والخاصة والامراء يحيطون انفسهم بجملة من الاصحاب والاصدقاء (الندماء) فهم من اشهر واثقف شخصيات العاصمة او الامصار · (١) والشخص منه اذا حضر مجلسا للمنادمة خلع ثيابه وقدمت له ثياب المنادمة الخاصة ومنها المصبغات · (٢) واذا ما اكتمل المجلس خرجت الجوارى ضمن المنادمات ومنهن المغنيات ، وتحضر المشام والفواكه الكثيرة ومعتق الشراب · (٣) وهكذا يلتئم شمل المجلس بالقيان والناى والندامى وقد علت اصواتهم بالفكاهات والنذر ، وكؤوس الزجاج والبلور تدار باقدى السقاة ، ويترائق بعضهم بالتحايا ، والمجامر يحترق فيها الند ، والمسك والعنبر · (٤) ولا يكمل مجلس دون الجوارى الجميلات والمغنين والشراب والاكل السمين · فهذا يحي بن زياد يدعو اصحابه فيقول : عندى نبيذ معـــــل والموصلي وزلـــزل

ويطبخ وخـــــــروف وماء مزن مزمـــل

ويربط وصنـــــــوج وصوت ناى وجلجـل ·

ويقول ابو نواس : الا قوموا الى الكرخ الى منزل خمـــار

الى صهباء كالمســـك الى جونة عطـــار

وبستان به نخـــــل له زهـــر باشجـار

فان احببتم لهـــــوا اتيناكم بمـــــزمار · (٥)

الخمـــــره ·

فالشراب عندهم عمدة مجالس السمر ، اذ لا غناء ولا منادمة ان لم تقرع الكاس بالكاس وتطرح الحشمة والجد جانبا لذا قيل في الخمر وفي مدحها ووصفها الكثير ·

---

(١) Grunebaum, Med. Islam P.214 (٢) الابشيهي ، المستطرف ج ٢ ، ص ١٨٥ و التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٠٢ ، ابن كشاجم ، النديم ص ٢٢ Grunebaum, Med. Islam P.285
(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ١ ، ص ١٠٣
(٤) الثعالبي ، اليتيمة ج ٢ ، ص ٢٢٧
(٥) ابو نواس ، الديوان ، ص ٤١ ـ ٤٢

" قيل ان امهات العالم اربع الماء والنار والارض والهواء ، وقد اختصت الخمر منها بثلاث فأخذت لون النار وهو احسن الالوان وعذوبة الماء وهو اطيب المذاقات ولطافة الهواء فهو ارق الاشياء ... وقال ابو الحسن بن فارس :قدم لي صديق له نبيذ التمر فقال ما شرابك هذا ؟ فقال : اما ترى ظلمة الحلال ثم نظمه بقوله :

رآي نبيـــذا فقال مهـــلا تشرب خمـــرا ولا تبالـــي

فقلت هذا نبيـــذ تمـــر اما ترى ظلمة الحـــلال

وقيل لابي نعيم فضل بن دكين ما تقول في النبيذ المروق الصفى المصفق المحسل المعتق فجعل يتمطق ويقول : اخاف ان لا استقل بشكر الله على النعمة فيه . "[1] وقال بعضهم مرة في مجلس للمستكفي : يا امير المؤمنين ما رأيت احدا وصف الخمرة باحسن من وصف بعض من تأخر فانه ذكر من امهاته الاربع فضيلتها وابتزها اكرم خواصها الا الخمرة ، فلها لون النار وهو احسن الالوان ولدونه الهواء وهي الين المجسات ،وعذوبة الماء وهي اطيب المذاقات ،وبرد الارض وهي الذ المشروبات ،قال : وهذه الاربع وان كن في جميع المآكل والمشارب متركبة فليس الغالب عليه ما وصفنا من الغالب على الخمر . قال واصفها : قد خلت في اجتماع الصفات التي ذكرنا فيها ؟

لست ارى كالراح في جمعهـــا لاربع هن قوام الورى

عذوبة الماء ولين الهـــــوا وسخنة النار وبرد الثرى

اما شعاع الخمر فانه يشبه بكل شئ نورى من شمس وقمر ونجم ونار وغير ذلك من الاشياء النورية ،فاما لونها فيحتمل ان يشبه بكل احمر في العالم واصفر من ياقوت وعقيق وذهب وغيره من الجواهر النفيسة والحلى الفاخرة ،وتشبيهها بالجوهر الاكرم افضل لها واحسن .[2]

---

(١) الثعالبي ،خاص الخاص ،ص ٤١

(٢) المسعودي ،مروج الذهب ،ج ٨ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٥

قال ابو نواس يصفها : فعلت في البيت اذ مزجت مثل فعل الصبح في الظلم

فاهتدى سارى الظلام بهـا كاهتداء السفر بالعلـم

وقـال : ينقص منها شعاع كلما مزجت كالشهب تنقص في اثر الغفاريت .(١)

لم يحدد عدد الشاربين في المجلس الواحد ، ولكنهم كرهوا جلوس اثنين للشرب وسموه المنشار ، لان المنشار يجلس عليه اثنين ، واعتبروا الثلاثة اتم مجلسا لان الاثنين اذا نهض احدهما لبعض شانه يبقى الآخر واجما ، وكذلك الثلاثة قد ينفرد اثنان في الحديث ويبقى الثالث ساكتا فيحتشم ويمقت الساعة التي دخل مجلسهم فيها ، اما اذا كانوا اربعة فهم متعادلين وهم اركان المجلس .(٢) قال ابو نواس :

ثلاثة في المجلس طـيب وصاحب الدعوة والضارب

فان تجاوزت الى سادس اتاك منهم شغب شاغب .(٣)

مع ان الذين جاؤا بعده حبذوا ان يضم المجلس اكثر من ذلك .(٤)

اسـمـاء الخـمرة .

سميت الخمرة باسماء كثيرة كالقهوة مثلا :

هات اسقنيها قهوة بابليه تحاكي شعاع الشمس بل هي افضل(٥)

وقال ابو نواس : من قهوة زانها تقادمهـا فهي عجوز تعلو على الحقـب

دهـرية قد مضت شبيبتها واستشفتها سوالف الحقـب .(٦)

وسميت صهباء ، لصهوبة لونها ، وهو حمرتها او شقرتها .(٧) قال عبدالله بن عباس بن الفضل :

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧
(٢) ابن كشاجم ، النديم ، ص ١٨
(٣) ابو نواس ، الديوان ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧
(٤) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٠٦
(٥) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ١١٠
(٦) ابو نواس ، الديوان ، ص ٢٤٨
(٧) ياقوت ، البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٠١

رب صهباء من شراب المجوس قهوة بابلية خندريس . (١)

وكذلك يسميها ابن الرومي :

خندريس اذا تراخت مداها ليست جدة على الاحقاب . (٢)

وسماها ام الدهر ، او ابنته الكبرى :

وعاتقة زفت لنا من قرى كوثى تلقب ام الدهر او بنته الكبرى . (٣)

وسماها ابن المعتز بنت الدنان : سلت على الاحزان بنت الدنان

وارحل الى السكر برطل وثان . (٤)

وسماها شراب القربان :

اسكنوها في الدن من عهد نوح كظلام في نهار حبيس

من شراب القربان يوصي بها الشما س خزان بيتها والقسوس . (٥)

ومنها بنت المذابح والقسوس . قال عبد السلام المعروف بديك الجن :

تسقيك كأس مدامة من كفها ممزوجة بمدامة من ثغرها

بنت المذابح والقسوس كريمة لا يستحي يوم الحساب بوزرها

ومنها ام الرهابين وبنت الديور . قال الحاجري :

واستجلها عذراء مشمولة ام الرهابين وبنت الديور

ومنها ديريه وراهبية . قال البيغاء من ابيات في دير الزعفران :

تصيبه ديريه كاد كرمها بجوهرها ينمل قبل نباته

ومنها ابنة المطران في قول صدر الدين بن الوكيل :

ودارت علينا الخمر حتى تملكت عقول رجال مثلها ليس يملك

فلما رأيت القوم بالكاس صرعوا وان ابنة المطران بالقوم تفتك

ارقت دم الراوون الراووق حلالاتني رأيت صليبا فوقه فهو مشرك .

---

(١) ياقوت ، البلدان م ٤ ، ص ١٦٩ (٢) ابن الرومي ، الديوان ، ص ٤٢
(٣) ابن الرومي ، الديوان ص ٣٣ (٤) الثعالبي ، احسن ما سمعت ، ص ٥٣
(٥) الزيات ، الديارات ص ٤١

وسماها سبط بن التعاويذي مرة بنت الشماس والاساقف :

قم يا نديمي ملبيا داعي الصبوح ولا تخالف

فاستحلها كرخية بنت الشماس والاساقف

وقال فيها مرة اخرى :

حمراء تبطو ظلم الاغباس ربيبة القسيس والشماس

وسماها شرف الدين بن المستوفي الاربلي " ذخيرة شماس وقسيس "

قم فاسقنيها على صوت النواقيس خمرا ذخيرة شماس وقسيس . (١)

كان للخمرة في مجالس الخلفاء مركز لائق بها ، فالخلفاء العباسيون وهم الائمة الذين بهم يقتدى ويهتدى ويجهرون بشرب الانبذة والخمور ، خلافا لما جاء في مقدمة ابن خلدون من ان ما عرف وسمع عن الخلفاء هو من باب البهتان والافتراء وانهم لم يقربوها او يسمحوا بها . (٢) ويحكى ان المتوكل اشتهى ان يجعل كل ما تقع عليه عينه في يوم من ايام شربه اصفر (لحبه الشديد للزعفران) فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج اصفر مفروشة بديباج اصفر وجعل بين يديه الدستنبو والاترج الاصفر وشراب اصفر في صواني ذهب ولم يحظر من جواريه الا الصفر عليهن ثياب قصب صفر وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجرى فيها الماء ، فامر ان يرمى فيها الزعفران ففعل ذلك ، ولما طال شربه نفذ ما كان عندهم من الزعفران فاستعملوا العصفر ولم يقدروا انه ينفذ قبل سكره ، فيشتروا غيره ، فنفذ فلما لم يبق الا قليل عرفوه وخافوا ان يغضب ان انقطع ولا يمكنهم قصر الوقت من شرى غيره من السوق فقال : ان انقطع هذا تنغص يومي فخذوا الثياب المعصفره بالقصب فانقعوها في مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ ... ووافق سكره مع نفاد كل ما كان في الخزائن من هذه الثياب . فحسب ما صرف على

---

(١) الزيات ، الديارات ، ص ٤١ ـ ٤٢
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨ ـ ٢٠

الزعفران والعصفر وما تلف من الثياب فكان قدره خمسين الف دينار.[1] وقيل ان بعض القضاة كان يجتمعون عند الوزير المهلبي "على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي الايزجي، وما منهم الا ابيض اللحية طويلها، وكذلك كان المهلبي، فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع واخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار ولبسوا ثوب الخفة والطيش ووضع في يد كل منهم طاس ذهب وزنه الف مثقال مملوءا شرابا قطربليا وعكبريا فيغمس لحيته فيه وينقعها حتى تتشرب اكثره ثم يرش بها بعضهم بعضا ويرقصون باجمعهم وعليهم المصبغات من الثياب ومخانق البرم وعندما يصبحون عادوا الى وقارهم وابهة القضاء. واياهم عنى السري بقوله:

مجالس ترقص القضاة بها ... اذا انتشوا في مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنا ... بشيمة حلوه من الشيم
يخضب بالراح شيبه عبثا ... انامل مثل حمرة العنم
حتى تخال العيون شيبته ... شيبة قد مزجت بالدم.[2]

ويحكى عن ابن طباطبا وهو يشغل مركزا دينيا فهما ان كان له شعرا في الخمر:

اترك الشرب والانوار دائمة ... والطل منها على الاشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب ... والورد في العود مطوى ومنشور
لا والتي تركتني يوم فرقتها ... كأنما الرمل في عيني منثور.[3]

وفي سنة ٣٢١ هـ امر الخليفة القاهر بتحريم الغناء والخمر، "وكان هو مع ذلك يشرب المطبوخ، ولا يكاد يصحو من السكر."[4] وفي عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٤ م قام الحنابلة وهم مسلمون متطرفون، لمطاردة المنكر في بغداد، حتى صاروا يكبسون بيوت القواد والعامة، فان وجدوا نبيذا اراقوه، وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء.

---

(١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ص ١٤٦ - ١٤٧، الزيات، الديارات، ص ٥٢ - ٥٣
(٢) ياقوت، الارشاد، ج ٥، ص ٣٢٤ (٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٤.
(٤) متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٠٣

ونهى عنه الحاكم بامرالله نهيا شديدا حتى استطب ابا يعقوب اسحق بن ابراهيم بن انسطاس ، فاشار عليه شرب النبيذ للتداوى ، ورجع الى عادته من مقارعة الندماء وخلع العذار معهم حتى موت ابن انسطاس فعاد ونهى عنها ثانية ، ومنع بيع الزبيب والعسل وفرق من هذه البضاعة الكثير في النيل وكسر الظروف التي يودع فيها النبيذ . (١) اما الخليفة الراضي الذى آل على نفسه الا يشرب وقطع لله عهدا بذلك ، ولم يزل من خلافته نحو سنتين وهو محافظا على قسمه ، وكان جلساؤه يشربون بين ايديه ، وهو يستعيد عن الخمرة بالجلاب ، ولما الح عليه اصحابه بالشرب حكم الفقهاء في يمينه فوجدوا له رخصة ، فاعطى استاذه ونديمه الصولي الف دينار ليتصدق بها عنه وشرب اخيرا . (٢) وكان الخليفة المستكفي قد ترك النبيذ فلما افضت اليه الخلافه عام ٣٣٣ هـ دعا به من وقته وعاد الى شربه . (٣) وجرت العادة في بيوت الكبراء ان يكون الى جانب صاحبها المطبخ رجل يسمى الشرابي شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح . (٤)

وكان الخمار والساقون والساقيات في الغالب نصارى . يقول ابن المعتز :

من كف ظبي مقرطق غنـــج ... يعشقه من عليه يغزلني

تلوح صلبانه بلبتـــــه ... كنور خيريه بلا غصن

يا ليت من جاءه يقـــربه ... من فضل قربانه يقربني . (٥)

في الحقيقة لم ينفرد النصارى بين الخمور في الاسلام بل سبقهم في ذلك اليهود . وللحسين الضحاك :

دست حمراء كالشهاب لـــــه ... من كف خمار حانة آفـك

يحلـف عن طبخـها بخالقـــه ، ... ورب موسى ، ومنشئ الفلك . (٦)

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، ابن تغربردى ، اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٤
(٢) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، (٣) المسعودى ، مروج الذهب ج ٨ ، ص ٣١٠
(٤) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ١١ (٥) ابن المعتز ، الديوان ، ج ٢ ، ص ٦٤
(٦) الزيات ، الديارات ص ٣٤

ومن المواضع التي اشتهر اليهود بتعتيق الخمور فيها سورا من نواحي بابل . ولابي جفنة القرشي فيها :

ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رايت لسانه مكسورا
مما تخيرت التجار ببابـــــل او ما تعتقه اليهود بسورا .(١)

وكان المجوس من الفرس يشاركون اليهود في بيع الخمر والاتجار به ويقول ابن المعتز في مجوسيه : وخمارة من بنات المجوس ترى الزق في بيتها سائلا
وزنا لها ذهبا جامـــدا فكالت لنا ذهبا سائـــلا .(٢)

كانت الخمور النصرانية لاسيما معتقات الاديار مشهورة ومعروفة بمخارسها ، ومعاصرها النظيفة وحسن الصنعة ، ولما اختص به باعتها من اللباقة والملاحة والملابس ونظافة الدنان والكؤوس . ومن تمام آلة الخمار ان يكون ذميا اسمه اذين او مازيار او ازدانقاذار ، او ميشا ، او شلومو ، ويكون ارقط الثياب مختوم العنق .(٣) لذلك عندما اراد الخليفة الواثق بالله يحمل جانتين له ولحاشيته ، احداهما في دار الحرم والاخرى على شط دجلة "امر ان يختار له خمار نظيف جميل المنظر ، حاذق بامر الشراب ، نصرانيا من اهل قطربل ، فأتي بنصراني له ابنان مليحان وابنتان ، فجعلهم الواثق في الجانتين وضم اليهم خدما وغلمانا وجواري روميات ، فأخدم النساء حانة الحرم والرجال حانة الشط ."(٤)

الاديـــرة ، دور للمـــو .

كان لخمور الاديار في الاسلام صيت طائر ، وشهرة واسعة . والاديرة معظمها خارج بغداد في بقع محفوفة بالرياحين والبساتين اهم غلاتها الكروم . وقلب في الحيرة

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٤ - ١٨٥
(٢) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ١٠٤ ، الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٧٥ ،
(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٢
(٤) الزيات ، الديارات ، ص ٣٥

والعراق النخل من الكرم ويمكن انهم اتخذوا نبيذ التمر ايضا (الدوشاب) .

وفي هذه الاديرة كانت تبنى القلالي ليسكنها الرهبان ، وهي منفصلة عن الدير في بستان فيه ثمر يتعهده الراهب ويعتاش من ثمن غلته ، واشتهر دير قنى قرب بغداد ، وعمر كسكر جنوب واسط ، ودير الزعفران بنصيبين ودير سعيد قرب الموصل ودير ماريوحنا بجانب تكريت على دجلة وعمر يونان بالانبار وغيرها كثير . ومن لم تساعده الحال من هؤلاء الرهبان على تحصيل قلية ، اتخذ له بيتا ضيقا يقال له الكرج .(١) (والكرج بيت الراهب ، كانت النصارى تخرج اليها في اعيادها) . واشتهر بهذه الاكيراج ديرحنه بظاهر الكوفة بين البساتين والرياض .(٢) وفيه يقول ابو نواس :

يا دير حنه من ذات الاكيـــراج من يصح عنك فاني لست بالصاح
رأيت فيك ظباء لا قرون لهـــا يلعبن منا بالباب وارواح . (٣)

اصبحت هذه الاديرة منتجع اللاهي والصياد ، يقصدها طلاب اللهو ليختلوا بنسوة معهم او ليأتوا امرا بغلمان مرد ، وكثيرون منهم من تعشق بعض غلمان الدير ، ويقي اياما واشهرا يأكل ويلعب ويمرح بين الزهر والريحان والدنان والمرد الحسان . وكان ديراشموني من اجل متنزهات بغداد عند قطربل وفيه يقول الشرواني :

اشرب على قرع النواقيـــس في دير اشموني بتفليـــس
لا تخل كأس بالشرب والليـــل في حـــد نعمى لا ولا بوس
الا على قرع النواقيـــــس او صوت قسات وتشميس

وعيد اشموني كان معروف لدى الجميع من مسيحيين ومسلمين في الثالث من تشرين الاول ، للخروج الى الدير وقضاء وقت طيب فيه .(٤)

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠
(٢) الزيات ، الديارات ، ص ٢٢
(٣) ابو نواس ، الديوان ، ص ١٢٨ ، ياقوت ، البلدان ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠
(٤) ياقوت ، البلدان ج ٤ ، ص ١٢٣

وفي دير الزعفران الواقع على الجبل المحاذي لنصيبين ، حيث زرع فيه الزعفران ، وكان دير فرج ولاهد اللهويه مشاهد ولهم فيه اشعار.يقول مصعب الكاتب :

عمرت بقاع عمر الزعـــفران بفتيان غطارفة هجـــان

بكل فتى يحن الى التصابي ويهوى شرب عاتقة الدنان

ظللنا نحمل الكاسات فيـه على روض كنقش الخسروان

واغصان تميل بها ثمـار قريبات من الجاني دوان

وغزلان مراقبها فؤادي شجاني منهم ما قد شجاني .(١)

ويقول ابو نواس في دير الزندورد في الجانب الشرقي من بغداد ، المزروع فواكه واترج واجود الاعناب التي تعصر بدار السلام :

فسقني من كروم الزندورد ضحى ماء العناقيد في ظل العناقيد .(٢)

وقال الشابشتي في دير العلث الذي زعم البعض انه دير العذارى وهو من انزه الديارات واحسنها . لم يكن يخلو من اهل القصف . وفيه يقول جحظه البرمكي :

ياطول شوقي الى دير ومسطاح والسكر ما بين خمار وملاح

والريح طيبة الانفاس فاغمـــة مخلوطه بنسيم الورد والراح

سقيا ورعيا لدير العلث من وطن لا دير حنة من ذات الاكيراح

ايام ايام لا اصغي لعاذلة ولا ترد عناني جذبة اللاح .(٣)

وقال امية بن ابي الصلت يذكر دير مرحنا :

يادير مرحنا لنا ليلـــــة لو شريت بالنفس لم تبخـــس

بتنا به في فتية اعـــــريت ادابهم عن شرف الانفـــسي

يشربها صهباء مشمـــولة تغني عن الصباح في الحندس .(٤)

---

(١) ياقوت ، البلدان مج ٤ ، ص ١٤١
(٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٣
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥٨
(٤) ياقوت ، البلدان مج ٤ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥

ودير الثعالب مشهور بينه وبين بغداد ميلان في كورة نهر عيسى وبالقرب منه قرية تسمى الحارثية . وذكر الخالدى انه الدير الذى يلاصق قبر معروف الكرخي بغربي بغداد وقال فيه ابن الدهقان :

ديـر الثعالب والف الضلال ... ومحل كل غزالة وغـــزال
كم ليلة احييتهـــا ومنادمي ... فيهـا ابح مقطع الاوصـــال
سمح يجود بروحه فاذا مضى ... وقضى سمحت له وجدت بمالي
ومنعم دين ابن مريم دينـه ... غنج يشوب مجونه بدلال
فسقيته وشربت فضلة كأسه ... فرويت من عذب المذاق زلال . (١)

وبجانب غوطة دمشق كان يقع دير بونا من انزه ابنية النصارى وهو صغير ورهبانه قليلون ، (٢) اما دير القصير بمصر في طريق الصعيد بقرب حلوان ، موقعه في اجمل بقعة ، كان فيه صورة للعذراء مريم وفي حجرها المسيح ، في منتهى اتقان الصنعة . وكان خمارويه ابن احمد بن طولون يكثر غشيان الدير لشغفه بالصورة ، وكم شرب عليها ، واخيرا بنى لنفسه في اعلى الدير غرفة ذات اربع طاقات ، وكان المصريون يغشونه لقربه من الفسطاة ، قال فيه محمد بن عاصم المصرى :

ان دير القصير هاج ادكارى ... لهـو ايامنا الحسان القصار
منزلا لست محصيا ما لقلبـي ... ولنفسي فيه من الاوطـــار
وكأن الرهبان في الشعر الاســـــــود سود الغربان في الاوكار
كم شربنا على التصاوير فيه ... بصغار محثوثة وكبـــــار
صورة في مصور فيه ظلـــت ... فتنة للقلوب والابصـــــار
اطربتنا بغير شدو فاغنت ... عن سماع العيدان والمزمار
لا وحسن العينين والشفة اللمـ ... ـياء منها وخدها الجلنـــار
ولا تخلفت عن مزارى دهـــرا ... هي منه ولو نأى بي مزارى . (٣)

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢٩
(٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٦٢

الســـــــقاة

لم يتغنى الشعراء في الخمر وحدها ولكنهم تغنوا في المجالس والسقاة والساقيات من مهى وظباء ومرد حسان والات الشرب ، فابدعوا وجاؤا بالغريب من المعاني ، يقول ابو نواس : سقيا لايام بطالاتـــــي ... ايام نلهو في السنيهات

ايام تحتي فرس للهـــوى ... اركض في ميدان لذاتي

وسكر الحب بنا محـدق ... وفيه انواع المجانـــات

لا خير في العيش اذا لم تكن ... صرفى غزلان وكاسات

وعرف اترجة بتفـــــــاحة ... وشرب صهباء بطاسات . (١)

قال ابو هلال العسكري في مجلس شراب :

وليل ابتعت به لـــذة ... وبعت فيه العقل والدينا

اصاب فيه الوصل قلب الجوى ... وبات فيه الهم مسكينـا

وقد خلطنا بنسيم الصبـا ... نسيم راح ورياحينـــا

واكؤس الراح نجوم اذا ... لاحت بايدينا هوت فينا

تضحك في الكأس اباريقنا ... وحسب ما تضحك تبكينا . (٢)

وقال ديك الجن في ساق :

ومزر بالقضيب اذا تثنى ... ومزهاة على القمر التمـام

سقاني ثم قبلني واومى ... بطرف سقمه يشفي سقامي

فبت له على الندمان اسقى ... هداما في مدام في مدام . (٣)

---

(١) ابو نواس ، الديوان ، ص ٢٥٠
(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٤٢
(٣) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٥٣

وقال عبدالله بن طاهر في ساقية :

سقتني في ليل شبيه بشعرهـــا شبيهة خديها بغير رقيب

فما زلت في ليلين منه ومن دجى وشمسين من راح ووجه حبيب . (١)

وصف ابن المعتز الدنان قائلا :

ودنان كمثل صف رجـــــال قد اقيموا ليرقصوا دستبدا . (٢)

وقال النظام :ما زلت آخذ روح الزق في لطف واستبيح دما من غير مجروح

حتى انتشيت ولي روحـــان في بدني والزق مطرح جسم بلا روح . (٣)

وتذكر طرف لطيفة في باب الشراب والادمان فيه وقوة عصارته . يقول ابن الجوزي : اجتمع صحبة على شرب فوصف قوة الشراب ومفعوله فقال احدهم " اذا مات العبد وهو سكران دفن وهو سكران وحشر وهو سكران فقال رجل في طرف الحلقة : هذا والله نبيذ جيد يساوي الكوز منه عشرين درهما " (٤) اما دواء الخمار فعندهم هو الداء نفسه .

قال ابو عمر القاضي : سأل حامد بن العباس في ايام وزارته علي بن عيسى وهو على الدواوين ،عن دواء الخمار ،فتبلج وقال : لست من رجال هذه المسالة فاقبل على ابي عمرو وقال : ايها القاضي ائتنا في دواء إخمار ،فتنحنح واصلح من صوته وقال : قال الله عز وجل وقوله الحق وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . وقد قال النبي " استعينوا في الصناعات بارباحها " ومن ارباب هذه الصناعة في الجاهلية الاعشى وهو يقول : وكأس شربت على لـــذة واخرى تداويت منها بها

---

(١) الثعالبي ،احسن ما سمعت ،ص ٦٠
(٢) النويري ،نهاية الارب ،ج ٤ ،ص ١٤٤ ـ ١٤٦
(٣) الثعالبي ،احسن ما سمعت ،ص ٥٧
(٤) ابن الجوزي ،الاذكياء ،ص ١٠٧ ـ ١٠٨

وفي الاسلام (ابو نواس)

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني باللتي كانت هي الداء

ويقول في عصرنا هذا :ما

ما دواء الخمار غير العقار لصريع يدعي صريع الخمار .(١)

ب)= الغنـــــــاء

لم يكن مجلس سمرهم كاملا ان لم تلعب العيدان وتتحرك الاوتار، وتتعالى موسيقى الالحان بسكر الانغام والاصوات والغناء العذب فيرق الذهن ويليق الحركة ويهيج النفس ويسرها ويبهج القلب ويسخي البخيل ، والغناء مع النبيذ يبعثان في الروح قوة وفي الجسم حياة ،الغناء للحزين سلوى وللفرح نشوى . قال الشاعر :

لا تبعثن على همومك اذا ثـــوت غير المدام ونغمة الاوتار .

وكان بعض الملوك لا ينامون الا على الغناء ليسرى في عروقهم السرور ، والحريمة لا تنوم ولدها وهو يبكي ،خوف ان يسرى الهم في جسده ،لذا تضاحكه حتى ينام ،والطفل يرتاح للغنا قال يحي ابن خالد البرمكي : الغناء ما اطربك فاوصلك وابكاك فاشجاك .(٢) وقال على بن عيسى : امهات الدنيا اربع ،لذة الطعام ولذة الشراب ولذة النكاح ولذة السماع واللذات الثلاث لا يتوصل الى كل منها الا بحركة وتعب ومشقة ولا مضار اذا استكثر منها ،ولذة السماع قلت ام كثرت خالية من التعب ،خالصة من العمار وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

---

(١) الثعالبي ،خاص الخاص ،ص ٤٨

(٢) المسعودي ،مروج الذهب ،ج ٨ ، ص ٩٤ ــ ٩٥

وجدت رئيسة اللـــذا ت اربعة اذا تحســـب
فمنها لذة المنكـــ ح والمطعم والمشـــرب
ويبقى بعدها اخـــرى من الصوت الذى يطرب
وهذه قد تفيد النفـــــس ابهاجا ولا تنصب .(١)

وكانت الجوارى تغنين من وراء الستار . اذ لم يكن يسمح لهن بمجالسة الرجال قال محمد بن سهل وكان قاضي الكتاب يومئذ ، زار المعتصم فاكلا وشربا ثم ضرب سترا كان الى جانبه فسمع حركة العيدان ثم قال : يا جارية غني .(٢) وكذا كان المقتدر يجلس مع الجوارى ، بينه وبين المغنين ستارة ، فلو اقترح غناء شئ جاء الخدم للمغني واعروه بالصوت المطلوب .(٣) اما في الاعصر المتأخرة اخذت الجوارى تظهر في المجلس للغناء(٤)

اشتهرت بعض الجوارى شهرة اطبقت الخافقين برخيم صوتها وحذقها في اخذ الاصوات واتقانها . فهذه دنانير التي سلبت الرشيد عقله ، بسحر صوتها حتى اثارت غيرة زبيدة ، وكان الخليفة قد اهداها في ليلة عيد عقدا لم ير احسن منه بثلاثماية الف دينار(٥) وعريب ذات الدل التي تقلبت بين ايدى الخلفاء واولياء العهد . كم دعت المغنين اليها ونادمتهم في دارها فاخذوا عنها واخذت عنهم .(٦) وبذل التي وهب لها الامين من الجوهر الكثير ، وصلت الى درجة من العز ان تقدم اليها القواد والوجهاء بالزواج ولكنها رفضت الجميع .(٧) وريق يقول عنها ابراهيم بن المهدى : ايش اعمل بها ؟ اقتلها وهي تحفظ كل شئ في دفاتر الغناء !(٨) ومتيم التي تيمت القلوب وعقدت الالسن حيرة بصوتها الشجي وقوة حافظتها للاصوات ، هذا غير ما ابدعته وجاءت به من جديد . وكم جلست الى

---

(١) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ٤٩
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ج ١٤ ، ص ١٠٨ تقدم
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ج ٥ ، ص ٢٢١
(٤) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ١٠٣ ،
(٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٥ ، ص ٩٢ وما بعدها
(٦) الاصفهاني ، الاغاني ج ١١ ، ص ٣٤٦
(٧) النويرى ، نهاية الارب ج ٥ ، ص ٨٧
(٨) الاصفهاني الاغاني ، ج ١٠ ، ص ١٢٦

Grunebaum, Med. Islam P285

الرجال فغنوها وغنتهم وشربت وسقتهم ،وكان لعودها سحر غريب في الافئدة .(١)

الخـــــلفاء والغنـــــاء

لعب الشعر والغناء في قلب كل ذى شعور ،ففاضت قرائح ،وتشاكت انفس وتناجت قلوب ،بلغة النظم وسحر الالحان وقوة النغم ،فولع الخلفاء والامراء والاميرات هذا الباب في الشعر والموسيقى .(٢) فابراهيم بن المهدى كان اشد الناس اعظاما للغناء واحرصهم عليه واشدهم منافسة فيه ،وكثيرا ما عمل الاصوات ونسبها لغيره خوف النقاد والمنازعين لذلك ما ينسب اليه قليل جدا بالنسبة لتآليفه . وكان اذا ما سئل في ذلك يقول :"انما اصنى تطربا لا تكسبا ،واغني لنفسي لا للناس فاعمل ما اشتهي ." وكم قال الناس لم يرفي جاهليه ولا اسلام اخ واخت احسن غناء من ابراهيم بن المهدى وعليه اخته ،وبالرغم من باعه الطويلة في الغناء لم يستطع ان يسبق في الغناء القديم ،واذا عيب عليه ذلك قال " انا ملك وابن ملك وانما اغني على ما اشتهي وكما التذ ،" فهو اول من افسد الغناء القديم على ما يذكرون .(٣) ووصف احمد بن يوسف غناء ابراهيم فقال : القلوب منه على خطر فكيف الجيوب .(٤)" ولابراهيم مجالس عامرة غنى فيها وغناء اصحابه لا سيما زمن المأمون . لا شك ان السبب كان لتطيب المأمون بانه غير طامع بالخلافه بعد هذا كله وغير لائق بها . ومجالسه ومشاحناته مع اسحق الموصلي يلذ سماعها كثيرا برغم ما كان يربطهما من اواصر العشرة والصداقة المتينة .

اما عليه فكان لاشعارها الغرامية في طل ورشا سحر ولصوتها جاذبية قلما اتفقت في غيرها .(٥) ولا ينكر حق ابو عيسى بن المتوكل ،قال عبدالله ابن المعتز : " جمع لابي عيسى

---

(١) الاصفهاني ،الاغاني ج ٧ ،ص ٣٠٥ (٢) Abbot, Two Queens of Baghdad P.8
(٣) النويرى ،نهاية الارب ،ج ٤ ،ص ٢٢٥ (٤) الثعالبي ،خاص الخاص ،ص ٥٠
(٥) النويرى ،نهاية الارب ج ٤ ،ص ٢٣١

بن المتوكل صنعة مقدارها اكثر من ثلاثمائة صوت ، طبعا من الجيد ومنها الغث ، وقال ابوالفرج الاصفهاني سنة ٢٤٤ هـ عنه : وهو لعمري من جيد الغناء وفاخر الصنعة وما لو لم يصنع غيره لكفى ." (١) ويعد الواثق من الذين حذقوا صنعة الغناء ، وعادته في النسب لغيره معروفة فيما اذا صنى لحنا قال انه غناء قديم ، وصلنا عن احدى العجائز . ويسأل اسحق ان يقوم المصوت منه ، هذا اذا رغب الواثق في ذلك واحبه والا تركه . ومجالس الواثق مشهورة بالغناء والندماء . (٢) والمنتصر كان حسن المعرفة بالغناء ، صاغ الالحان وترنم بالاشعار ، ولكن عند تبوئه العرش سكت واستتر عن ايامه الماضية . وكذلك المعتز بن المتوكل كانت له شهرة بالغناء . وقال عبيد الله بن عبدالله بن طاهر : ان المعتضد جمع النغم العشر في صوت صنعه في شعر دريد بن الصمة وهو

يا ليتني فيها جـــزع اخب فيها واضـــع

ويقول انه عمل الكثير ولم يقصر في شئ منها ابدا . حتى ان له اصواتا تناهز المائة صوت ليس فيها ساقط ولا مرذول . (٣)

ويحكي الاصفهاني عن عبدالله المعتز فيقول " كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين .. وقال ايضا هو حسن العلم بصناعة الموسيقى ، والكلام على النغم ومن صنعته : هل ترجعين ليال قد مضين لنـــا والدار جامعة ازمان ازمانا

ومن صنعته المليحة الطريفة ايضا :

زاحم كمي كمه فالتويـــا وافق قلبي قلبه فاستويـــا

وطالما ذاقا الهوى فالتويا يا قرة العين ويا هي ويـا . (٤)

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٤٣
(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢
(٣) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥
(٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٤٤

الخلفـــاء يشجـــعون الغناء .

كان الخلفاء كبير مشجع ونصير لمغني العصر ، لذا ابدعوا واتوا بالكثير الجيد ، اقاموا المباريات واعطوا الهبات ، ووصلوا الصلات لمختلفة ، وكم وقع بسبب ذلك طرف ونوادر لطيفة بحضرة الخليفة او الامير . يحكى ان قال الرشيد مرة لابراهيم بن المهدى وابراهيم الموصلي وابن جامع وابن ابي الكتان باكروني غدا ، وليكن كل واحد قد قال شعرا ان كان يقدر ان يقوله ، وغنى فيه لحنا ، وان لم يكن شاعرا غنى في شعر غيره . قام ابراهيم بن المهدى في السحر وقصد بيت الموصلي ليستمع اليه وهو يردد الحانه لان هذه كانت عادته دائما ان يسترجع الالحان في الصباح ، فاخذ ابراهيم بن المهدى الصوت ورجع . فلما كانوا بين يدى الرشيد ، وغنى ابراهيم الشعر كاد الموصلي يجن ، لا سيما والرشيد شرب عليه وطرب وامر له بثلاثماية درهم ، حينئذ اعترض الموصلي واقسم الايمان المغلظة بان الصوت له ، فضحك ابراهيم واعترف بما فعله فامر الرشيد بثلاثمائه دينار اخرى للموصلي (١)

وكم من مرة جمع الواثق الضراب والمغنين في مناظرة وكافاء المجيدين بينهم . (٢)

ويذكر جحظه ان المقتدر كان يجمع معظم مغني عصره كابراهيم بن ابي العبيس وكثير وابراهيم بن قاسم وجحظه ووصيف الزامر ، واكثر ما يدعون له ان جوارى المقتدر كن يسألنه ذلك ليتعلمن ويأخذن منهم اصواتا ، كن قد سمعنها من قبل . فمتى ما اجتمع الشمل بدأ كل بصوت فيأخذ الجوارى ما يرينه حسنا . واذا انصرفوا امر الخليفة لكل من ابراهيم وكثير ديه وبن قاسم بثلاثمائة دينار ولجحظه بمائة دينار ولوصيف بمائتي دينار ولغيرهم ممن لا بد حضوره معهم بمائتي دينار الى المائة دينار الى الالف درهم . (٣)

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ج ٥ ، ص ٢١٥ — ٢١٧
(٢) Farmer, A History of Arabian Music p. 114
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٥ ، ص ٢٢١

وكم سرقت الالحان وبذل في سبيل سرقها الدراهم . كان علي بن هشام قد سمع بحضرة المأمون من قلم جارية زبيدة صوتا اعجبه فرشا لمن اخرجه من دار زبيده مائة الف دينار حتى صار الى داره وطرح على جواريه مائة الف دينار .(١) ومن المعروف يومئذ ان يبعث الاخوان والاصحاب الى بعضهم البعض بجواريهم ليتعلمن الحانا واصواتا لم تقع اليهن من قبل .

النـــــاس والغنـــــاء .

وصل شغف الناس بالغناء الى درجة لا يمكن معها الوصف ،اذ كان التأثر به قويا فمنه ما يسر ومنه ما يبكي وما يزيل العقل ،حتى يغشى على المغني او السامع او على الاثنين معا . فالجراحي ابي الحسن كان يطرب على غناء شعلة اذا ترنمت :

لا بد للمشتاق من ذكر الوطـــن واليأس والسلوى من بعد الحزن

وكانت روحه تفارق جسده اذا سمعها ترجع في لحنها :

لو ان ما تبتليني الحادثات به يلقى على الماء لم يشرب من الكدر

فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع وآهات بتأسف مرير فكاد تذيب القلوب منهم ،وتحرق الصخر الاصم ،والحاضرين وجوم قد تعالت شهقاتهم منها على الجراحي رحمة لما حل به ، ومنها حسرة لصبابة مضت او فكر متمنى او خوف من قطيعة او حزن على حال .(٢) وابن غيلان البزازكان يطرب على ترجيعات بلور جارية ابن اليزيدى اذا غنت :

اعط الشباب نصيبه ما دمت تعذر بالشـــباب

وانعم بايام الصبي واخلع عذارك في التلصابي

فاذا وصلت بلور الى هاهنا انقلبت حماليق عيني ابن غلان ،وسقط مغشيا عليه ،وهات الكافور وماء الورد واقرأ في اذنه آية الكرسي والمعوذتين ويرقى بهما شراهيا .(٣)

---

(١) الاصفهاني الاغاني ، ج ٧ ، ص ٣٠٠
(٢) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ج ٢ ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩
(٣) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ج ٢ ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧

ويصف التوحيدي جماعة كان معهم في مجلس غنى فيه قال " فترنح اصحابنا وتمادوا وطربوا "(١)

وقد يطول بي الشرح اذا عددت الاقاصيص وما وصلنا منها سواء كان عن الرجال او النساء اللاتي كثيرا ما رمين بانفسهن في دجلة ان كان المجلس في حراقة او على الشط . اذ ان النغمات تحرك فيهم كوامن حب قديم او تفتق منهم جراحا اليمة ضناها السقام والكتمان والشكوى ، وقله الوصل ، فينفسون عن انفسهم بالنغم والصوت العذب ويمكن التأكد من تأثير الغناء عليهم بما وصف به المغنون والملحنون . وصف الحسن بن وهب مغنيا فقال : كأنه خلق من كل قلب فهو يغني كلا بما يشتهيه ، ووصف بعضهم آخر فقال : لغنائه في القلب موقع القطر في الجدب ، ووصف آخر آخر فقال : اذا غنى وددت اعضاء السامعين ان تكون آذانا . وقال آخر : غناؤه كالغنى بعد الفقر وهوعذر السكر . لذا(٢) فلا عجب ان نسمع عن ابي غالب بن الاجرى كاتب صافي احد الساجية ، انه كان يوصل الليل والنهار قيانا بمائة دينار يوميا ، ولا يسمح للقيان المغنيات ان يخرجن قبل ان يحضر له بدلهن ، وقيل انه جلس مرة مع صاحب له شهرا كاملا هذا دأبه من الصلات ، وينفق في طعام وشراب وفاكهة وطيب وكان كلما احتاج لامر مهم ركب فقضى حاجته وعاد والغناء جالس والمطبخ قائم والقوم يأكلون ويسمعون ليلا مع نهار .(٣)

يظهر مما مر بنا ان كان للغناء منزلة محترمة مقدره ، حتى هواه الكثيرون واحترفه المغنون ، اهتم به الناس والفت فيه الكتب . يذكر ابن النديم ان ابا الحسن علي ابن هارون بن علي وكان راوية للشعر شاعرا اديبا ظريفا نادم جماعة من الخلفاء وكتب رسالة في الفرق بين ابراهيم بن المهدي واسحاق الموصلي في الغناء ، وان ابا عبدالله بن هارون كان شاعرا اديبا عارفا بالغناء له مختار في الاغاني . وابن بانة وهوعمرو وبانه امه مولى يوسف ابن عمر الثقفي له كتاب مجرد الاغاني ، اختص بالمتوكل ونادمه واخذ عنه اسحاق وغيره ، وله صنعة طيبة في الغناء . والنصيبي حسن بن موسى صاحب كتاب الاغاني على حروف

---

(١) التوحيدي ، المقابسات ، ص ١٦٣ (٢) الثعالبي ، خاص الخاص ص ٥٠
(٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٩٦

المعجم الفه للمتوكل وذكر في هذا الكتاب اشياء من الاغاني لم يذكرها اسحاق ولا عمرو بن بانة ، وذكر من اسماء المغنين والمغنيات في الجاهلية والاسلام كل طريف وغريب ، وله كتاب الاغاني على الحروف وكتاب مجردات الاغاني ، ثم جحظه ابو الحسن احمد بن جعفر بن موسى بن خالد بن برمك ، شاعر ومغني مطبوع ، حاذق بصناعة غناء الطنبور، حسن الادب بارع ، لقي العلماء والرواة ، واخذ عنهم وترك كتاب الطنبوريين (١) وقريض المغني من حذاق المغنين وعلمائهم يوضع في صف جحظة وله من الكتب كتاب صناعة الغناء واخبار المغنين وذكر الاصوات التي غنى فيها على الحروف ولم يتمه . وابن طرخان طريقته بالغناء جيدة وبضاعته في الادب لا بأس بها ومن كتبه كتاب اخبار المغنين الطنبوريين . (٢) وابن ابي منصور الموصلي كان في نهايه الادب وله كتاب الاغاني رتبه حسب الحروف وكتاب العود والملاهي . وابو عبيد الله عبدالله بن طاهر له كتاب الاداب الرفيعه يبحث في النغم وعلل الاغاني . (٣)

ويذكر فارمر عن حنين بن اسحاق العبادى الذى اشتهر في حقل الترجمة من اليونانية الى العربية والسريانية ، ان له مخطوطه عربيه في الموسيقى مترجمة عن البيزنطية وهي في مكتبة مونيخ الحكومية . (٤)

آلات الطـــرب والموسيقـــى .

كانت الات الطرب والموسيقى المستعملة يومئذ اربعة ، الطبول والمعازف (العود) والطنبور والجنك . (٥) وكان للاكراد نوع مما يصفر به ، اتخذوها للزمر في مراعي الغنم ، كما اتخذ الفرس الناى والصنوج ، وغناءهم كان بالعيدان والصنوج . هم ارباب النغم والايقاعات وعنهم اخذ العرب ، ولا تزال الانغام العربية اليوم تحن انغامهم المعروفة يومئذ .

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨
(٢) ابن النديم ، الفهرست ص ٢٢٢
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ج ١ ، ص ٤٦ ، وابن النديم ، الفهرست ، ص ٢١٣
(٤) Farmer p. 127
(٥) المسعودى مروج الذهب ج ٨ ، ص ٩٠ - ٩١
Arnold, legacy of Islam p. 359

يقول المسعودي : لهم سبع طرق في الغناء ، اولها سكاف ، وهو اكثرها استعمالا واجمعها لمحاسن النغم واكثرها تصعدا وانحدارا ، ثم ما دار وسنان وهو اثقلها ، وسابكاد وهو المحبوب للارواح ، وسسم وهو المجلس المنقل ، وحويذان وهو الدرج الموقوف على نغمة وكان غناء اهل خراسان وما ولاها بالزير وعليها سبعة اوتار ، وايقاعه يشبه ايقاع الصنج ، وغناء اهل الري وطبرستان والديلم بالطنابير ، والفرس قدمت الطنابير على كثير من الآلات وكان غناء النبط والجرامقة بالعدادارات ، وايقاعها يشبه ايقاع الطنابير .(١)

وقيل في وصف الات الطرب والملاهي كثير من الاشعار والمقطعات . قال احدهم في وصف العود : فكأنه في حجرها ولد لها ضمته بين ترائب ولبان

طورا تدغدغ بطنه فاذا هفا عركت له اذنا من الاذان .(٢)

وقال ابو هلال العسكري مرة :

وهيجت لي من شجو ومن فرح ايد تثير على الاوتار عنابا (٣)

وارتأى عبيد الله بن عبدالله بن طاهر ان يمزج بين الناى والعود معا :

عيد بنا ان هذا يوم عيد واشرب على الاخوين الناى والعود .

وغيره وصف الزامر والمغني معا .

يا صاح هلا زرتنا في مجلس حضر السرور به ونعم الحاضر

زمر المغني فيه من احسانه والكأس دائرة وغنى الزامر .(٤)

ومن تمام آلة الزامر ان تكون الزامرة سوداء .(٥)

وقال سيف الدين المشد في الدف :

وطارية قرعت طارهـــا وغنت عليه بصوت عجيب

فعاينت شمس الضحى اقبلت وبدر تقدمها عن قريب

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٨ ، ص ١٠ ـ ٩١ (٢) النويري ، نهاية الارب ج ٥ ، ص ١٢٢
(٣) النويري ، نهاية الارب ج ٥ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ (٤) الثعالبي ، احسن ما سمعت ص ٦٣ ـ ٦٤
(٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ٩٢

وقال ايضا يصف شبابه :

وجارية من كل عيب حبيبة الى كل قلب بات بالبين مجروحا
لها جسد ميت يعيش بنفخه متى داخلته الريح صارت به روحا
تعيد الذى يلقى عليها بلذة تزيد فؤاد الصب وجدا وتبريحا
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى وتوحي الى الاسماع اطيب ما يوحى .(١)

وكذلك وصف الطبل والطنبور وغيره من الات الطرب .(٢)

ج)- الـــــــرقص .

وكما رأينا ان الغناء كان من مستلزمات الشراب كذلك كان الرقص احيانا كثيرة ، جاء في مروج الذهب ، ان الرقص بانواع ثمانية ، الخفيفه الهزج ، الرمل ، خفيف الرمل ، وثقيل ، وخفيفه ، وخفيف الثقيل الاول ، وثقيله ، .. والرقص ليس بالامر اليسير كما يتصوره البعض ، اذ بالرغم من قوانينه وانواعه الخاصة المبينة ، لا يستطيع كل شخص ان يقوم بالحركات المطلوبة والمتوخاة في الانواع والاجناس المذكورة ، لان الرقاص يحتاج الى طبع وخفة روح واذن موسيقية تأخذ الايقاع رأسا ، وان يكون الرقاص مرحا في رقصه وتصرفه فيه اما في خلقته وشكله فيحتاج الى طول العنق والسوالف ، وحسن الدل والتمايل في الاعطاف ودقة الخصر ، وحسن اقسام الوجه ، واستداره الثياب من الاسفل ، ولطافة الاقدام ، ولين الاصابع كذلك كثرة التصرف في الوان الرقص لئلا يضجر المتفرجين واحكام كل جديد ، وثبوت القدمين عند الدورات والحركات .(٣) وكان للرقص في حلقات ومجالس الخلفاء مكان كبير ،

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، جزء ٥ ، ص ١٢٥
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ١٦١
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ج ٨ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢

طبعا لا اقصد الرقص الايقاعي المعروف في مجالسنا اليوم وانما ما كان يقوم به الجواري والغلمان للتريه عن الحاضرين . حكى احمد بن صدقه قال " دخلت على المأمون في يوم السعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الهوص والزيتون فقال لي المأمون : ويلك يا احمد قد قلت في هؤلاء ابياتا فغنني بها :

ظبأ كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهن السعانين علينا في الزنانير
وقد زرفن اصدافا كأذناب الزرازير
واقبلن باوساط كاوساط الزنابير .

فلم يزل المأمون يشرب وترقص الجواري بين يديه انواع الرقص من الدستبندا الى الايلا حتى سكر فامر لي بالف دينار وامربان ينثر على الجواري ثلاثة الاف دينار ، فقبضت الالف ونثرت الثلاثة الالاف عليهن فانتهبتها معهن ." (١) وقال السري الرفاء في وصف رقاص :

اذا اختلجت مناكبه لرقص نزت طير القلوب اليه نزوا
افارس انت احسن من تثنى على صنج واملح من تلوى . (٢)

د) = السمار والقصاص .

وكان يسمر السامرون احيانا من دون ما خمر او غناء او رقص ، يسمرون في الاستماع الى اخبار وقصص الماضين واخبار الاولين ، ويشترط بالقاص ان يكون شيخا ويستحسن جدا ان يكون اعمى جهوري ، بعيد مدى الصوت له طريقه خاصة في الالقاء والتعبير عن مجرى حوادث قصته . (٣) واول بدء هذه الحركة كان الرواية او التحدث عن الامور الدينية ، والحديث

---

(١) الاغاني ، الاصفهاني ، ج ١٩ ، ص ١٣٨ — ١٣٩ تقدم
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ١١٥
(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٢

النبوي وتفسير القرآن . ولكنهم في الاعصر المتاخرة انحرفوا عن جادة الصواب ، ولم يعد قصدهم الدين في تلك القصص والمسامرات بل تسلية العامة باختراع الاحاديث ونشرها بينهم ولم يضطهدوا الا بعد ان كثروا بالعراق . حكى ابن عون المتوفي عام ١٥١ هـ ان كان في مساجد البصرة حلقات لا تحصى مطوءة بهم . (١) ولم يكن عليهم امر اسهل من التلاعب بالعامة والعبث بهم وحملهم على تصديق ما يروون . قيل ان كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر ، الذي عاش في ايام الرشيد والمامون ، كان يأكل خبزا على الطريق في بغداد فرآه عثمان الوراق ، فقال له : ويحك ، اما تستحي ! فقال له كلثوم : ارأيت لو كنا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحتشم ان تأكل وهي تراك ؟ فقال : لا ، قال فاصبر حتى اعلمك انهم بقر ، فقام فوعظ وقص حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال للناس : روى لنا غير واحد ان من بلع لسانه ارنبة انفه لم يدخل النار فكأنما كان ذلك اشارة منه للناس فلم يبق احد منهم الا واخرج لسانه يومئ به نحو ارنبة انفه ليرى ان كان يبلغها ام لا . (٢)

وليس من العسير ان ندرك بان حكايات القصاص السهلة الفهم كانت اشد استهواء للعامة من كلام العلماء الغوص ، لا سيما وان القصاص لم يتحرجوا من اتخاذ اية وسيلة لجذب العامة اليهم . وهكذا نرى ان اجراءات قوية تتخذ ضد القصاص ، ففي عام ٢٧٩ هـ امر الخليفة بالنداء في مدينة السلام الا يقعد على الطريق ولا في المسجد قاص ولا منجم ولا عراف ، وجدد هذا الامر في سنة ٢٨٤ هـ وبعد ذلك بقليل يذكر المسعودي وصفا شيقا للعامة في ذلك العصر فيقول " وتفقد العامة في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهر الا مرقلين الى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، وضارب بدف او متشوقين الى اللهو واللعب ، او مختلفين الى متعهد متنمس مسخرق ، او مستمعين الى قاص كذاب او مجتمعين حول مضروب ، او وقوفا عند مصلوب ، ينعق بهم فيتبعون ، ويصاح بهم فلا

---

(١) متز ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، الحضارة الاسلامية . (٢) نفس المصدر

يرتدعون ، لا ينكرون منكرا ولا يعرفون معروفا . " ويعلق خدابخش ان من الاسباب التي حدت بالحكومة لاتخاذ الاجراءات ضد القصاص ما حكاه المسعودي عن وثيقة ترجع الى القرن الرابع الهجري ، وهي من قلم ابي دلف الخزرجي شاعر الملح والطرف فقد الف قصيدة مشهورة تسمى القصيدة الساسانية ذكر فيها المكدين ، ونبه على فنون حرفهم ، وانواع رسومهم ، وهي وشرحها ذخيرة كبيرة تستقى منها معلومات كثيرة متنوعة عن احوال ذلك العصر الاجتماعية ، ويستطرد ايضا ، وقد عرفنا بني ساسان من المقامة الساسانية للحريري وفيها يوصي ابوزيد السروجي ابنه بلزوم حرفة بني ساسان . وقد بين ابو دلف في قصدته اصناف المكدين والمشرقين والمحتالين من اسواء طراز ، ونجد القاص فيهم الى جانب المحتالين ، يقول ابو دلف :

ومن قص لاسرائيل او شهرا على شهر .

(الذي يروي الحديث عن الانبياء والحكايات القصار ويقال لها الشهريات)

ومن يروى الاسانيد وحشو كل قمطـــر

(هؤلاء قوم يروون الاحاديث على قوارع الطرق)

ومن ضرب في حب علي وابي بكـــر

وهم قوم يحضرون الاسواق فيقف كل منهم جانبا ، ويروى فضائل علي والآخر فضائل ابي بكر ، وبذا لا يفوتهما درهم الناصبي والشيعي ، ثم يتقاسمان الدراهم .

استمرت هذه الحال حتى القرن السادس الهجري ، حيث يجمع ابن الاثير بين القصاص والمشعبذين في عبارة واحدة . وليس الجمع بينهما غريبا اذا عرفنا ما ذكره ابن الجوزي من حيلهم في ذلك العصر ، فمنهم من كان يدهن وجهه بما يجعلها صفراء تشبها بالنساك الصائمين ، وكان آخرون يتخذون ما يسيل دموعهم متى شاؤا ، ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر او يضربها برجله ايهاما للناس بشدة انفعاله ، وكان فريق يخدعون

النساء باتخاذ اللباس الحسن . وبينما كان القصاص القدماء موضع اعجاب واحترام العلماء لما كان في تعاليمهم من مثل دينية وخلقية ، نجد القصاص المتأخرين قد شوهوا الدين طلبا لتسلية العامة . وكم اوهموا الناس بعلمهم ومعارفهم في بيان اصول الكلمات اذ سئل بعض القصاص لماذا سمي العصفور عصفورا قال : لانه عصا وفر ولم يتورعوا عن اجابة اية سوال يوجه اليهم ، لان اعترافهم بالجهل كان من شأنه ان يزعزع ثقة العامة بهم . ولان العامة قدرت القصاص اكثر من تقديرها للعلماء . وكم فسروا ايات القرآن بما يستهويهم وكم حدثوا بغريب الحديث .

انتشر هؤلاء القوم في العراق ثم في اسيا الوسطى اما في الحجاز فكانوا ندره وكذلك في شمال افريقيا لان القوم هناك غلبت عليهم العناية في الحديث والامانة في روايته حتى يقول المقدسي "ان اهل المغرب لا يعرفون الا كتاب الله وموطاء مالك "

ولما كان الكسب غرضهم الرئيسي تفننوا في اكتساب رضا العامة ، ونشاء الحقد والبغضاء بينهم ، حتى صار من الامثال الجارية ان القاص لا يحب القاص . والذى يقوم في مجلس القصص ليجمع الصدقة يسمى المكوز ، والقاص يأمر الحاضرين باعطائه ، ومتى تفرق شمل المجتمعين تقاسما المال . وكم اعتقد العامي الخير والصلاح في القصاص ، ومما يروى في هذا الصدد ان رجلا اعطى قاصا يسمى ابا سليمان فلسا ، وقال : ادع الله لابني يرده علي ، فقال : واين ابنك ، فقال : بالصين ، قال : ايرده الله من الصين بفلس ؟ هذا مما لا يكون ، انما لو كان بجنابه او بسيراف كان نعم .(+) (١)

---

(١) انظر البحث في متز ، الحضارة الاسلامية ، ص ١١٨ ، — ١٢٦ .

(+) لا تزال هذه العادة شائعة ومعروفة في العراق ، وكم سمعت بمشادات وقعت بين السامعين عند قراءة قصة ابا زيد الهلالي ، او عنتر ، وتحزب الناس لشخصيات الرواية . كما شاهدت ذلك في احدى مقاهي صيدا هذا العام ، كان القاص يروى والناس وجوم ينظرون اليه وكان الطير على رؤوسهم .

هـ) - التغـــــــزل بالغلمـــان

ان الوصمة التي وصم بها الادب والتاريخ العربي منذ القرن الثاني للهجرة لامر مؤسف مخجل ، لا شك ان مرده الى ما دخل على الاسلام من عادات شرقية قديمة ، بسبب الفتوحات الواسعة ، واختلاط ابن الصحراء باقوام تذوقت الوانا مختلفة من الحضارات والافكار والمعتقدات ، فمهما يكن الانسان لا بد وان تؤثر فيه هذه العوامل الفعالة ، ولا بد له من ان يتكيف بحسب المحيط الجديد . وهكذا تدريجيا تخلصت فيه الروح العربيه البدوية التي تخصرتها شمس الصحراء المحرقه ، وربتها نقية طاهرة رمال البيداء الذهبيه وجوها النقي اما الان وقد اصبح داخل المدن والعمارات ، وليس الوشي والمصبغ من الثياب واقتني المركوب الجيد والحسن وساعدته الاموال المتدفقة من ثراء حسان الجواري والمرد الملاح ، اما الان وبعد ان اصبح البون شاسعا بينه وبين البدوي الذي عرفناه قبل قرنين خلت يضرب في عرض الفيافي والبيد وقد تخلق بالعادات الفارسية وغيرها ممن احتك بهم ، فلا عجب ان نسمع ما سمعنا عن نظام الخصيان والتغزل بالغلمان في العصر العباسي .

والجاحظ يعطي سببا لهذه العادة الرذيلة وتفشيها بين الخراسانيين فيقول في كتاب المعلمين " ان خروج الاجناد مع الغلمان وذلك بعد ان سن ابو مسلم الخراساني عدم خروج النساء مع الجند خلافا لبني اميه اذ سمحوا بخروج النساء مع العسكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللباس والتستر - وهم جنود فحول تقع ابصارهم على خد كخد المرأة وردف كردفها وساق كساقها - تولدت هذه الفاحشة . "[1]

---

(١) متز - الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، (في الهامش) .

نظـــــام الخصـــيان .

اشترط النا الخصيان ليقوموا في البيت بين حرمهم ،لانه لا يمكن ان تنجم علاقة بين هؤلاء والجواري باعتبار ان الخصي لا تقوم له شهوة ،مع انه في الحقيقة لا تموت الشهوة او تنعدم عندهم في جميع الحالات . جاء في المقدسي : اعلم انه اذا قربوا للاختصاء ،شقت البيضتان ،فاخرجتا ،فربما فزع الصبي ،فصعدت احدى البيضتين ، وطلبت فلم توجد في الوقت ،ثم تنزل بعد ما التحم الشق ،فان كانت اليسرى كانت له شهوة ومني ، وان كانت اليمنى خرجت له لحيه مثل فلان وفلان ،فابو حنيفة رحمه الله اخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش ، وجاز ان يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم .. " (١) واحيانا يقط القضيب من اصله .

اخـــــــلاقهم .

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغيير الصوت ،حتى لا يخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انه خصي ،وهذا يعرض لخصيان الصقالبة اكثر مما يعرض للخراسانية والسودان من السند والحبشة . (٢) ومتى خصي قبل انبات شعره لم ينبت له شئ واذا خصي بعد نبات الشعر في مواضعه تساقط كله الا شعر العانة ،فانه وان نقص من غلظه ومقدار عدده فلا يزال الباقي كثيرا . اما شعر الرأس فلا يعرض له شيئا . (٣) وقيل ان الخصي لا يصلح كما لا تصلح المرأة ،واذا قطع العضو الذي كان به رجلا تاما ،اصبح بعيدا عن اكثر معاني الفحول وصفاتهم . (٤)

---

(١) المقدسي ،احسن التقاسيم ،ص ٢٤٢ ،ـ الى ـ ٢٤٣
(٢) الجاحظ ،الحيوان ،ج ١ ،ص ١١٣
(٣) نفس المصدر
(٤) الجاحظ ،الحيوان ،ج ١ ،ص ١٠٨

اشتهر الخصيان بالصبر على الركوب والقوة على الركض حتى جاوزوا في ذلك رجال الاتراك ، (١) وفرسان الخوارز ، ومتى دفع اليه مولاه دابته ودخل الى الصلاه او ليغتسل في الحمام ، او ليعود مريضا ، لم يترك الدابه واقفة بل يركبها او يجريها ذهابا وجيئة حتى يرجع مولاه . (٢) ولقد اشتهر عند المسلمين قواد مهرة كانوا من الخصيان مثل مؤنس الخادم وفائق قائد السامانيين . وقد تمتع هؤلاء الخصيان بثقة مواليهم ، فعضد الدولة الذى نادرا ما ائتمن شخصا ووضع الثقة فيه ، نرى ان شكر الخادم يستولي على جميع اموره ، حتى في مده مرضه الذى لازمه كثيرا ولم يكن يسمح لاحد بالدخول اليه ، يشك ابنه الاكبر شرف الدوله بموت والده وان شكرا يكتم الامر ، فيقتحم الغرفة وكان والده لا يزال حيا ، فيغضب عليه وينفيه الى كرمان . (٣)

ومن صفاتهم التي يختصون بها ، صنعة الدبوق ، ويجيدون دعاء الحمام الطوري ، وزعم بعض البصريين ان حديجا الخصي ، خادم مثنى بن زهير كان يبارى مثنى في البصر بالحمام وفي صحة الفراسة ، واتقان المعرفة وجودة الرياضة . (٤) ويعرض لهم البول في الفراش لا سيما اذا بات احدهم ممتلئا من النبيذ . كذلك حب الشراب والافراط في الشهوة وشدة النهم ، ويعرض ايضا " الشره عند الطعام والبخل عليه والشح في كل شيء وهذا من اخلاق الصبيان ، كذلك سرعة الغضب والرضا ، وحب النميمه ، وضيق الصدر بالاسرار المودعة وهو صبور جدا على الكنس والرش والطرح والبسط ، والخدمة . وهذا من اعمال النساء واحيانا الصبيان . (٥)

والخصي نتن وصنانه حاد ، عرقه ذو رائحة خبيثة وتوجد لجسمه رائحه خاصة . وله طول الاقدام واعوجاج في اصابع اليد والتواء في اصابع الرجل . (٦) وقد يشتد وقع رجله على ارض السطح اذا مشى . (٧) وقيل ان طول العمر في الخصيان اكثر منه من اهلهم الذين لم يخص (٨)

---

(١) للبيهقي ، المحاسن والمساوئ ، ص ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٣١
(٢) الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١٣٦ (٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٣٩
(٤) الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١١٨ (٥) الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٣٦
(٦) الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١٠٦ (٧) الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١١٦
(٨) الجاحظ ، الحيوان ، ص ١٣٧ ،

ولو خصي احد توأمين صقليين لكان الخصي منهما اجود خدمة ، وافطن لابواب المعاظاة والمناولة ، وهولهما اتقن وبهما الهق ، واذكى عقلا عند المخاطبة . (١) والخصي يحب ان تملكه الملوك ، على الا تقيم له الا القوت ، ويكون ذلك احب اليه من ان تملكه السوقه ، وان الحقته بحيش الملوك . (٢)

اقتنى البعض الغلمان السود لطربهم وحب الملاهي والاغاني وايثار الخلاعة والتصابي لا سيما اذا دب الشراب فيهم وزاد من حرارتهم ، حتى ضرب فيهم الامثال بقيل لرجل اخذه الطرب " انه لاطرب من زنجي عاشق سكران ." (٣)

كان الغلمان خصيان وغير الخصيان مما يقتنى ويشترط وجوده في بيوت الخاصة والكبراء استعملوا في الخدمة على موائد الاكل والشراب ، وفي الخلوات ، والغدوات والروحات حتى اشتد الكلف والوجد والعشق بهم ، مما دعا الفقهاء ان يهتموا لامرهم ويبينون ان كان اللواط زنا عقابه الرجم والقتل ام لا حد به ، ففريق فرق بين اللواط بالغلام المملوك عن غير المملوك ، وقال ان الحد لا يلزم الاول بخلاف الثاني وقال الاكثرون ان لا حد فيه ويوجب التعزير من القاضي . (٤)

ان اشعار الهوى والتوجع التي قيلت في الذكران تعادل او تزيد عما قيل في التشبيب بالنسوان . فالخليفة الامين بن هارون الرشيد لما ملك بلغ من كلفه بالخصيان انه " طلبهم وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وامره ونهيه ، وفرض لهم فرضا سماهم الجراديه ، وفرضا من الحبشان سماهم الغرابيه ، ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رمي بهن ." (٥) قال ابو نواس ساخرا :

---

(١) الجاحظ ، الحيوان مج ١ ، ص ١١٦
(٢) الجاحظ ، الحيوان مج ١ ، ص ١٣٦
(٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٤٣٥
(٤) متز ، الحضارة الاسلامية مج ٢ ، ص ١٣٤
(٥) الطبري ، الرسل والملوك مج ١٠ ، ص ٩٥٠

احمدوا الله جميعـــا يا جميع المسلمـــين
ثم قولوا لا تملـــوا ربنا ابق الاميـــنا
صيّر الخصيـان حتى صيّر التعنين دينـا
فاقتدى لناس جميعا بامير المؤمنينا . (١)

الغـــــلاميات .

فلما رأت زبيدة امه شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن والبستهن المناطق والاقبية ، فماست قدودهن وبرزت اردافهن ، وبعثت بهن اليه ، فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذب قلبه اليهـن ، وابرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المطمومات والبسهن الاقبية والمناطق ، وسموهن بالغلاميات . (٢) فامتدت العادة الى الخاصة والكبراء فالبسوا جواريهم ملابس الغلمان . (٣) وقيل ان يحي ابن اكثم هو الذى زين للمأمون اللواط وحبب اليه الولدان وغرس في قلبه محاسنهم وفضائلهم وخصائصهم ، وقال : انهم في الليل عرائس وبالنهار فوارس ، وهم للفراش والمهراش ، وللسفر والحضر ، فصدر المأمون عن رأيه وجرى في طريقه واقتدى به المعتصم حتى اشتهر بهم وملك ثمانية آلاف منهم . (٤)

حـــب الغلمـــان والولـــوع بهم .

هوى الواثق خادما له وقال فيه اشعارا :

ساضع قلبي من مودة غـادر تعبدني خبثا بمكر مكاشد
خطبت اليه الوصل خطبة راغب فلاحظني زهوا بطرف مهاجر . (٥)

---

(١) الطبرى ، الرسل والملوك ، ج ١٠ ، ص ٩٦٥
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢١٦
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٠٠
(٤) الثعالبى ، ثمار القلوب ، ص ١٢٣
(٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٩ ، ص ٢٩٨

ويحكى ان اسر لبختيار الامير البويهي في موقعة بالاهواز غلام تركي يحرف ببائكين ، فجن عليه جنونا وتسلى عن كل ما خرج عن يده ، وامتنع عن الطعام والشراب والقرار والسكون وانقطع الى النحيب والشهيق والعويل واحتجب عن الناس واخلد الى البكاء والضجر بالجيش . واذا دخل عليه قواده ام وزراؤه في المهمات الرسمية صرفهم ، واظهر الشكوى مما حل به . (١) وقال بعض الرواة : دخلت على ابي العشائر لعوده من علة هجمت عليه ، فقلت له : ما يجد الامير فاشار الى غلام قائم بين يديه اسمه نسطوس كأن رضوان غفل عنه فابق من الجنة . وانشد :

اسقم هذا الغلام جسمي ... بما يحتويه من سقام
فتور عينيه من دلال ... اهدى فتورا الى عظامي
وامتزجت روحه بروحي ... تمازج الماء بالمدام (٢)

وللفتح بن خاقان في شاهك خادم المتوكل اشعار واغاني رفه بها عن نفسه المملوءة له عشقا وغراما :

اشاهك ليلي مزهجرت طويل ... وعيني دما بعد الدموع تسيل
وبي منك والرحمن مالا اطيقه ... وليس الى شكوى اليك سبيل
اشاهك لو يجزى المحب بوده ... جزيت ولكن الوفاء قليل . (٣)

لم يكن حب الغلمان بالامر الغريب او المستهجن بل فضله الكثيرون على حب البنات والنساء . (٤) وكان البربر اذا ارادوا اكرام ضيفهم غاية الاكرام لا يترددون عن طلبه البتة ، ولو اراد اكبر اولادهم قدرا ، ولم يكن يمتنع عليه احد ابدا . . . ويبلغ بهم فرط المحبة في الاكرام ، ان يؤمر الصبي الجليل الاب والاصل بخاجعة الضيف ليقضي

(١) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢
(٢) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ٧٢
(٣) ياقوت ، الارشاد ، ج ٦ ، ص ١١٨
(٤) الف ليلة وليلة ، ج ١ ، ص ٣٣٤

منه وطره ، ويروى ذلك كرما والاباء عنه عارا ونقصا .[١]

ويلح الاستمتار اقصاه في القرن الرابع الهجرى حيث يقف الغلام في وسط المجلس ويطلب الى الموجودين ان يواقصوه . يذكر التوحيدى ان ابو طاهر بن المقنعي كان يهوى غلام بن عرس ، وكان هذا اذا حضر القى ازاره وحل ازاره وقال لاهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا فاني ولدكم بل عبدكم لاخدمكم ،... واتقرب اليكم بولائي واساعدكم على رخصي وغلائي ، من ارادني مرة اردته مرات ، ومن احبني ربا احببته اخلاصا ، ومن بلغ بي بلغت به ... انما خلقت لكم ..." فيصرفي هذا وما اشبه ، فلا يبقى من الجماعة احد الا وينبض عرقه ويهش فؤاده .. ويتحرك ساكنه ويتدفدغ روحه ، ويومي اليه بقبلته ويغمزه بطرفه ، فيرى ابن المقنعي وقد طار في الجو وحلق في السماك ولقط بانامله النجوم ..."[٢] اما الصاحب بن عباد احدى الشخصيات اللامعة يومئذ يعترف قائلا " داعبت صبيا مستحسنا فقلت له : ليتك تحتي ".[٣] ويحب ابن اكثم كان اذا رأى غلاما ما يفسده ، وقعت عليه الرعدة وسال لعابه ويرى بصره ، ولم يكن يستخدم في داره الا المرد الملاح ويقول : قد اكرم الله تعالى اهل جنته بأن اطاف عليهم الغلمان في حال رضائه عنهم لفضلهم على الجوارى فما بالي لا اطلب هذه الزلفى والكرامة في دار الدنيا معهم ؟[٤]

اما الذين تغنوا في رهبان وغلمان الاديرة فكثيرون جدا ، لا سيما وان الاديرة اتخذوها كخمارات ومحلات للهو واللعب ، خاصة القريبة من المدن . قال جحظة في دير الزندورد : سقيا ورعيا لدير الزندورد وما يحوى ويجمع من راح وغزلان

دير تدور به الاقداح مترعة بكف ساق مريح الطرف وسنان

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ١٠٥
(٢) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ، ص ١٧٨ - ١٧٩
(٣) ابن الجوزى ، الاذكياء ، ص ٣٢
(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٢٣

والعود يتبعه ناى يواقعـــه والشدو يحكمه غصن من البان
القوم فوضى فضا هذا يقبل ذا وذاك انسان سوء فوق انسان .(١)

اما الشاعر الكندى فلا يكفيه ان يتغزل بغلمان دير مرماعوث على شاطئ الفرات الغربي ، لا بد ينتقيهم حسب ذوقه وذوق اهل العصر ، ان يكون الغلام غنجا له لثغة خاصة في لسانه :

يا طير ليلة دير مرماعـــوث فسقاه رب الناس صوب غيـــوث
ومورد الوجنات من رهـــبانه هو بينهم كالظبي بين ليـــوث
ذى لثغة فتانة فيسى الـــ طاووس حين يقول بالطاووث
حاولت منه قبلة فاجابنـــي لا والمشيح وحرمة الناقـــوث
اتراك ما تخشى عقوبة خالـــق تعشيه بين شمامت وقشوث
حتى اذا ماالراح سهل حشها منه الصهير برطلة المحثـــوث
نلت الرضا وبلغت قاصية المنى منه برغم رقيبه الديـــــوث
ولقد سلكت من النصارى كلما سلكوه غير القول بالشالوث
ورجوت عفو الله متكلا علـــى خير الانام نبيه المبعـــوث .(٢)

ويحكى عن ابن كليب النحوى المتوفي عام ٤٢٦ هـ انه كان يحضر مجلس احد النحاة بالبصرة ، وبينهم ولد لاحد القضاة اسمه اسلم ، وكان من اجمل من وقعت عليه العين كلف به ابن كليب وقال فيه حتى تفشت اشعاره وجرت على الالسن وتنوشدت في المحافل ، فلما بلغ الامر هذا الحد انقطع اسلم عن المجالس التي يقصدها احمد ، ولزم بيته ، فلم يكن من احمد الا ان يقطع الدرب ذهابا وايابا عله يحظى بنظرة من اسلم . ولما عيل صبر احمد بن كليب ، احتال في بعض الليالي وتزيا بزى اهل البادية واخذ

---

(١) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٣
(٢) ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٦

بيده دجاجا وقفصا فيه بيض وتحين جلوس اسلم عند اختلاط الظلام على باب البيت ، فتقدم اليه وقبل يده كأنه احد اصحابه في الضياع التي يملكها ، فامر اسلم بأخذها منه واخذ يسأله عن امر الضيعة ، حتى انكر اجوبته وكلامه واخيرا عرفه ، فقال له : يا اخي ، وهنا بلغت بنفسك ... اما كفاك انقطاعي عن مجالس الطلب ومن الخروج جملة ؟ . وبعدها اقسم ان لا يجلس على باب داره لا ليلا ولا نهارا ، فلما يأس احمد من رؤيته لزمته العلة ، وساءت حاله وطلب الى احد اصدقائه ان يداويه بنظرة من اسلم ، فما زال الصديق باسلم يقنعه ويطلب اليه ، وذاك يرفض ويتأفف حتى وافق على السير اليه فلما توسط الدرب وقف واحمر خجلا ورجع مسرعا بالرغم من توسلات صاحبه ، ولما دخل الصديق على احمد ، وكان غلامه قد دخل اليه واخبره مبشرا ان اسلم مقبل ، ورآه دونه تغير لونه واخذ يتكلم بكلام غير معقول ولا مفهوم ، فما تركه الصديق وتوسط الدرب حتى سمع الصراخ عليه وقد فارق الدنيا . وكان احمد بن كليب قد اهدى الى اسلم في اول امره كتاب الفصيح وكتب عليه :

هذا كتاب الفصيح ... بكل لفظ مليح

وهبته لك طوعا ... كما وهبت روحي . (١)

ولغورك اشعار كثيرة في عشاقه الغلمان . (٢)

قد يطول بي الكلام ان حاولت سرد القصص والحوادث لانهما مما لا ينتهي او يقف عند حد ، اذ انهما مجرى حوادث عصور طويلة ، احتلت المركز الاول في حياة الرجل ولا شك ان ابونواس وامثاله كان لهم قصب السبق في هذا الباب . واقيمت دور خاصة يديرها اناس خاصون علمهم الجمع بين الرجال واصطياد الولدان . (٣) يقول احد عمال هذه الصناعة :

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٨٣ - ٨٦
(٢) ابن قيم الجوزيه ، اخبار النساء ، ص ١٦
(٣) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ، ص ٥٢ - ٥٣

فاطيب العيش كان عندى ايام للفسق قلدونـــي
فكم غزال اخذت قســـرا وكم مليح حوت يميني
والناس يسعون نحو دارى من كل ارض ويقصدوني
فذا يوافي بثوب خـــز وذا يوافي بثوب توني
وذا يفدى وذاك يهـــدى وذاك يمضي وذا يجيني . (١)

ثم يصف ما كان يجرى هناك من الاعمال والحالات المخزية ، تحاشيت ذكرها لان قلمي يخجل من كتابتها ، ونفسي تتقزز من ترديدها . انما هي صورة صادقة لفساد الاخلاق يومئذ . وهل هذا بامر غريب او مستبعد ؟ اذ كان ولاة الامور والقضاة والحكام لا يقضون اعمال الناس الا برشوة ، والرشوة غالبا ما تكون وقعة او ضجعة مع الغلام المحتكم . (٢)

ولقد اجاد ابو الفضل بن محمد حين وصف بغداد وما كان يدور فيها من الامور الاخلاقية : اذا سقى الله ارضا صوب غادية فلا سقى الله غيثا ارض بغداد

ارض بها الحر معدوم كان لها قد قيل في مثل لاحد بالوادى
بكل كل ما شئت من علق وزانية ومستجد وصفعان وقـــواد . (٣)

قد يعترض البعض على هذا الوصف وقد يرون فيه كثيرا من المبالغة ، واى مبالغة فيه عندما نسمع ان وصلت الحال ببعض العلماء بمنع الشبان غير الملتحين من حضور دروسهم ، ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ، ولما كان لبعض الصبيان رغبة شديدة في التعلم حاولوا اتخاذ اللحى المصطنعة ليتمكنوا من حضور حلقات ومجالس اولئك العلماء . (٤)

---

(١) الثعالبي ، اليتيمة مج ١ ، ص ٢٨٦
(٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٢٣
(٣) ياقوت ، البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٤
(٤) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ـ ١٤١

و) - وسائل اللهـــــو واللعـــــب .

لم تشاهد الاعصر العباسيه ما شاهده القرن الرابع الهجرى من ترف ومال متدفق وبذخ غير منتظر ، مما اوجد فراغا كبيرا في حياة الشعب ، فراغا لم يكن من السهل ملوءه بالنافع والجيد من العلم والفلسفة فقط ، كما كانت الحلقات الادبية ومجالس المجادلات المنطقية والعقلية تشغل القسم الكبير من اوقات العلماء والحكماء والفلاسفة . ولكن ليس من المعقول ان تعم هذه الحركة الشعب برمته ، وحتى هؤلاء الذين اشغلوا واشتغلوا في حقل العلم كان لا بد لهم من ساعات لهو وفراغ يروحون بها عن انفسهم وافكارهم . ومما مر بنا من نوعية حياتهم الاجتماعية كان لهم كثير من اوقات الفراغ ، وفعلا تفننوا في ملئها واستعمالها ، فمن نساء وغلمان وخمرة الى وسائل تسلية ورياضة في مختلف انواع الالعاب .

الشـــــــطرنج .

اولع الناس بلعبة الشطرنج ، واصبحت لديهم من آداب المجتمعات ، على كل ظريف ومهذب ونديم ان يكون عالما بها ، هذا ولو ان بعض الفقهاء لم يجز اللعبة باعتبار ما ينجم عنها من مشاحنات ومشادات .

احتلت اللعبة مركزا خاصا في مجالس الخلفاء العباسيين والخليفة هارون الرشيد اول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس .(١) ومن اقوالهم في الشطرنج ، انها تعلم الحرب وتشحب اللب وتدرب الانسان على الفكر وتعلمه شدة البصيرة فلو لم يوجد فيها شئ من المحوز في غيرها لما لعبها اهل الارض منذ الوف السنين وما وقع فيها دست معاد قط من اوله الى آخره .(٢)

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢١٦
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٤١

اخذ العرب الشطرنج عن الفرس ، ولم تلائم حلقاته في بادء الامر طبيعة العربي ، حيث يجلس اللاعبون صامتين ، والعربي الصميم تنفر طباعه من ذلك . قالت العرب " انما وضع الشطرنج للعجم الذين لا علم لهم ، لانهم كانوا اذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر فجعلوا لعبة الشطرنج مشغلة " ، اما العرب فعندهم الغناء والنوادر والعبارات اللطيفة البليغة .(١)

ويحكى ان الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة اشتهى الشطرنج فاستحضر كبار اهله ، فكانوا يتهيبون في حضرته حتى ضاق بهم ذرعا ، وقال : ان الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ، قولوا ما تقولون اذا خلوتم (٢) وجاء في مروج الذهب ان الشطرنج كان يلعب على ورقة مربعة حمراء من آدم والسى جانب الآلة المربعة المشهورة آلة مستطيلة وآلة مدورة منسوبة الى الروم ، واخرى تسمى النجومية او الفلكية وابياتها اثنى عشر على عدد بروج الفلك ، فيها ينقل سبعة امثلة مختلفة الالوان على عدد الخمسة الانجم والنيرين وعلى الوانها ، وهذا الوصف كان في سنة ٣٣٢ هـ (٣) :

ارض مربعة حمراء من آدم ما بين اللين موصوفين بالكرم
تذاكر الحرب فاحتالا لهاشبها من غير ان يسقيا فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا ، وذاك على هذا يغير ، وعين الحرب لم تنم
فانظر الى الخيل قد جاشت بمعركة في عسكرين بلا طبل ولا علم .(٤)

ومما قيل فيها ويوليغ في وصفها واستوجب النظر لاكثر معانيها ما قاله ابن ابي البغل الكاتب ، وكان من جلة الكتاب وكبار العمال وممن اشتهر بمعرفتها واللعب بها .(٥)

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢١٤
(٢) نفس المصدر
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣١٣ - ٣١٤
(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣١٦
(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٥٣

وكانت مجالس الشطرنج عامرة بالنوادر والاحاديث والطرف المستحبة ، وكثيرا ما سهى اللاعبون عن انفسهم وجلسوا الساعات دون ان يشعروا بالوقت . روى التنوخي عن والده ، ان شخصا كان مستهترا بلعب الشطرنج وكان له فيهما عجائب : منها ان غلمانه كانوا يلاعبون بها وكان اذا لعب بها برك على الارض واتكى على ذراعيه كالنائم فيجيء احدهم من وراءه فيعبي على ظهره عدة مخاد ولا يشعر بها فاذا انقض الدست احس بذلك فنحاها عن ظهره وشتمهم. "(١)

الف الكثيرون كتبا في الشطرنج منهم الصولي ابو بكر محمد بن يحي حوالي عام ٣٠٠ هـ وكان العب اهل زمانه بالشطرنج نادم المكتفي ثم المقتدر دفعة واحدة .(٢) وله كتاب الشطرنج النسخة الاولى وكتاب الشطرنج النسخة الثانية .(٣) وحد ستة انواع مختلفة ونظريات للعب اللعبة .(٤) والعدلي وله من الكتب كتاب الشطرنج وهو اول كتاب عمل في الشطرنج ، والرازى كان نظر العدلي ، ولعب الاثنان بين يدى المتوكل وللرازى كتاب لطيف في الشطرنج .(٥) واللجلاج وهو ابو الفرج محمد بن عبيد الله وكان باللعبة بارعا وله من الكتب فيها كتاب منصوبات الشطرنج . ابن الاقليدسي ابو اسحاق وكان من الحذاق بها وله كتاب مجموع في منصوبات الشطرنج .(٦)

النـــــــرد .

اما النرد فيلعب على رقعة بها اثنى عشر او اربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجرا وفصين ، وشبه بعض الحكماء رقعة النرد بالارض الممهدة لساكنها . ومنازل الرقعة اربعة وعشرون بعدد ساعات النهار والليل ، وبيادقها وهي ثلاثون بعدد ايام الشهر ، بالوان

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١
(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢١٥ وص ٢٢١
(٣) نفس المصدر
(٤) Bowen. P. 80
(٥) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٢١
(٦) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٢٢

مختلفة باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، ومنازلها الاربع بالطبائع الاربع .[١] قيل ان اردشير بن بابك اول من لعب بها وجعل بيوتها اثنى عشر على ترتيب عدد الشهور ، وان كلابها ثلاثون كلبا بعدد ايام وشهور وان الفصين مثال القدر ، وان لعبه فيها لرمز على لعبه في العالم والاقدار وتغلب الدنيا باهلها .[٢] والخليفة هارون الرشيد اول من لعبها من خلفاء بني العباس .[٣] ثم عمت بين الناس .

يذكر الجاحظ بان تخوت النرد كانت معروفة ليتسلى بها القوم .[٤] وفعلا اولع به الكثيرون .[٥] وقد قيل في وصفها ولعبها واحكام الفصين فيها وقضائها على لعابها اشعار كثيرة بالغوا فيها واغرقوا في استيعاب معانيها .[٦] وشبه ما يخرج من الفصين اذا رمي بهما بالقضاء الجارى على العباد ، ولهذا ظل اهل التقى والورع ساخطين على اللعبة . وكان النرد يلعب احيانا ابتغاء الكسب ، فيحكى ان رجلا لاعب اخر فغلبه فاخذ منه عشرين دينارا .[٧]

الصيد .

اما الصيد فكان الرياضة المحببة للخلفاء العباسيين قيل عن الامين انه كان مختصا بصيد السباع ، ومات احد اخوته بمداهمة حيوان وحشي حاول اصطياده . اما المعتصم ففضل الصيد بمساعدة الكلاب ، وكان قد بنى حائطا على شكل حذاء الفرس يتصل طرفاه بدجلة ، وهكذا كان الصيادون يحاصرون فريستهم بين الحائط ودجلة . واستعمل المستعين هذه الطريقة الدائرية في مطاردة الفريسة وكذلك فعل السلاجقة بعد

---

(١) الكندى ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٢٠
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٩٦
(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٦٠
(٥) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ٢٤١
(٦) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣١٨
(٧) الكندى ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٤٠٢

ان طريقة الصيد بالباز والباشق دخلت الى جزيرة العرب من بلاد فارس ، واصبحت الطريقة المحببة في عصور الخلافة المتأخرة وفي العصور الصليبية ايضا . اما في اصطياد الغزلان والايل والوزات الوحشية والبط فكانت الكلاب المساعد الاول للصيادين ، وظهرت قصائد كثرة فيما سمي بالطرديات ومعظمها تدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها .(١)

وكان الخلفاء يدعون حاشيتهم وندمائهم للصيد ، فيخرجون اياما في البراري . وكان لبعضهم هواية كبيرة في اقتناء الحيوانات الوحشية . كان في قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ دار بها قطعان من اصناف الوحوش ولم يقصر الامراء والكبراء عنهم . يحكى عن خمارويه بن احمد بن طولون انه بنى في داره الكبيرة موضعا للسباع ، وعمل فيه بيوتا ، كل بيت لسبع لا يسع غير السبع ولبوءته .(٢) وكانت قصور السباع وصيدها تحتل مكانا كبيرا من احاديث التسلية وكان جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير بمصر المعروف بابن حنزابه المتوفي سنة ٣٩١ هـ يهوى النظر الى الافاعي والحيات والعقارب وغيرها من الحشرات ، فكان في داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلة الحيات ، ولما قيم فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاو في مصر واعمالها يصيد له ما يقدر عليه ، والوزير يبذل لهم العطايا كي يجتهدوا في تحصيلها . وفي ذات يوم انساب الى دار ابن المدبر الكاتب - وكان يسكن الى جوار الوزير - الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وابو صوفه ، فكتب اليه الوزير يأمره بصونها حتى ينفذ الحواة لاخذها ، فلما وقف ابن المدبر على ما في الخطاب ، كتب في ذيله : اتاني امر مولانا الوزير ادام الله نعمته وحرس مدته بما اشار به في امر الحشرات ، والذي يعتمد عليه في ذلك ان الطلاق يلزمني ثلاثا ان بت انا او احد من اولادي في الدار والسلام ."(٣)

---

(١) Hitti, The ARABS. P. 340-341

(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٧٠

(٣) ياقوت ، الارشاد ، ج ٢ ، ص ٤٠٩

ان طريقة الصيد بالباز والباشق دخلت الى جزيرة العرب من بلاد فارس ، واصبحت الطريقة المحببة في عصور الخلافة المتأخرة وفي العصور الصليبية ايضا . اما في اصطياد الغزلان والايل والوزات الوحشية والبط فكانت الكلاب المساعد الاول للصيادين ، وظهرت قصائد كثرة فيها سعيد بالطرديات ومعظمها تدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها .(١)

وكان الخلفاء يدعون حاشيتهم وندمائهم للصيد ، فيخرجون اياما في البراري . وكان لبعضهم هواية كبيرة في اقتناء الحيوانات الوحشية . كان في قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ دار بها قطعان من اصناف الوحوش ولم يقصر الامراء والكبراء عنهم . يحكى عن خمارويه بن احمد بن طولون انه بنى في داره الكبيرة موضعا للسباع ، وعمل فيه بيوتا ، كل بيت لسبع لا يسع غيره السبع ولبوءته .(٢) وكانت قصور السباع وصيدها تحتل مكانا كبيرا من احاديث التسلية وكان جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير بمصر المعروف بابن حنزابه المتوفي سنة ٣٩١ هـ يهوى النظر الى الافاعي والحيات والعقارب وغيرها من الحشرات ، فكان في داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلة الحيات ، ولها قيم فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاو في مصر واعمالها يصيد له ما يقدر عليه ، والوزير يبذل لهم العطايا كي يجتهدوا في تحصيلها . وفي ذات يوم انساب الى دار ابن المدبر الكاتب - وكان يسكن الى جوار الوزير - الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وابو صوفه ، فكتب اليه الوزير يأمره بصونها حتى ينفذ الحواة لاخذها ، فلما وقف ابن المدبر على ما في الخطاب ، كتب في ذيله : اتاني امر مولانا الوزير ادام الله نعمته وحرس مدته بما اشار به في امر الحشرات ، والذي يعتمد عليه في ذلك ان الطلاق يلزمني ثلاثا ان بت انا او احد من اولادي في الدار والسلام .(٣)

---

(١) Hitti, The ARABS. P. 340-341

(٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٧٠

(٣) ياقوت ، الارشاد ، ج ٢ ، ص ٤٠٩

وكان اللعب بالخيال معروفا وكثيرا ما خرج الناس بمصر في بعض الاعياد وطافوا الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات .(١) (*)

واولع الناس بسباق الحمام رغم انكار الفقهاء له وكان منتشرا في مصر وزاد كثيرا في القرن الخامس الهجرى . ويحكى ان الخليفة المعز سابق بحمامه حمام الوزير ابي الفرج يعقوب ، فسبق حمامه حمام الخليفة فاغتم لذلك المعز .(٢) (*) وربوا الديكة والقباج والكباش التي كان يناطح بها بين ايدى الخلفاء .(٣)

الكـــــره والصولجـــــان .

اما اللعب بالصولجان (٤) فكان رياضة الكبراء والوزراء ، ويكون ذلك بضرب الكره من على ظهور الخيل واصلها فارسي . لعبها الخلفاء في ميادين خاصة في قصورهم وبعد ان ينتهي اللاعبون من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون انفسهم . ومن اجادة الضرب بالصولجان ، ان يضرب اللاعب الكره ضربة خلسة ، ويكون ضربه متشازرا مترفقا مترسلا ، وان يتوخى الضرب للكره تحت مخزم الدابه من قبل ليها في رفق ، والا يستعين بسوط ، والا يؤثر في الارض بالصولجان او يكسره او يعقر قوائم دابته ، وعليه ان يحترس من ايذاء من جرى معه في الميدان ، وان يحسن الكف للدابة في شدة جريانه ، متوقيا من الصرعة والصدمة في تلك الحال ، وان يجانب الغضب ويتحفظ من القاء كرة على ظهر بيت وان كان ست كرين بدرهم ، وان يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لان غرض الميدان انما جعل ستين ذراعا لئلا يحال ولا يصان من جلس على حائطه .(٥)

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٢١
(*) ولا تزال هذه اللعبة معروفة في بغداد وبيروت والقاهرة ويقصدها كثير من النظارة والمتفرجين
(٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢١٦
(*) ولا زال الناس في العراق يهتمون لامر الحمام اهتماما كبيرا ، وتوجد للحمام سوق خاصة وامر السباق بينه معروف .
(٣) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٠٧
(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٩٦
(٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢١٨

وكان لرمي النشاب في البرجاس اثر كبير في العابهم ، وكذلك لعب الكره والطبطاء[1] وكثيرا ما كانت حلق المشعبذين ، واللاعبين بالقرود والدببة تستهوى انظار العامة فيقفون للفرجة على ما يقوم به هؤلاء من الالعاب .[2]

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٩٦

(٢) ياقوت ، الارشاد ، ج ٤ ، ص ٢٨٦

الفصـــــل الخـــــامس

الاعـــياد ومواسمهـــا

كانت الاعياد ولا تزال من اهم العادات والمظاهر الاجتماعية عند الاقوام مهما اختلفت اديانهم وجنسياتهم وازمانهم .

ففي الاعصر العباسية احتفل المسلمون بجميع الاعياد النصرانية ، وكانوا قد اباحوا للمسيحيين التصرف في شؤونهم الدينية دون ان يعترضهم معترض او ان يقف احد في سبيلهم ، كما انهم اشتركوا في القسم الاجتماعي المسلي من تلك الاعياد والمهرجانات ، فمعظم اعياد اهل بغداد كانت مسيحية من عدة وجوه ، واعياد القديسين في مختلف الاديرة حازت على نصيب وافر من احتفال الناس ، وكانت الاديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة ، مجتمع اهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين ، وكثيرا ما يقترن ذكر الاديرة بذكر الشراب في كلام الشعراء .

ولم تختلف الحال في مصر عنها في بغداد ، اذ قيلت القصائد والاشعار الكثيرة في اديرتها المختلفة ، كدير مرحنا والقصير الذى كان على تل جبل المقطم ، يشرف على بقاع نظره جميلة قيل فيه :

ان دير القصير هاج الدكارى ... لهو ايامنا الحسان القصار

منزلا لست محصيا ما لقلبي ... ولنفسي فيه من الاوطـــار (١)

وامر ابو الجيش خمارويه الطولوني ان تبنى له قبة في اعلى دير القصير لها اربع طاقات على الجهات الاربع .(١)

---

(١) ياقوت ، البلدان ، جزء ٤ ، صفحة ١٦٣

اعيـــــاد النصـــارى .

واعياد النصارى اربعة عشر عيدا ، سبعة منها كبار وسبعة يسمونها صغارا .

فالكبار هي : ١) عيد البشاره ـ يوم بشر جبريل مريم بحملها بعيسى .(١)

٢)عيد الزيتونة ـ او عيد الشعانين (٢) ،عيد معروف قبل العيد الكبير باسبوع ، وهو سرياني معرب ، والشعانين جمع (سعنون) ولكن يعرف بالشين وليس بالسين ، وتفسيره بالعربية التسبيح ،يعملونه في سابع احد من صومهم . وسنتهم فيه ان يخرجوا بسعف النخل من الكنيسه ،وهو يوم ركوب المسيح للبحفور (الحمار) في القدس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر .(٣)

وعيد الشعانين هذا من الاعياد التي كان المسلمون يعيدون فيها ويخرجون للاديرة فيقضون الساعات في منتزهاتها ،يتحينون رؤية النساء والصبيان المسيحيين .

قال عبدالله ابن عباس وكان يهوى جارية نصرانية ،لم يكن يصل اليها ولا يراها الا اذا خرجت الى البيعة ،فخرج هو واصحابه يوم الشعانين فرأها فانشد لنفسه وغناه :

ان كنت ذا طب فداوينـي ولا تلم فاللوم يغريـــني

يا نظرة ابقت جوى قاتـــلا من شادن يوم الشعانين

خرجن يمشين الى نزهـــة عواتقا بين البســـاتين

مزنرات بهماينيهـــــا والعيش ما تحت الهمايين .(٤)

وكان يخرج في هذا العيد اهل الظرف واللعب بالشراب والطعام والقيان الى الابلة فيرون النصارى ويشربون ويتفرجون .(٥)

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٣
(٢) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٣٠٩
(٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ٢٧٨ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٣
(٤) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٧ ، ص ١٣٦ تقدم
(٥) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٥٦

Tritton . P. 113

كانت الوصائف الروميات يوم احد الشعانين يظهرن في قصر الخلافة ببغداد متزينات في ثياب جميلة غالية وفي اعناقهن صلبان من الذهب وبايديهن قلوب النخل واغصان الزيتون . (١) قال زرياب : زرت عبدالله بن المعتز في يوم الشعانين فسر بورودي وصنع لحنا في شعر عبدالله ابن العباس الربيعي :

انا في قلبي من الطبي كلوم فدع اللوم فان اللوم لوم
حبذا يوم الشعانين ومـــا نلت فيه من سرور لو يدوم . (٢)

جاء في متز " وفي القرن الرابع الهجري ،كانت عادة النصارى في بيت المقدس في هذا العيد ان يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعازرية الى كنيسة القيامة وبينهما مسافة بعيدة ويشقوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب مشهورا ، ويركب والي البلد في جميع موكبه معهم ويذب عنهم . وكان الرسم بمصر وسائر البلاد ايضا ان تزين الكنائس في هذا العيد باغصان الزيتون وقلوب النخل ويفرق منها على الناس على سبيل التبرك فمنع الحاكم بامرالله ذلك في بيت المقدس وفي سائر اعمال مملكته ، وامر الا تحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخل في كنيسة من الكنائس، والا يرى شئ من ذلك في يد مسلم ولا نصراني ." (٣)

٣) الخميس المقدس يسمى في مصر خميس العدس ، (٤) لان معظم النصارى كانوا ياكلون العدس كعلامة للحزن ، وكان اهل الاسكندرية في يوم خميس العدس يخرجون الى المنارة بمآكلهم ، فمنهم من يسبح لله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ، ويبقون هناك حتى منتصف النهار . (٥) وفي الشام كانوا يسمونه الخميس الازرق او خميس البيض . (٦)

وكان يباع فيه باسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة الوان "فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ،

---

(١) الاصفهاني ،الاغاني ، ج ١٩ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ تقدم
(١) للاصفهاني ،الاغاني ، ج ١٩ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ تقدم
(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٠ ، ص ٢٧٨
(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٣٨
(٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٤
(٥) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٥٠
(٦) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٤

وينتدب من جهة المحتسب من يرد عنهم ." وفيه يكون غسيل الارجل .[١] ويليه جمعة الصلبوت .[٢] وفيها يحزن النصارى ولا يظهرون باس مظهر للفرح ، ومنهم من يلبس السواد وتغطى هياكل الكنائس بالسواد وهذا معروف لدينا حتى اليوم في العراق . ويليه سبت النور ، ويقولون ان النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم ، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس .[٣]

٣) عيد الفصح .[٤] وهو العيد الكبير حيث قام المسيح من بين الاموات بعد ثلاثة ايام .[٥] وفي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو شرقي بغداد ، ولا يبقى احد من اهل الطرب واللهو الا حضره ، وهناك يدور الشراب والغناء ، قال فيه الشاعر :

فتلاعبت بعقولنا نسوانـــــه وتوقدت بخدودنا نيرانـــــه

حتى حسبت لنا البساط سفينة والدير ترقص حولنا حيطانه .[٦]

الاحد الحديث[٧] — حد الحدود — بعد الفصح بثمانية ايام ، يقع في اول احد بعد الفطر ، وفيه يجددون الآلات والاثاث واللباس ويأخذون في المعاملات والامور الدينية .[٨]

٤) خميس الاربعين — ويسمى ايضا السلاق ، وهو الثاني والاربعون من الفطر ، وهو يوم صعود المسيح الى السماء بعد قيامه من القبر ، ووعدهم بارسال روح القدس .[٩]

٥) عيد الخميس — وهو عيد العنصرة ، يعمل بعد القيامه بخمسين يوما ، يقولون ان روح القدس حلت بالتلاميذ وتفرقت عليهم السنة الناس فانبثوا بالبلدان يدعون لدين المسيح .[١٠]

---

(١) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٣٠٩ ، النويرى نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨٤ Jr. Hon, P. III
(٢) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٣٠٩
(٣) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٥
(٤) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٣٠٩
(٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٣
(٦) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٣٩
(٧) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٣٠٩
(٨) النويرى نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨٥
(٩) النويرى نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٣ — ٤ البيروني بالاخبار الباقية ص ٣٠٩
(١٠) النويرى نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨٤

عيد التجلي . وهو يوم المسيح تجلى لتلاميذه بعد ان رفع الى السماء ، وطلبوا اليه ان يحضر ايليا وموسى فاراهما في مصلى بيت المقدس ثم صعد .

عيد الصليب - يوم تنصر قسطنطين بن هيلانى وتركه دين اليونان ، وهناك قصص متعددة تدور حول الصليب منها ان امه اخرجت خشبة الصليب من المزبلة واتخذت اليوم عيدا . ويقولون انه وقت قطاف العنب .(١)

٦) عيد الميلاد - (٢) كانت ولا تزال العادة بان تشعل النار في ليلة عيد الميلاد (٢٥ كانون الاول) وذلك لان مريم عندما جاءها المخاض اشتد عليها البرد فاوقد لها يوسف النجار نارا واطعمها جوزا وجده في خرجه ، وهكذا سرت العادة بان يلعب بالجوز وتشعل النار في ليلة الميلاد .

الختان - وهو الثامن بعد الميلاد وفيه ختن المسيح .

الاربعون - عند دخول الهيكل يقولون ان سمعان الكاهن دخل بعيسى مع امه الهيكل وبارك عليه .(٣)

الغطاس - وفيه قيل ان يحيى بن زكريا قام في تعميد المسيح بنهر الاردن .(٤) واحتفل بعيد الغطاس في مصر احتفالا كبيرا ، لان كثيرا من النصارى كانوا يغطسون في النيل ، وفي هذا اليوم نفسه لا تزال الكنيسة الرومية في عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس وكان من الرسوم القديمة بمصر ان يركب متولي الشرطة السفلانية ليلة الغطاس في موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ، فيطوف الشوارع وينادي في الناس الا يختلط المسلمون بالنصارى في تلك الليلة ، والا ينكدوا عليهم عيدهم ، وذلك ان النصارى كانوا في سحر تلك الليلة يخرجون الى شاطئ النيل

---

(١) النويري ، نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨٥ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ص ١٨٣
(٢) النويري ، نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨٤ ، البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٣٠٩
(٣) نفس المصدر
(٤) نفس المصدر

ويغطسون فيه ، وكان رسم الملكيه خاصة ان يخرجوا من كنيسة ميكائيل التي بقصر الشمع الى شاطئ النيل في جمع وفير بالقراءة الملحنة والصلبان المشهورة ويصلوا ويخطب الاسقف المراس عليهم باللغة العربية ويدعو للسلطان ، وكان لاهل مصر واهل الملل والمذاهب بها في هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم في غيره من ايام السنة واعيادها " .(١) ويقول المسعودى في ليلة الغطاس : ولليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها ، لا ينام فيها ، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني ، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس في مصر والاخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل محيط بها وقد امر فاسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط الف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو الالوف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتنكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف ، وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سرورا ، ولا تغلق بها الدروب ويغطس اكثرهم في النيل ، ويزعمون انه امان من المرض ونشرة من الداء ".(٢) وكان سوق الشماعين يضاء وتبقى حوانيته مفتوحة حتى منتصف الليل والناس يقصدونه ، وكانت البغايا تجلس فيه ويقال لهن زعيرات الشماعين ، يلبسن الملآت والطرح وفي ارجلهن سراويل من ادم احمر ، وكن يمارسن الدعارة . وفي عام ٤١٥ هـ نزل امير المؤمنين الظاهر لنظر الغطاس ومعه الحرم ، وضرب متولي الشرطتين خيمة للخليفة وحرمه، وامر الخليفة ان توقد النار وتشعل المشاعل وكان وقودا كبيرا في الليل .(٣)

---

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ٢٤٢
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥
(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٦

وكان لبعض الاديرة اعياد خاصة يقصدها اهل اللهو والطرب من النصارى والمسلمين، فعيد القديسة اشموني يقع في الثالث من تشرين الاول ، وكان يعمل بدير اشموني بقطربل غربي دجلة ، وهو من الاعياد الكبيرة ببغداد ، تقصده مختلفي الطبقات ، كل يظهر فيه بحسب مقدرته فمنهم من يأتي بالزهازب ومنهم من يأتي بالطيارات والسميريات وكانوا يتنافسون لاظهار زينتهم . فيضربون الخيام وتعزف الالحان وترقص امامهم القيان .(١) وفعلا كان الغريب الذى يهبط بغداد ينتظر اشهرا حتى يرى ابهى وانزه واجمل منظر بها وهو موعد عيد القديسة اشموني ، ثم عيد القديسة بربارة يقع في اول الشتاء في الرابع كانون الاول ، والمسلمون يحترمونه وينتظرون مجيئه . ويقول المقدسي ، " ومن اعياد النصارى التي يتحارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول ، عيد بربارة ، وقت الامطار ، ومن امثال الناس اذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زمارة يعني فليجلس في البيت . "(٢) والمقدسي يفتخر بانه رأى عيد بربارة .(٣) كذلك كان يوم الباعوث عند النصارى يوم بطالة ، يخرج فيه المسيحيون من النسوة والرجال .(٤)

والملاحظة ان معظم هذه الاعياد وما كان يرافقها من طقوس لا يزال معمولا به حتى يومنا هذا .

الاعيـــــــاد الاســـــلامية .

ان الاعياد الاسلامية التي جاءت بها الشريعة اثنان ـ عيد الفطر وعيد الاضحى . والسبب في اتخاذهما ، ما روى عن الرسول ، انه قدم المدينة ولاهلها يومان يلعبون فيهما فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال الرسول، ان الله قد بدلكم خيرا منهما ، يوم الفطر ويوم الاضحى فبدء بعيد الفطر اولا وذلك سنة اثنتين هجرية وفي نفس السنة كان عيد الاضحى ايضا .(٥)

---

(١) البيروني ، الاثار الباقية ، ص ٢٩١ (٢) المقدسي احسن التقاسيم ص ١٨٢
(٣) المقدسي احسن التقاسيم ص ١٢٢ (٤) ياقوت الارشاد ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ ، الزيات الديارات ص ٨٠.
(٥) النويري نهاية الارب ج ١ ص ٤٥

وكان اهل البصرة يسمنون الاضاحي سنة او اكثر ويبيعون الواحدة بعشرة دنانير عند مجيء العيد .(١) ولما كان هذان العيدان الوحيدان الكبيران لذلك كان الاحتفال بهما يرافقه شيء كبير من الابهة والعظمة .

وابتدع الامير البويهي معز الدولة سنة ٣٥٢ هـ عيدا وسماه عيد الغدير .(٢) وسبب اتخاذه ان الرسول آخى على ابن ابي طالب يوم غدير خم في السنة العاشرة من الهجرة واليوم الذى اتخذوه عيدا هو الثامن عشر من ذى الحجة . ومن مراسيمهم ان يصلوا صبيحة اليوم ركعتين قبل الزوال . وشعارهم فيه لبس الجديد وعتق الرقاب والزيائح .(٣) وكانوا يضربون الدبادب ويظهرون الزينة وينصبون الاعلام ويشعلون النيران ليلا في الاسواق وقسم يخرج الى مقابر قريش للصلاة .(٤)

ومقابل ذلك اخذ السنة يوم سرير مقابل ما عمل الشيعة وذلك سنة ٣٨٩ هـ وجعلوه بعد الغدير بثمانية ايام وقالوا : انه يوم دخول الرسول وابو بكر الصديق الغار . واظهروا فيه الزينة وايقاد النار ونصب القباب .(٥)

اعـــــياد الفـــــرس .

كان للفرس اعياد كثيرة اهمها ثلاثة اعياد ، النوروز والمهرجان والسدق .

النوروز ـ اعظم اعيادهم واجلها ، وهو رأس السنة الفارسية ، لذا كانت مهرجاناته فخمة وجميلة .(٦) وقيلت القصص الكثيرة في سبب اتخاذه فمنهم من قال انه يوم انتصار جمشيد الاول على طهومرث فسماه اليوم الجديد اى (نوروز) ومنهم من زعم انه اليوم الذى خلق الله فيه النور ومنهم قال هو يوم ابتداء الفلك بالدوران .

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٣ ، ص ٦٣
(٢) Grunebaum , Med. Islam. P.189
(٣) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٧٧
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٠٧ ، الصابي الوزراء ، ص ٣٧١ ، ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢٠١
(٥) النويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ص ١٧٨ ؛ الصابي الوزراء ص ٢٧١
(٦)

ومدته عندهم ستة ايام ، اولها اليوم الاول من شهر افريدون ماه الذى هو اول شهور سنتهم ، ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير ، لان الاكاسرة كانوا يقضون في الخمسة الايام الاولى حوائج الناس ، ثم ينتقلون الى مجالس انسهم مع خاصتهم ويقع في ٢١ اذار من شهورنا اى في مقتبل الربيع . يقول الشاعر :

ابشر بنيروزك اتاك مبشـــــرا بسعادة وزيادة ودوام

واشرب فقد حث الربيع نقابـه عن منظر متهلل بسام .(١)

وحكى ابن المقفع عن عاداتهم في هذا العيد، ان يأتي شخص وقور الى الملك فيهنئه بالسلامة ثم يجلس ويدخل آخر ومعه طبق فضة وفيه حنطة وشعير وحمص وسمسم وارز (من كل نوع سبع سنابل وتسع حبات) وقطعة سكر ، ودينار ودرهم جديدان فيضع الطبق بين يدى الملك ثم تدخل الهدايا ويعدها الناس للتهاني .(٢) والعادة ايضا ان يتهادى الناس فيما بينهم .(٣)

اتخذ العرب النوروز عيدا وكذا المهرجان واصبح من الاعياد القومية (+) وكانوا يشربون النبيذ ويقيمون الحفلات (٤) يقول ابن حوقل " وفي اصفهان سوق يجتمع فيه الناس كالموسم للشرب والقصف والعزف ابان النيروز سبعة ايام بانواع الملاذ وغرائب الزينة قد تأنق حاضروه في الاستعداد لمآكلهم ومشاربهم وافاخر اهل البلد ومن قصده من البعد واطراف نواحيهم النفقات الواسعة والزينة الرائعة والملابس الحسنة والاحتفال للعب والطرب فيعتكفون على لذاتهم ويتبارون في مجالسهم ونشواتهم بحذاق المسمعين والمسمعات على شاطئ الوادى وفي القصور ، قد ركبوا السطوح وغصوا الاسواق نهاية الاحتفال في المآكل والمشارب والاتقان موصولا ليلهم بنهارهم ، لا يقرون ولا يغارضون ولا يمنعون ، قد اوسعهم سلاطينهم ذلك واتصلت العادة على مر الاوقات واختلاف السنين ... ، ويقال ان نفقاتهم

---

(١) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٣ ، ص ١٦٥
(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٧٨ - ١٧٩
(٣) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ٢٥٧
(٤) الاغاني للاصفهاني ، ج ١٧ ، ص ١٢٧ تقدم

(+) ولا تزال العادة في العراق حتى اليوم .

في هذا السوق عند حلول الشمس الحمل يبلغ مائتين الف درهم .[١] وكذلك جرت العادة عند العوام وغيرهم ان توقد النيران في ليلة النوروز ويرش الماء في صبيحته .[٢]

وكان العامة في مصر ينتخبون رجلا عليهم يسمونه امير النوروز ، فيطلي وجهه بالدقيق او الجير ويركب حمارا ويطوف بالشوارع وعليه ثوب احمر او اصفر ويسير بجمع غفير من الناس وبيده دفتر كدفتر المحتسب ويسأل في طلب دفع رسم رتبة ، ومن لم يدفع من الناس يرش بالماء الممزوج بالاقدار ، ويضرب الناس بعضهم بعضا . وان غلط وجهه وخرج من داره فما عليه الا افتداء نفسه . اما تلاميذ الكتاتيب فكثيرا ما كانوا يهجمون على معلمهم فلا يتركونه حتى يفتدي نفسه بالمال .[٣] كذلك كانوا يتهادون السكر فيما بينهم ويزرعون الشعير والحنطة في المراكن .[٤]

المهـــرجان — يقع المهرجان في السادس والعشرين من تشرين الاول وفي العاشر من مهرماه ، وبعد مائة واربعة وتسعين يوما من النيروز اى في منتصف الخريف . ويعد من اكبر الاعياد . ايامه ستة ، ويسمى اليوم السادس المهرجان الاكبر . وقيلت قصص في اصل اتخاذهم لهذا العيد منها ان كان للفرس ملك ظالم يدعى مهر فمات في منتصف الشهر فسمي ذلك اليوم (مهرماه) اى نفس مهر ذهبت وهذا بالفهلوية الوسطى وقال آخرون ان مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح وقيلت في ذلك اشعار .[٥]

ومن عادات ملوكهم في المهرجان ان يدهنوا بدهن البان تبركا ويلبسون القصب والوشي ويتوجون بتاج عليه صورة الشمس ، واول داخل على الملك هو الموبذان يحمل طبقا فيه اترجه وقطعة سكر ونبق وسفرجل وعناب وتفاح وعنقود عنب ابيض وسبع طاقات آس قد زمزم عليها .[٦] وكانوا يهدون فيه ويعيدون كأحسن الاعياد وابهجها .[٧] وكانوا يقيمون فيه

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ج ٢ ، ص ٣٦٤
(٢) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ١٢ ، ص ٣١٦٤ ،
(٣) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٩٤
(٤) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٢١٦ — ٢١٧
(٥) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨١
(٦) نفس المصدر
(٧) الخوارزمي ، الرسائل ، ص ٧٠ — ٧١

Ency. of Islam, Nawruz

كل العاب اللعب والسرور ويشربون ويسكرون ، ولما كان ابتداء الخريف فضله بعضهم على النوروز كما فضلوا الخريف على الربيع (١) . يقول عبيد الله بن عبدالله بن طاهر (٢) :

اخا الفرس ان الفرس تعلم انه لاطيب من نيروزها مهرجانها (٣)

وجاء في اليتيمة وصف لعيد المهرجان ، انه يوم عطلة ، يبداء الناس فيه بالاكل والشرب قبل طلوع الشمس ولا يكون لهم هم سوى الغناء والالحان (+) . وهكذا عيد الناس يومئذ في عيدى النوروز والمهرجان من غير تفريق بين عربي او فارسي (٤) .

السـدق - يسمى عند الفرس باسم (ابان روز) يقع في ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه . تضاربت الروايات في سبب اخذهم للعيد . ومن عاداتهم ايقاد النيران في ليلة السدق بسائر الادهان ، ويكثرون ولوعها حتى يلقون فيها انواعا مختلفة من الحيوانات (٥) .

واشهر ليلة وقود في القرن الرابع كانت سنة ٣٢٣ هـ ، ففي هذا العام امر القائد مرداويج امير بلاد الجبل غربي ايران ، قبل حلول ليلة الوقود بمدة طويلة ، ان تجمع الاحطاب من الجبال والنواحي البعيدة وتنقل الى وادى زرين روز قرب اصفهان ، وامر بجميع النفط والنفاطين واعدت الشموع الكبيرة ، ولم يبق جبل قريب او تل الا ووضعت عليه الاحطاب ، وصيدت الغربان والحدا وعلق بمناقيرها وارجلها الجوز المحشو بالنفط وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع واساطين عظام ، كل ذلك ليكون الايقاد مرة واحدة في الصحراء وعلى الجبال والطيور التي تطلق . ثم عمل سماطا كبيرا يخرج من داره ويمتد في الصحراء ، وفيه انواع المآكل ، فلما اعد كل شيء وزف الوقت ليخرج ويراه بام عينيه

---

(١) Ency. of Islam, Nihrgan
(٢) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٢٣٣
(٣) النويري ، نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨١ (+) الثعالبي ، اليتيمة ج ٢ ص ٥٧
(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٤٤١
(٥) النويري ، نهاية الارب ج ١ ، ص ١٨١

احتقر ما عمله واستصغر شأنه ، لان الصحراء والفضاء واسعان وكبيران وان كل ما عمله لا شيء بالنسبة لهذه الطبيعة ، فانقلب فرحه قرحا ورجع قافلا الى خيمته واضطجع محولا وجهه عن الباب لئلا يكلمه احد .(١)

اعـــياد اليهـــود .

١) عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا اى عيد رأس الشهر ، وهو اول يوم من تشرين ، ويقابل عيد الاضحية ، ويقولون ان الله امر ابراهيم بذبح اسحاق ابنه ففداه عندذاك باضحية عظيمة .(٢)

٢) عيد صوما ربا . ويسمى الكبور ، اتخذوه ليكفروا عن ذنبهم بعبادتهم للعجل الذهبي ، ومدته خمس وعشرون ساعة ، يبدأ بها قبل غروب الشمس ويختم بمضي ساعة بعد غروبها في اليوم الثاني . ويشترطون فيه رؤية ثلاثة كواكب قبل الافطار ، ويزعمون ان في هذا اليوم كلم الله موسى ابن عمران ، وعندهم ان بهذا الصوم يغفر الله لهم كل ذنوبهم عدا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل اخاه ، وجحد ربوبية الله ، ومن لم يصمه يحلون عليه القتل.(٣)

٣) عيد المجلة . او عيد هامان (همیون) او عيد الفوز ، ويسمونه كذلك الفوريم ، وسببه ان بختنصر عندما سبا اليهود اتى بهم جي احدى مدن اصفهان ، ولما ملك اردشير تزوج ابنة عم حبر اليهود ، لذلك ارتفعت منزلة الحبر واليهود عامة ، مما دعى الفرس ولا سيما الوزير ان ينتبهوا للامر ويفكروا في الايقاع بهم ولكن شاءت الظروف ان يشعر الحبر ويكلم ابنة عمه التي اخبرت الملك بالامر ، فامر بقتل الوزير هامان وكتب امانا لليهود في مملكته . لذا اتخذ اليهود هذا اليوم عيدا ، يظهرون فيه السرور والخلاعة ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣
(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٧
(٣) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٢٧٦ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٧

ويلعبون بالورق ويصورون صورة هيمون بالنخالة ويرمونها في النار رمزا لما حل بالوزير .(١)

٤) عيد الحنكة . وهو ثمانية ايام ، يوقد في كل ليلة من لياليه مصباح ويزيدونها حتى تكتمل ثمانية ، والسبب في اتخاذه ان بعض الجبابرة اغار على بيت المقدس وقتل الكثير من بني اسرائيل وافتض ابكارهم ، حتى تهيأ له ثمانية اخوه فقتله صغيرهم ، فطلب زيتا لوقود الهيكل فلم يجد الا القليل ، فوزع على ما يوقدونه من السرج على ابوابهم في كل ليلة الى ثمان ليال فاتخذ اليهود هذه الايام عيدا وسموه الحنكة ، وهو مشتق من التنظيف كأنهم نظفوا فيها الهيكل من اقذار شيعة الطاغية .(٢)

٥) عيد المظلة . وايامه سبعة متوالية ، يستظلون فيها باغصان الخلاف والقصب وسعف النخل الاخضر واغصان الزيتون وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الارض واخر يوم من عيد المظال وهو السابع يسمونه عرابا اى الخلاف ، وفيه وقف الغمام على رؤوس بني اسرائيل في التيه ، لذلك اقاموا هذا الظل بالاشجار تذكارا لذلك اليوم .(٣) والعادة ما زالت متبعة في العراق حتى اليوم .

٦) عيد صديقيا . وسببه ان بختنصر قتل اولاد صديقيا ، ففقئت اعينهم ، ومثل بهم ، ولم يظهروا الجزع والبكاء بل صبروا على المحنة . فافتتم لذلك بنو اسرائيل فصاموا .(٤)

٧) عيد الفطير . وفيه لا يأكلون شيئا مختمرا لان الله امرهم ان يأكلوا سبعة ايام فطيرا ، لذا ينظفون بيوتهم من الخبز الخمير وفي ظنهم ان هذه الايام هي الايام التي خلص الله فيها بني اسرائيل من فرعون واغرقه في البحر وخرج بنو اسرائيل الى التيه واكلوا اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون .(٥)

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، البيرونى ، الاخبار الباقية ، ص ٢٨٠
(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٣ ، ص ١٨٩ ، البيرونى ، الاخبار الباقية ، ص ٢٧٨
(٣) النويرى نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، البيرونى ، الاخبار الباقية ، ص ٢٧٧
(٤) البيرونى ، الاخبار الباقية ، ص ٢٧٧ .
(٥) البيرونى ، الاخبار الباقية ، ص ٢٨١ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٨

٨) عيد الاسابيع . هي الاسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض وكمل فيها الدين ، ويسمونه عيد العنصره وعيد الخطاب . ويأتي بعد عيد الفطير بسبعة اسابيع ، ويقولون ان الله كلم موسى من جبل طورسينا واعطاه الوصايا ، وفيه يأكلون القطايف والحلو بدل المنّ .(١)

٩) عيد التبريك . وهو يوم استكمال الاعياد ، تبطل فيه الاعمال ، ويزعمون ان التوراة فيه استتم نزولها وسلمت الى امتهم ، لتوضع في الكنائس ، وفي هذا العيد يخرجون التوراة ويتبركون فيها ويتفاءلون بنشرها وقراءتها .(٢)

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٨
(٢) البيروني ، الاخبار الباقية ، ص ٢٧٧

المـــراجـــــع

المصـادر الاوليـــــة :

١ ـ القـــرآن

٢ ـ الابشيهـــي ـ المستطرف في كـل فـن مستظـرف . مصـر سنـة ١٣٠٦ هـ

٣ ـ الاثيـــــر ، ابـن ـ الكامـل فـي التـاريخ . باعتنـاء تـورنبـرج . ليـدن ١٨٦٩م .

٤ـ الاخـوه ، ابـن ـ معالـم القـربة في احكـام الحسبة . باعتنـاء ليفـي . كمبـرج ، ١٩٣٧م

٥ ـ الاصفهاني ، ابو الفـرج ـ كتـاب الاغاني . مطبعـة دار الكتـب بالقاهـرة سنـة ١٩٢٨ وما بعده

الاصفهانـي ، ابـو الفـرج ـ " " . مطبعـة التقـدم بالقاهـــرة .

٦ ـ الف ليـلة وليـلة ـ المطبعـة اليسوعيـة ، بيـروت ١٩٠٩م .

٧ ـ البحتـرى ـ الديـوان . بيـروت سنـة ١٩١١م .

٨ ـ البغدادى ، الخطيـب ـ تـاريخ بغـداد . مطبعـة السعـاده بمصـر سنـة ١٩٣١م .

٩ ـ البيـروني ـ الاثـار الباقيـة عن القـرون الخاليـة . باعتنـاء ساخـو ١٨٧٨م . لايـبزج .

١٠ـ البيهقـي ـ المحاسـن والمسـاوئ . مصـر مطبعـة السعـاده ١٩٠٦م .

١١ـ تغـر بردى ، ابن ـ النجم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقاهـرة . باعتنـاء وليم بوبـر ، بركلـــي كاليفورنيـا ١٩٠٩ ـ ١٩١٢ .

١٢ ـ التنوخـي ـ الفـرج بعـد الشـدة . مطبعـة الهـلال بمصـر ١٩٠٣م .

١٣ ـ التنوخـي ـ نشـوار المحاضـره . مطبعـة امـين هنـدية بمصـر ١٩٢١م .

١٤ ـ التوحيـــدى ـ الامتـاع والمؤانسة . باعتنـاء احمـد امـين واحمـد الزيـن . مطبعـة لجنـــة التـأليـف والترجمـة والنشـر بالقاهـرة . سنـة ١٩٣٩م .

١٥ـ التوحيـدى ـ المقابسـات . باعتناء السنـدوبي . المطبعـة الرحمانيـة بمصـر ١٩٢٩م .

١٦ ـ الثعالبـي ـ خاص الخـاص . مطبعـة السعـاده بمصـر ١٩٠٨م .

١٧ ـ الثعالبي ـ يتيمـة الدهـر . دمشـق ١٣٠٤ هـ .

١٨ ـ الثعالبي ـ ثمار القـلوب في المضاف والمنسـوب . القاهـرة ١٣٢٦ هـ .

١٩ ـ الثعالبي ـ احسن ما سمعت . مصـر ١٣٢٤ هـ .

٢٠ ـ الجاحظ ـ البخلاء . باعتناء فان فلوتـن . مطبعـة دار الكتـب المصـرية بالقاهـرة ١٩٣٩م .

٢١ – الجاحظ – البيان والتبيين . مطبعة دار الرجاء بمصر .

٢٢ – الجاحظ – الحيوان . المطبعة الحميدية بمصر ١٣٢٣ هـ .

٢٣ – الجاحظ – ثلاث رسائل في القيان . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .

٢٤ – الجاحظ – مجموع رسائل الجاحظ . باعتناء بول كراوس والحاجري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٩٤٣ م .

٢٥ – جبير ، ابن – الرحلة . بغداد ١٩٣٧م .

٢٦ – الجوزي ، ابن – المنتظم في تاريخ الملوك والامم . حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ – ٩ هـ .

٢٧ – الجوزي ، ابن – اخبار الحمقى والمغفلين . دمشق ١٣٤٥ هـ .

٢٨ – الجوزي ، ابن – اخبار الاذكياء . مصر ١٣٠٤ هـ .

٢٩ – الجوزي ، ابن – الظراف والمتماجنين . دمشق ١٣٤٧ هـ .

٣٠ – الحريري – المقامات . مع شرح البارون سلفستر دساسي . باريس ، دار الطباعة الملكية ١٨٢٢م .

٣١ – حوقل ، ابن – كتاب صورة الارض . ليدن ١٩٣٨م .

٣٢ – خرداذبه ، ابن – المسالك والممالك . باعتناء دي غويه . ليدن ١٨٨٩م .

٣٣ – خلدون ، ابن – المقدمة . مطبعة مصر .

٣٤ – خلكان ، ابن – وفيات الاعيان . مصر ١٢٧٥ هـ .

٣٥ – الخوارزمي – مفاتيح العلوم . مصر ١٣٤٢ هـ .

٣٦ – الخوارزمي – الرسائل . مصر ١٢٩٢ هـ .

٣٧ – رسته ، ابن – الاعلاق النفيسة . باعتناء دي غويه . ليدن ١٨٩١م .

٣٨ – الدينوري – الاخبار الطوال . بغداد .

٣٩ – الرضي ، ابن – الديوان . تصنيف نامل كيلاني . مصر ١٣٢٤ هـ .

٤٠ – الزبيدي – معجم تاج العروس . مصر ١٢٠٦ – ١٢٦٧ هـ .

٤١ – الصابي ، ابو اسحاق – الرسائل . باعتناء شهاب ارسلان . بعبدا ، لبنان ١٨٩٨م .

٤٢ – الصابي ، هلال – تحفة الامراء في تاريخ الوزراء . باعتناء آمدروز . مطبعة اليسوعية بيروت ١٩٠٤م .

٤٣ – الطبري – تاريخ الرسل والملوك . باعتناء دي غويه . ليدن ١٨٩٨م .

٤٤ – عبد ربه ، ابن – العقد الفريد . مصر ١٣٠٥ هـ .

٤٥ – الفقيه ، ابن – مختصر كتاب البلدان . باعتناء ده غويه . ليدن ١٣٠٢ هـ .

٤٦ – القارئ ، ابن محمد – مصارع العشاق . مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ١٣٠٤ هـ .

٤٧ – قتيبه ، ابن – عيون الاخبار . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥م .

٤٨ – قدامه ابن جعفر الكاتب – الخراج وصنعة الكتابة . باعتناء ده غويه . ليدن ١٨٨٩م .

٤٩ – القزويني – اثار البلاد واخبار العباد . باعتناء وستنفلد . كوتنجن ١٨٤٨م .

٥٠ – الجوزيه ، ابن قيم – اخبار النساء . مطبعة التقدم بمصر ١٣١٩ هـ .

٥١ – كتاجم – ادب النديم . بولاق ، مصر ١٨٨١م . ١٢٨٨ هـ .

٥٢ – الكندي – الولاة وكتاب القضاة . باعتناء كست . مطبعة الاباء اليسوعية . بيروت ١٩٠٨م .

٥٣ – الماوردي – الاحكام السلطانية . مصر ١٩٠٩م .

٥٤ – المتنبي – الديوان . المطبعة الادبية ، بيروت ١٣٠٥ هـ .

٥٥ – محمد بن الحسن – الجامع الصغير (في هامش كتاب الخراج لابي يوسف) . بولاق ، مصر ١٣٠٢هـ .

٥٦ – المسعودي – مروج الذهب ومعادن الجوهر . باعتناء بربيه دي ميفار . باريس ١٨٧٦م .

٥٧ – المسعودي – التنبيه والاشراف . باعتناء ده غويه . ليدن ١٨٩٣م .

٥٨ – مسكويه ، ابن – تجارب الامم . مصور باعتناء آمدروز . مصر ١٩١٤ – ١٩١٦م .

٥٩ – المعتز ، ابن – الديوان . مصر ١٨١١ م .

٦٠ – المعري – اللزوميات . مصر ١٩٢٤م .

٦١ – المعري – رسالة الغفران . باعتناء كامل كيلاني . مصر ١٩٢٣م .

٦٢ – المقدسي – احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . باعتناء ده غويه . ليدن ١٨٧٨م .

٦٣ – المقريزي – كتاب الخطط . بولاق ، مصر . ١٢٧ هـ .

٦٤ – النديم ، ابن – الفهرس . المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

٦٥ – نواس ابو – الديوان . مصر سنة ١٨٩٨ م .

٦٦ – النويري – نهاية الارب في فنون الادب . مكتبة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤ وما بعدها

٦٧ – الوشاء – الموشى . ليدن ١٣٠٢ هـ .

٦٨ – ياقوت – معجم البلدان . مصر ١٩٠٦ م .

٦٩ – ياقوت – ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، المعروف بمعجم البلدان . مطبعة هندية بالموسكي ١٩٢٥م .

٧٠ ـ الحموي ـ البلدان . باعتناء ده غويه . ليدن ١٨٩١م .

٧١ ـ اليعقوبي ـ التاريخ . مطبعة الغري ، النجف العراق .

٧٢ ـ يوسف ، ابو ـ كتاب الخراج . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

* * * *

المراجع الثانوية .

١) بارتولد . ف ـ تاريخ الحضارة الاسلامية . نقله الى العربية حمزة طاهر . مطبعة المعارف مصر سنة ١٩٤٢م .

٢) البستاني ، بطرس ـ محيط المحيط . المعارف

٣) الدوري ، عبد العزيز ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة . بغداد ١٩٤٥م .

٤) الزيات ، حبيب ـ الديارات النصرانية . بيروت ١٩٢٨

٥) العريان ، محمد سعيد ـ قطر الندى . مصر ١٩٤٥م .

٦) متز ، آدم ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . ترجمة ابو ريده . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٤٠م .

BIBLIOGRAPHY

1) Abbot, Nabia - "Two Queens of Baghdad" - Cambridge (1928).

2) Arnold, Sir Thomas W. - "The Caliphate" - Oxford (1924).

3) Arnold and Guillaume - "The Legacy of Islam" - Oxford (1931).

4) Barthold, W. - "Musslumen Culture" - Calcutta (1934).

5) Bowen, H. - "The Life and Times of Ali b. Issa" - Cambridge (1928).

6) Cooke, Richard - "Baghdad the City of Peace" - (1927).

7) Farmer - "A History of Arabic Music" - London (1929).

8) Grunebaum - "Medieval Islam" - Chicago (1946).

9) Hitti, Philip K. - "The Arabs" - London (1940).

10) Levy, R. - "A Baghdad Chronicle" - Cambridge (1929).

11) Levy, R. - "Sociology of Islam" - London (193).

12) Noldeke, Theodor - "Sketches from Eastern History" - London (1892).

13) Tritton, A.S. - "The Caliphs and their Non-Muslim Subjects" - London (1930).

14) Encyclopaedia of Islam, N.H. Houtsma - Vol. III, London (1907).

M. Plessner - "Mihr-Gan"
A.J. Wensinck - "Nawruz".

BIBLIOGRAPHY

1) Abbot, Nabia - "Two Queens of Baghdad" - Cambridge (1928).

2) Arnold, Sir Thomas W. - "The Caliphate" - Oxford (1924).

3) Arnold and Guillaume - "The Legacy of Islam" - Oxford (1931).

4) Barthold, W. - "Mussluman Culture" - Calcutta (1934).

5) Bowen, H. - "The Life and Times of Ali b. Issa" - Cambridge (1928).

6) Cooke, Richard - "Baghdad the City of Peace" - (1927).

7) Farmer - "A History of Arabic Music" - London (1929).

8) Grunebaum - "Medieval Islam" - Chicago (1946).

9) Hitti, Philip K. - "The Arabs" - London (1940).

10) Levy, R. - "A Baghdad Chronicle" - Cambridge (1929).

11) Levy, R. - "Sociology of Islam" - London (193).

12) Noldeke, Theodor - "Sketches from Eastern History" - London (1892).

13) Tritton, A.S. - "The Caliphs and their Non-Muslim Subjects" - London (1930).

14) Encyclopaedia of Islam, M.H. Houtsma - Vol. III, London (1907).

M. Plessner - "Mihr-Gan"
A.J. Wensinck - "Nawruz".

ملخـــــــص

العصر العباسي

نواح من الحيـاة الاجتماعـية في القـرن الرابـع الهجـــــــــــرى

البـاب الاول ـ العائـــلة

الفصـل الاول ـ المـــرأة

لـم يكـن للمـرأة فـي القـرن الرابـع الهجـرى ايـة قيمـة فـي المجتمـــع اذ كانـت تبـاع وتشـرى وتهـدى كخلعـة رخيصـة او كـأى قطعـة من اثـاث البيـت . فهـذا النـوع مـن التفـريـط فيـها وسهـولة متناولهـا قلـل من هيبتهـا واحتـرامهـا ، الـى درجـة اثـرت في عاطفـة الاب ، فلـم يعـد يرغـب بطفـلتـه ، وكانـت البشـرى بالبنـت امقـت ما يمكـن ان يسمعـه الرجـــل . وكـان موتهـا ممـا يهنـأ فـيه ، ويـرون البكـاء عليهـا عيبـا . ولـم يكـن امـر تعليمهـا يسترعـي الانتبـاه بـل تعليمهـا القـرآن كـان اهـم شـيء ، ثـم اعمـال البيـت ، لتصبح امـرأة قـادرة علـى ادارة بيتهـا وتربيـة اطفالهـا . ومتـى ما قاربـت سـن الـزواج ، تـزف فـي الغالـب لابن عمهـا ، او اى شخـص يرتـأيـه والدهـا ، ولـم يكـن لهـا امـر الاختيـار ابـدا . ويعـطى لهـا صـداق والرجـل لا يـــرى الزوجـة بـل تسفـر النسـاء فـي امـر خطبتهـا . وفـي اليـوم المعـين يـأتـي المأذون مـع شاهـــدين علـى العـروس والعـريس للتوقيـع . وبعـد الانتهـاء مـن مراسيـم الـزواج الشرعـي ، تقـام الافـــراح .

وعنـد عـدم التفاهـم بـين الزوجـين يلجآن للطـــلاق ، كذلـك الـى تـــرك الـزوج زوجتـه وذهـب فـي سفـر بعيـد فالـلمرأة الحـق فـي طلـب الطـلاق .

والـزواج باكثـر مـن واحـــدة كان مـألوفـا لاسيمـا وان القـرآن سمح بـــه " فانكحـوا ما طـاب لكـم مـن النسـاء متنـى وثلـث ورباع فـان خفتـم ان لا تعـدلوا فواحـدة او مـا ملكـت ايمانكـم . " ولكـثرتهـن فـي البيـت الواحـد مضـار اجتماعـية كثيـره جـــدا .

وينتظـر مـن الزوجـة الكـريمـة ان تفـي العهـد لزوجهـا وتخدمـه باخـلاص وتقـوم امـر بيتهـا . وكثيـرات مـن النسـوة اصبح لهـن تـأثـير كبيـر علـى ازواجهـن ، فلـــم يكـن الرجـل ليرفـض طلبهـن مهمـا غـلا ونـــدر .

امـا زواج الام فقـد جوزتـه الشـريعـة عندمـا تصبح المـرأة ارملـة . ولكـــن المجتمـع والعـرف والعـادة والتقـاليـد استهجنـوه .

../..

لم تكن المرأة لتحسد على منزلتها الاجتماعية في هذا العصر ، لما كانت عليه من المهانة والحجر وانعدام الشخصيه . ولكن بالرغم من ذلك كله برز بعضهن بما خلفنه من الاثر الادبي . اما في السياسة لم تكن لديهن الباع الطويله التي وجدت عند الجوارى . واللواتي اشتغلن في السياسة وبرهن على قوة شخصيتهن كن قليلات .

الفصل الثاني - الجوارى .

الجوارى جمع جارية ومعناها فتية النساء . كان يؤتى بهن من البلغار وبلاد الترك ، مصر ، جنوب جزيرة العرب وشمال افريقيا . كن يعلمن الغناء ويعهد بهن الى مغن مشهور ، كذلك يحفظن القرآن والاشعار وبعدها يعرضهن النخاس في اسواق الرقيق . وكثيرا ما كان يحتال النخاس ببيع الرقيق ، فيبهرج القبيحة ويبيعها بسعر الجميلة . كان ثمن الجوارى البيض اغلى من السود ، وكذلك الجميلة والموهوبة والمثقفة لها ثمن خاص .

قامت الجوارى بمختلف الواجبات في البيت كذلك خصص بعضهن للمنادمة ومنهن للعزف . اما اللواتي اشتغلن خارج البيت فمارست بعضهن البغاء لقاء اجر معين .

نلن هؤلاء الجوارى منزلة عظيمة من الرجل ، كيف لا ، وقد مرن منذ الصغر على الغواية والاغراء . وكان الرجل اذا تزوج احداهن اعتقها وصبح احرار .

اثر نظام الجوارى في الاخلاق وتربية الاطفال ، وزاد في انحطاط المجتمع . اما في السياسة فكان لهن الباع الطويلة ، وغلب امر بعضهن على الدولة وسياستها .

الفصل الثالث تأديب الاولاد .

كان الاولاد يدرسون في كتاتيب خاصة بهم ولهم مدرسين خاصين وكان المحتسب يفتش تلك المدارس من آونة الى اخرى .

../..

الباب الثاني - مستوى المعيشه .

لمحة في حياة بغداد في القرن الرابع الهجرى . الاسعار ، المهن والحرف التي مارسها اهل العصر ، النفقات ، الدخل ، هذا بالنسبة للاغنياء والطبقة المتوسطة والفقراء .

الفصل الثاني - البيوت .

مواد البناء ، شكلها ، مرافقها ، معاملات البيوت كالايجار ، لمحة عن الشروط بين المؤجر والمستأجر ، حيل واكاذيب كل منهما التهاني بالبيت الجديد . وسائل الراحة ، كاستعمال الخيش والمراوح في الصيف وتنظيف البيت من الحشرات . ثم الاثاث وصورة لبيوت الاغنياء ، متوسطي الحال والفقراء .

الفصل الثالث - الملابس .

انواع الاقمشة ، وساطرها ، وصفها . ما كان يلبسه الرجل والمرأة . لبس سروات الناس . وما كان يلبس في المناسبات الخاصة .

الفصل الرابع - الطعام .

الخضروات والفواكه المعروفة يومئذ ، اعمدة الغذاء . اهتمام الناس في الاكل ، تأليف الكتب في ، الطبخات المشهورة واخيرا آداب الطعام والموائد .

الباب الثالث - بعض العادات والمراسيم الاجتماعية .

الفصل الاول - الاساطير والخرافات والمعتقدات المتفشية بين الناس يومئذ

الفصل الثاني - الاخلاق العامة ميزات (الظريف) كالغزل والمراسلة والهدايا والباس والطعم

الفصل الثالث - بعض العادات الاجتماعية والمعاملات ، في السوق ، البيوت ، المآتم والاعراس

الفصل الرابع - مجالس السمر واللهو واللعب . . . مجالس الشراب فرشها بالرياحين ، ذوى الندماء ، الخمره واوصافها واسماؤها ، ثم اتخاذ الاديره كدور للهو . وصف السقاة

ب - الغناء - كان الغناء من اعمدة المجالس ، شجعه الخلفاء بما قاموا به من مناظرات بين المغنين ، واولع به الناس واتخذوه وسيلة للترفيه عما بانفسهم .

ج - الرقص كان له محل كبير في مجالسهم ، يقوم به النساء والرجال - د - السمار والقصاص ، الذين لعبوا بعقول العامة واثروا عليهم . - هـ - التغزل بالغلمان ، نظام الخصيان ، اخلاقهم وما اشتهروا به ، الغلاميات

ولـوع النـاس بحـب الذكـور .

و - وسائـل اللهـو واللعـب ، كالشطـرنج والنـرد وقوانينهمـا واشهـر مـن لعـب بهمـا ، والكتـب التـي الـفت فيهمـا . ثـم الكـره والصولجـان غيرهـا من الالعـاب واخيـرا الصيـد .

الفصـــل الخامـــس - الاعيـاد ومواسمهـا .

١) اعـياد النصـارى المختلـفة ، ثـم اعيـاد بعـض الاديـره والقديسيـن ووصـف لمـا كـان يجـرى فـي هـذه الاعيـاد من احتـفالات واشتـراك المسلمـين فـي تـلك المهـراجـانات .

٢) اعـياد الاسـلام ، كالاضحـى والفـطر والمـراسيم فيهمـا .

٣) اعـياد اليهـود - اسبابهـا ، والتقاليـد التـي لا زالـوا متمسكـين بهـا احـيا لذكـــرى المناسبـات التـي اتخـذت الاعـياد فيهـا .